

مِلَّةُ الأَنبِيَاءِ وَمَنهَجُ الأَولِيَاءِ

تصنيف

أَبِي الحَارِثِ الأَنصَارِي

مؤسسة قمم الإعلامية



رمضان ١٤٣٩هـ

الجزء الأول

الموطآت

"يا أيها الإنسان قد جاءك البلاغ من الرحمن"

قال الله ﷻ: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[الزمر: ٥٤-٥٩].

فيا أيها الإنسان إن ربك دعاك – رحمةً بك، لا حاجة منه إليك- للرجوع إليه، رجوع المقر بوحدانيته، المتبع لهديه، المسلِّم لحكمه، والوجل من مخالفة أمره، قبل أن يحل عليك عذاب ربك فجأة، فقد بلغتك النذارة وأُقيمت عليك الحجة.

واحذر يوم الحساب، يوم لا ينفع الكافرين معذرتهم، فتُدحض حجتهم، ويتبرأ منهم أتباعهم وأزواجهم وأولادهم، وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

ولن يفيدك:

١- الندم على ما أسلفت في حياتك الدنيا، أو تقول: يا حسرتاه على ما ضيعت من الأمر، ويا ويلتاه على ما تجرأت عليه من النهي.

٢- السخرية والاستهزاء بالموحدين، كأن تقول: هم الأرذلون، أو: شرذمة قليلون.

٣- الاحتجاج بالقدر على فعلك، فتقول: كتاب مكتوب وقضاء مقضي.

٤- تمني العودة إلى الحياة الدنيا لتعمل صالحاً، غير الذي كنت تعمل.

فأنت أنت من جاءته الآيات، وبلغته الحجة، فاستكبر – بنفسه وقومه، وآله وجنده- وتولى، وتمرد وعصى، وامتنع وأبى، فأولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى، لُم نفسك فعليها عبء الملامة، إذ كنت من الكافرين.

وأما من آمن وأطاع الله ﷻ والرسول ﷺ، {فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}[النساء: ٦٩].

"تنبيه"

اعلم أيها المسلم أنه لا يرفع بالتوحيد رأساً، إلا من رسخت قدمه في الإيمان رسوخ الجبال، وأنه دون الرقي على سلم التوحيد فلن يبلغ المسلم منازل الموحدين، إذ كيف يعادي الكافرين من ألف قربهم، وأنس بمودتهم، وظن أن النصر نصرهم والمدد مددهم؟ وكيف يجافيهم من اتخذهم بطانة وأولياء، وحسب أن الأمر بأيديهم، وأن الحياة لا تسير بدونهم؟ وكيف يتبرأ منهم من اتخذهم من دون المؤمنين ظهرياً، واعتقد أن حلفهم لا يزول؟ وكيف يفارقهم ويتباعد عنهم من اتخذهم أولياء نعمته، أو زبانية نقمته، وآمن أن رزقهم مديد وبطشهم شديد؟! وكيف يتحداهم ويؤذنهم بحرب من خشيتهم في قلبه كخشية الله ﷻ، أو أشد خشية؟!

فالذي ينتفع بالحق، من آمن بأن الله ﷻ وليه وناصره ومدبر أمره، كما أنه بارئه ومصوره.

ومن توكل على الله ﷻ حق توكله، وآمن – يقيناً– بأنه لن يصيبه إلا ما كُتب عليه، وأن ما هو فيه، فيه الخير كله، فلم يخشَ إلا خالقه الذي بيده الإيجاد والإحياء والإماتة.

وأيقن بأن الله ﷻ مع عباده الموحدين، وأن الخزي والبوار من نصيب الكافرين، وأن حزب الله – تعالى– هم الغالبون، وأن الطاغوت وجنده حزب مهزوم، وأن الجنة بشرى المؤمنين، كما أن النار مثوى الكافرين والمرتدين والمنافقين.

ولن ينتفع بالحق أحد أربعة:

الأول– الحزبي، وكل منتسب لفرقة من دون جماعة المسلمين، فهؤلاء قد عميت أبصارهم عن اتباع الحق، واتبعوا أهوائهم.

الثاني– المقلد، وكل من ركن لاتباع الآباء والأجداد، وأسلم نفسه للقادة والسادة، فلم يتحرر – بعد– من ربقة العبودية والطاعة العمياء للأصنام والأزلام والأحبار والرهبان.

الثالث– المرتزق، وكل عامل عند الطواغيت، فإنه قد باع دينه بأول درهم استلمه.

الرابع: العقلاني، وكل من سار به الفكر والرأي والنظر شططاً، واتخذه مرجعاً وحكماً.

فإن تحرر الإنسان من عبودية هذه الأصنام – التي نحتوها بأيديهم–، فارِج به – وله– خيراً، وإن حاول التوفيق بين الملة الحنيفية وبين فقه الواقع، وفقه التدرج، وفقه الظروف المناسبة، فامسك بهذا المجرم، سليل الذين قالوا: {إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} [النساء:٦٢]، يوم أرادوا التوفيق بين حكم الله ﷻ وحكم الطاغوت.

أو كالذين يحلفون {إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى} حين {اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}[التوبة:١٠٧].

"المقدمة"

الحمد لله خلقنا مسلمين من غير سؤال، وجعل الملة الإبراهيمية خير مستقر وحال، وقضى للموحد في الآخرة بأحسن مآل، والصلاة والسلام على محمد رسول الله خير الرجال، وأعز من صال في الحق وجال، وعلى الصحب والآل، وعلى كل من اهتدى بهديهم، وقال: {أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[البقرة:١٣١]، أما بعد:

فقد كان من تقدير الله ﷻ، أن زُفت إلينا بشارة رؤية رسول الله ﷺ من رجل ما علمنا عنه إلا خيراً، وقد وصفه بشخصه الذي صُرف عن التمثل به الشيطان، كما ثبت من قوله ﷺ: "مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي"[١].

ولقد حدثنا الناقل برؤى عجباً، لولا أنها تدور في غير فلكنا لألقينا منها ذكراً، منها أمره ﷺ: "بلِّغ ملة إبراهيم"، فوجدت محدثي مجتهداً في تبليغ الأمانة، ومصيباً – إن شاء الله– في طبعها ونشرها، فقلت: أعينك على طبعها، وقد كانت بين يديه مطويات مكتوبة، فقال: (اكتب ولا تطبع)، وأعادها أخرى، فقلت: نصح الحبيب لا يرد، وأمره لا يصد، فسمعاً وطاعة، مع رؤيا تذكر – للاعتضاد والاستئناس– بواجب شرعي هو واجب الوقت وكل وقت، خصوصاً وأنها وافقت رغبة في النفس لولوج الطريق منذ زمن، لولا أن تصاريف القدر نحت بنا لأمور دونها في الأهمية بكثير، ولله ﷻ الأمر من قبل ومن بعد.

فلما حُملنا الأمانة، وهي من الواجبات المتحتمات المعرفة على كل مسلم ومسلمة، فرضاً عينياً لا يسع المؤمن جهله، ولا ينبغي التقصير في حمله، دعتنا الرغبة لهذا البيان مستدلين في كل قولنا بكتاب ربنا ﷻ، وبما ثبت عندنا في شرعنا من هذه الملة الإبراهيمية، وكيف سارت منهجاً متبعاً من لدن إبراهيم عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ.

وستجد – بعون الله ﷻ وتوفيقه– في ثنايا بحثنا هذا ما يعرفك بالملة التي أُمرنا باتباعها، والحنيفية وكيفية اتخاذها منهجاً، بنقل الأكابر الثقات، ممن ارتضينا سيرتهم ومنهجهم، وصح

---

[١] الجامع للبخاري (٣٣/١) برقم (١١٠)، والمسند لمسلم (١٧٧٥/٤) برقم (٢٢٦٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

لنا اتخاذهم حجة عند ربنا ﷻ، فلا عجب حينئذٍ أن تذوب كلماتنا في بحارهم، وتضمحل عباراتنا عند عتباتهم، فوالله ما وجدنا في صدرنا قولاً إلا وسبقونا إليه، فكان قبحاً أن نؤلف قولاً ثم ندعيه فتقاً من عند أنفسنا، أو رتقاً على من سبقنا، أو نقول هو من توارد الخواطر وتلاقي الأفكار، بل لسلفنا الفضل بعد الله ﷻ في كل ما نرغب بإيصاله، لذلك فلا يستكثر القارئ النقل، فكلامهم – علم الله – خير من كلامنا، و(النفس إلى كلام المتقدمين أميل وأشد ركوناً)[1]، كما قال ابن حجر.

وقد عاب (أبو حيان) يوماً على من تلقف الأقوال وصاغها بأسلوبه، موهماً أنه مما جادت به القريحة، أو تفتقت عنه الأفهام، بانياً على أن الأصل نسبة الكلام لقائله، فقال: (وَلَفَّقَ الزَّمَخْشَرِيُّ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ سُؤَالًا وَجَوَابًا عَلَى عَادَتِهِ فِي تَلَفُّقِ كَلَامِهِ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَإِيهَامِهِ أَنَّهَا سُؤَالَاتٌ وَأَجْوِبَةٌ لَهُ)[2].

فكنا بذلك مجتنبين لمسالك وطرق:

الأولى– تفسير الآية بمعنى مقارب لقول أحد أئمة التفسير، أو نجمع بين الأقوال، ثم نقول: انظر تفسير الطبري أو ابن كثير، فهذا يشعر أنهم من وافقنا، وليت شعري كيف طابت نفس من قال: وقد وافقنا على ما نقول البغوي أو القرطبي، أو من قال: وقال بقولنا ابن الجوزي أو ابن العربي، فلست أدري أعظمت نفسه عند نفسه، أم صغرت مقاماتهم في عينه.

الثانية: أن ننصب أنفسنا حكماً على الأئمة بطريقة: من وجهة نظري، وفي تصوري، والرأي الذي أميل إليه، والقول الذي أرجحه، وكأن القائل أتى بما عجز عن الإحاطة به الأوائل.

الثالثة: اختراع معاني أو ابتداع عبارات أو استحداث مصطلحات، إذ الملة مبناها على المسميات والحقائق الشرعية، ومستندها قائم على الفطرة، وقد جاءت في القرآن والسنة وأقوال الأئمة بأوضح الدلالات وأيسر العبارات، ليعلمها العامي كالعالم، والأمي كالمتعلم، فلسنا بحاجة بعد هذا التيسير والتبسيط لمزيد.

---

[1] لسان الميزان لابن حجر (٣/٣١٦).

[2] البحر المحيط لأبي حيان (٩/٤٩٦).

لذلك اختصرنا العبارات بالنقل عن الثقات، فإن وقع في بعضه مكرراً، فإنه لا ينبغي النظر إليه بعين الإنكار، بنص القرآن على دعوة الأنبياء للتوحيد، باللفظ والعبارة الواحدة، وهو المختار تأكيداً لسريان المنهج عند الأئمة، لا أنه قول ارتضيناه فجعلناه مذهباً، أو رأي توهمناه فأردنا حمل النصوص عليه، بل ننقل ما أجمعوا عليه – أو قاربه– إثباتاً للحجة وبياناً للمحجة، وقد كثر نقل بعضهم عن بعض، فجعلنا – في الغالب، وحسب مبلغ علمنا– القول قول الأول – إلا لفائدة–، دون الإشارة لمن جاء بعده، لا متناً ولا حاشية، طلباً للاختصار[١]، ومن أراد الاستزادة فلن يعدم الوصول للأصول، مع تحميل القارئ أمانة النصح والإرشاد، لافتقار العبد لأسباب الصواب الكامل، فيا حبذا نصحاً بسلامة، لا تقريعاً وذماً بملامة، فإن الشهادة على النفس قائمة بأن التوفيق –كل التوفيق– بيد الله ﷻ وحده، وأن التقصير والسهو والنسيان ملازم للعبد – وكلنا ذاك الرجل–، فاحمل هذا على ذاك تستكين النفس، ونزه الله ﷻ ورسوله ﷺ عن نسبة الخطأ إليهما، فحاشا مقام القداسة الربانية والعصمة النبوية أن يخدشهما ما سطرته الأيدي، فكل ذلك من عندي، وأستغفر الله ﷻ عنه، وخير من هذا كله قوله ﷺ: {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}[سبأ:٥٠].

نسأل الله ﷻ أن ييسر الأسباب ويهدينا للصواب في كل باب، إنه خير من سُئل، وأكرم من أجاب.

---

[١] سيجد الناظر بعض النقول عمن ليسوا على منهج أهل السنة والجماعة – عند التصنيف العام– وهذا يُحمل على وجهين:

الأول: أنه من الحق المتفق عليه، ولو وجدنا في كلام من هم على المنهج قولاً بالمعنى المراد إيصاله، لأضربنا صفحاً عن المخالفين.

الثاني: أن كثيراً من المنقول مما نقله أئمة السنة، أو بعضهم، إماً مُقراً، أو على الأقل ساكتاً، وفي بعضه دون إحالة، فعاد الفضل للأول فذُكر، وأُغفل ذكر التالي للشرط المذكور عالياً.

"إقامة الدين بتوحيد رب العالمين"

١- قال الله ﷻ: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[المائدة: ٦٨].

قال الطبري: (قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَيْ: {لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا}، حَتَّى تَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ)[١].

وقال الشوكاني: (قَوْلُهُ: {عَلَى شَيْءٍ} فِيهِ تَحْقِيرٌ وَتَقْلِيلٌ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ، أَيْ: لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ يُعْتَدُّ بِهِ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، أَيْ: تَعْمَلُوا بِمَا فِيهِمَا مِنْ أَوَامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا أَمْرُكُمْ بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَهْيُكُمْ عَنْ مُخَالَفَتِهِ)[٢].

وقال ابن عاشور: (مَعْنَى {لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ} نَفْيُ أَنْ يَكُونُوا مُتَّصِفِينَ بِشَيْءٍ مِنَ التَّدَيُّنِ وَالتَّقْوَى... مَا دَامُوا لَمْ يَبْلُغُوا الْغَايَةَ الَّتِي ذُكِرَتْ، وَهِيَ أَنْ يُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالْقُرْآنَ، وَالْمَقْصُودُ نَفْيُ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ حَظٌّ مُعْتَدٌّ بِهِ عِنْدَ اللَّهِ)[٣].

قلت: ليس بعائب على اليهود والنصارى عدم إقامتهم لكتبهم المنزلة قولاً، إلا من كان مقيماً لما أُنزل إليه، مداوماً عليه، وهو أولى بالنعي إن فرط فيه، بل كيف يحتج على غيره بما هو مخاطب به رأساً؟! إذ ما كان الخطاب بذلك ليأخذه أهل الكتاب من الكتاب المنزل إلينا، وهم ينكرونه أصلاً.

والآية بصراحتها - التي عهدناها في كل الخطاب الرباني- تنعى على اليهود - وقد فُضلوا يوماً على العالمين- أنهم جانبوا الصواب وانحرفوا عن جادة الطريق، إذ عطلوا حكم التوراة والعمل بها، ثم أنكروا الإنجيل وكذَّبوا من جاء به، فكان فيه مزيد عناد وإباء، فلا عجب أن يزدادوا فجوراً مع القرآن، وهو الناسخ لما معهم، ثم هو منزل على نبي من غيرهم،

[١] جامع البيان للطبري (٥٧٣/٨) باختصار.
[٢] فتح القدير للشوكاني (٧١/٢).
[٣] التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦٥/٢، ٢٦٦) باختصار.

ومن هنا جاء الإنكار، تقليلاً لشأنهم – بعد التفضيل– وتحقيراً لفعلهم، إذ ما زالوا يظنون أنهم على سواء السبيل.

وهذا الحال حين الطي والبسط ينطبق بذاته على كل من أوتي الكتاب، فأقام بعضه ظناً منه أنه كله، أو عمل بجزءٍ مستغنياً به عن المجموع، وما الفِرق قديماً وحديثاً إلا ولها نصيب من إقامة بعض الكتاب، فتستمسك بطرفه على أنه بالغ في الأداء منتهاه، فما إيمان اليهود بموسى عليه السلام بنافع لهم حين كفروا بعيسى عليه السلام، وما حب الروافض لعلي رضي الله عنه بشافع لهم في بغضهم لعمر رضي الله عنه، وما قتال اليهود بغافر للمقاوم مقاومته لسيادة الشريعة، وما يغني حفظ نصوص الكتاب أو طبعه عن الحكم به وتحكيمه، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الجامعة للخير كله، ثم الخلفاء والسلف الصالح خير معين على فهم هذا الدين.

والأمر كله بين أمر وخبر، أما الأمر فهو مأخوذ من آيات أخر، لمعشر المسلمين أن يقيموا كتابهم، وهو أمر لا يخالطه تبديل ولا يصرفه تأويل، وأما الخبر فهو محل الذكر، أي: ضُرب لكم في الأمم من قبلكم مثلاً كيف فعل الله عز وجل بهم إذ لم يقيموا كتابهم، وكيف سلطكم عليهم، لمَّا عطلوا العمل بما أنزل إليهم؟

فهل يسلم من جاء بعدهم – بعصمة أو قداسة– أن يُقال فيه ما قيل في الأمم من قبله؟ وهل يأمن من فرض عليهم الجزية والصغار، أن يصيبه الله عز وجل بمثل ما أصابهم؟!

أليس حقاً وصدقاً وعدلاً أن يُقال: وأنتم أيها المسلمون لستم على شيء حتى تقيموا القرآن –كل القرآن–، فإن هذا هو المقصود من البيان، والله جل جلاله أعلم.

٢– وقال الله جل جلاله: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ}[الشورى: ١٣].

قال الطبري: (عَنَى بِقَوْلِهِ: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ} أَنِ اعْمَلُوا بِهِ عَلَى مَا شَرَعَ لَكُمْ وَفَرَضَ)[١].

وقال الماوردي: (فِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: اعْمَلُوا بِهِ، قَالَهُ السُّدِّيُّ.

[١] جامع البيان للطبري (٢٠/ ٤٨١، ٢٨٢) باختصار.

الثَّانِي: ادْعُوا إِلَيْهِ...

وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا ثَالِثًا: جَاهِدُوا عَلَيْهِ مَنْ عَانَدَهُ)[1].

وقال ابن عطية: ("إِقَامَةُ الدِّينِ" هُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ – تَعَالَى– وَرَفَضَ مَا سِوَاهُ)[2].

وقال ابن العربي: (أَيْ: اجْعَلُوهُ قَائِمًا، يُرِيدُ دَائِمًا مُسْتَمِرًّا، مَحْفُوظًا مُسْتَقِرًّا، مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ فِيهِ، وَلَا اضْطِرَابٍ عَلَيْهِ)[3].

قلت: جمع الآية بين إقامة الدين علماً وعملاً، ودعوةً وجهاداً، وبين النهي عن التفرق فيه، لدلالتين:

أولاهما: أن التفرق ما كان – ولا يكون– شرعاً موصى به من عند الله ﷻ، وإنما هو أفكار البشر، ومراد المشركين، إذ كبرت عليهم دعوة التوحيد الخالص، أما ما سواها من آراء وأهواء فهو مرضي عندهم مهما كان منكراً أو شاذاً، انظره في خيارات الحرب كيف يختاروا القتل أو السَّلْم دون السِّلْم؟

والأخرى: أن التفرق لما كان ناقضاً لأصل الاجتماع؛ لأنه وإياه ضدان، كان التفرق والداعي إليه حرباً للتوحيد ولابد، ولا تجد ذهاب الريح إلا باختلاف وتفرق، وهو خير عون للأعداء، بل هو الطليعة دون الغزو، علمه من علمه وجهله من جهله.

٣– وقال الله ﷻ: {وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[يونس: ١٠٥].

قال الطبري: (أَقِمْ نَفْسَكَ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ حَنِيفًا مُسْتَقِيمًا عَلَيْهِ، غَيْرَ مِعْوَجٍ عَنْهُ إِلَى يَهُودِيَّةٍ وَلَا نَصْرَانِيَّةٍ وَلَا عِبَادَةِ وَثَنٍ)[4].

وقال ابن عطية: (الْوَجْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَعْنَى الْمَنْحَى وَالْمَقْصِدِ، أَي: اجْعَلْ طَرِيقَكَ وَاعْتِمَادَكَ لِلدِّينِ وَالشَّرْعِ)[5].

---

[1] النكت والعيون للماوردي (٥/ ١٩٧) باختصار.

[2] المحرر الوجيز لابن عطية (٥/ ٢٩).

[3] أحكام القرآن لابن العربي (٤/٩٠) باختصار.

[4] جامع البيان للطبري (١٢/٣٠٤).

[5] المحرر الوجيز لابن عطية (٣/١٤٦).

وقال ابن كثير: (أَيْ: أَخْلِصِ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ حَنِيفًا، أَيْ: مُنْحَرِفًا عَنِ الشِّرْكِ)[1].

وقال ابن عاشور: (الْمَعْنَى: مَحِّضْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ، لَا تَجْعَلْ لِغَيْرِ الدِّينِ شَرِيكًا فِي تَوَجُّهِكَ)[2].

قلت: جمعت الآية بين الأمر بالشيء والنهي عن ضده، وإن كان أحدهما يكفي للدلالة على الآخر أصولياً، غير أنه من باب البديع، وذلك لبيان عِظَم الشرك، والتحذير منه؛ وليعلم أن التوحيد استقامة الوجه، ويتبعه – لزوماً– استقامة الجسد على الصراط المستقيم، وهو في الوقت ذاته ميل عن الشرك والمشركين، لا الشرك فقط، وذلك باجتناب طريقهم وطريقتهم، وأشخاصهم، وهذه علامة صحة التوحيد، فكم هي الظنون التي عدها أربابها من أبين الحقائق، فعطلوا من أجلها التوحيد، وهم يحسبون أن في إقامة الأركان من صلاة وصيام كفاية، ضالين عن الشق الإيماني الآخر، فلا هم مع الموحدين، ولا هم فارقوا المشركين، فكانوا كجامع الدنانير في جراب مثقوب، وأبلغ منه مثلاً قوله ﷻ: {كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا} [النحل:٩٢].

[1] تفسير القرآن لابن كثير (٤/٣٠٠).

[2] التحرير والتنوير لابن عاشور (١١/٣٠٣).

"من كمال الدين التأسي بإبراهيم ﷺ"

قال الله ﷻ:{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[الممتحنة:٤].

قال الجصاص: (أَمَرَ اللَّهُ النَّاسَ بِالتَّأَسِّي بِهِمْ فِي إظْهَارِ مُعَادَاةِ الْكُفَّارِ، وَقَطْعِ الْمُوَالَاةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ... فَهَذَا حُكْمٌ قَدْ تَعَبَّدَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ)[١].

وقال ابن العربي: (هَذَا نَصٌّ فِي الِاقْتِدَاءِ بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ فِي فِعْلِهِ... يَعْنِي: فِي بَرَاءَتِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَمُبَاعَدَتِهِمْ لَهُمْ، وَمُنَابَذَتِهِمْ عَنْهُمْ، وَأَنْتُمْ بِمُحَمَّدٍ أَحَقُّ بِهَذَا الْفِعْلِ مِنْ قَوْمِ إبْرَاهِيمَ بِإِبْرَاهِيمَ)[٢].

وقال أبو حيان: (التَّأَسِّي بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ هُوَ فِي التَّبَرُّؤِ مِنَ الشِّرْكِ، وَهُوَ فِي كُلِّ مِلَّةٍ، وَبِرَسُولِنَا – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ– عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي الْعَقَائِدِ وَأَحْكَامِ الشَّرْعِ)[٣].

وقال الشنقيطي: (التَّأَسِّي هُنَا فِي ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

أَوَّلًا: التَّبَرُّؤُ مِنْهُمْ، وَمِمَّا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

ثَانِيًا: الْكُفْرُ بِهِمْ.

ثَالِثًا: إِبْدَاءُ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَإِعْلَانُهَا وَإِظْهَارُهَا أَبَدًا)[٤].

قلت: ساقت الآية فصلاً جامعاً في ملة إبراهيم ﷺ ومن معه، كيف هي سيرتهم في التعامل مع قومهم الكافرين، كتطبيق حي وواقعي، وذلك ليتخذه الأتباع منهجاً لسيرهم، وليكون المثال المحتذى والمقام المرتجى، باختيار الله ﷻ لهذه الأسوة، إذ جعله للناس إماماً، فقمنٌ

[١] أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٣٢٦) باختصار.

[٢] أحكام القرآن لابن العربي (٤/٢٢٧) باختصار.

[٣] البحر المحيط لأبي حيان (١٠/١٥٤).

[٤] أضواء البيان للشنقيطي (٨/٨٥).

بالموحد أن يتجرد لله ﷻ باتباع من اصطفاه الله ﷺ واختاره، ولا تخالط نفسه رواسب الجاهلية من التبعية للآباء والأجداد، المكدرة للصفاء، والجالبة للشقاء.

ثم جاءت الآية لتقطع حبائل التعلق بغير من جعله الله ﷻ للناس أسوة، تأكيداً للمقطوع به بشهادة الله ﷻ، وترغيباً بالاجتماع مع المعية الصالحة ممن كانت معه عليه السلام، أو جاءت من بعده، فاتبعت ملته واتخذت طريقه سبيلاً للهداية.

"وصية أبيكم إبراهيم ﷺ"

قال الله ﷻ: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[البقرة: ١٣٢].

قال الطبري: ({فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} أَيْ: فَلَا تُفَارِقُوا هَذَا الدِّينَ – وَهُوَ الْإِسْلَامُ– أَيَّامَ حَيَاتِكُمْ... لِأَنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَتَى تَأْتِيكُمْ مَنَايَاكُمْ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، فَلَا تُفَارِقُوا الْإِسْلَامَ فَتَأْتِيَكُمْ مَنَايَاكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَى غَيْرِ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لَكُمْ رَبُّكُمْ، فَتَمُوتُوا وَرَبُّكُمْ سَاخِطٌ عَلَيْكُمْ، فَتَهْلِكُوا)[١].

وقال البغوي: (مَعْنَاهُ: دَاوِمُوا عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى لَا يُصَادِفَكُمُ الْمَوْتُ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[٢].

وقال الشوكاني: (قَوْلُهُ: {اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ} أَيِ: اخْتَارَهُ لَكُمْ، وَالْمُرَادُ مِلَّتُهُ... وَهِيَ الْمِلَّةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَقَوْلُهُ: {فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} فِيهِ إِيجَازٌ بَلِيغٌ، وَالْمُرَادُ الْزَمُوا الْإِسْلَامَ، وَلَا تُفَارِقُوهُ حَتَّى تَمُوتُوا)[٣].

وقال ابن عاشور: (مَعْنَى {فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}: النَّهْيُ عَنْ مُفَارَقَةِ الْإِسْلَامِ – أَعَنَي مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ– فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِ حَيَاتِهِمْ، وَذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنْ مُلَازَمَتِهِ مُدَّةَ الْحَيَاةِ؛ لِأَنَّ الْحَيَّ لَا يَدْرِي مَتَى يَأْتِيهِ الْمَوْتُ، فَنَهْيُ أَحَدٍ عَنْ أَنْ يَمُوتَ غَيْرَ مُسْلِمٍ أَمْرٌ بِالِاتِّصَافِ بِالْإِسْلَامِ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِ الْحَيَاةِ)[٤].

قلت: هي وصية مريد الخير لذريته وأتباعه موجزة مختصرة، أن أقيموا الدين واثبتوا عليه، حتى يأتيكم الموت وأنتم على ذلك، وحذاري...

---

[١] جامع البيان للطبري (٢/ ٥٨٣، ٥٨٤) باختصار.

[٢] معالم التنزيل للبغوي (١/١٥٤).

[٣] فتح القدير للشوكاني (١/١٦٨) باختصار.

[٤] التحرير والتنوير لابن عاشور (١/٧٢٩) باختصار.

أ- حذاري من التأجيل، بأن تسول لك نفسك أن في العمر بقية، وأن دون الساعة ساعة، فتقول: سأوحد بعد يوم أو يومين، أو عام أو اثنين، أو بعد النصر والتمكين، أو بعد التحرير ورد المعتدين، أو حين (توفر) الظروف المناسبة.

ب- حذاري من التبديل، فإن الله ﷻ ما رضي لنا أن نكون يهوداً أو نصارى، وهم أصحاب كتاب وأتباع رسل، ولا أن نقيم التوراة والإنجيل، وهما من الكتب المنزلة من عنده، فكيف يرضيه عنَّا اتباع ما شرعه البشر من عند أنفسهم، أو ممن نصَّب نفسه أو نصَّبه العوام والطغام مشرعاً من دونه؟! سبحانك ربي هذا بهتان عظيم.

ج- حذاري من التدريج، فليس الدين بالاختيار، ولا يشترى بالتجزئة، ولا يُستهم على أحكامه بالقرعة، فإن الدين قد اكتمل، وما عاد يجري عليه نسخ ولا تخصيص، وليس الناس - اليوم- لا في أول الإسلام، ولا في العهد المكي، وقد أمرنا - مع من قبلنا- بأمر الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة:٢٠٨].

قال الطبري: (يَعْنِي - جَلَّ ثَنَاؤُهُ- بِذَلِكَ: اعْمَلُوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ كُلِّهَا، وَادْخُلُوا فِي التَّصْدِيقِ بِهِ قَوْلًا، وَعَمَلًا، وَدَعُوا طَرَائِقَ الشَّيْطَانِ، وَآثَارَهُ أَنْ تَتَّبِعُوهَا فَإِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، لَكُمْ عَدَاوَتَهُ.

وَطَرِيقُ الشَّيْطَانِ الَّذِي نَهَاهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ هُوَ مَا خَالَفَ حُكْمَ الْإِسْلَامِ، وَشَرَائِعَهُ، وَمِنْهُ تَسْبِيتُ السَّبْتِ، وَسَائِرَ سُنَنِ أَهْلِ الْمِلَلِ الَّتِي تُخَالِفُ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ)[1].

وعقد المقارنة وإنشاء المقابلة بين الإسلام وسبيل الشيطان للدلالة على أنه لا التقاء بينهما، فمن دخل في الإسلام وعمل بجميعه فهو المسلم، ومن جزأه وقمشه وفصله، فهو متبع لخطوات الشيطان، وقد مر معنا قديماً كيف أن التدريج من وسائل الشيطان وخطواته[2].

---

[1] جامع البيان للطبري (٣/٦٠٢) باختصار.

[2] لكاتب السطور - غفر الله له- كتاب بعنوان "إغلاق المدرج على فقيه التدرج"، عالج فيه - بتوسع- قضية التدرج، فكان- بفضل الله - حصناً للموحدين، ونقضاً لشبه المتدرجين.

لذلك – أيها المؤمن– وحد الله ﷻ دفعة واحدة واترك الشرك دفعة واحدة، وقم بدعوة التوحيد، واحرص على الثبات عليها، لتموت – بإذن الله ﷻ– عليها، إذ لا تعلم نفس متى يأتيها أجلها، فما دام الموحد قائماً على التوحيد مدة حياته، فلن يضره في أي ساعة كانت الساعة، وقارن – لتعرف النعمة والفضل– حال الموحد، بحال من خالط المنافقين أو مازج الكافرين أو جامع المشركين، وقال: أتخذهم وسيلة لإقامة الشريعة والتوحيد، ثم هو يموت على ما خالطهم عليه، فهلك وأهلك، إذ ما أقام التوحيد، ولا مات عليه، ولا ترك الناس وشأنهم، ثم يرجو السلامة، هيهات.

أو ذاك الذي اتخذ أعداء الله ﷻ وسيلة للجهاد في سبيل الله ﷻ، كيف والله ﷻ أمره بجهادهم والإغلاظ عليهم؟

ثم تراه يختم على عمله بما كان عامله، فيموت على مرادهم، وفي سبيل مبتغاهم، ومن أجل رضاهم، فهل لهذا من نجاة؟! سل الجمل وسم الخياط.

"الملة"

١– قال الله ﷻ: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}[البقرة: ١٣٠].

قال ابن كثير: (قَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ} أَيْ: عَنْ طَرِيقَتِهِ وَمَنْهَجِهِ، فَيُخَالِفُهَا وَيَرْغَبُ عَنْهَا {إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} أَيْ: ظَلَمَ نَفْسَهُ بِسَفَهِهِ وَسُوءِ تَدْبِيرِهِ بِتَرْكِهِ الْحَقَّ إِلَى الضَّلَالِ، حَيْثُ خَالَفَ طَرِيقَ مَنِ اصْطُفِيَ فِي الدُّنْيَا لِلْهِدَايَةِ وَالرَّشَادِ، مِنْ حَداثة سِنِّهِ إِلَى أَنِ اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصَالِحِينَ السُّعَدَاءِ، فَتَرَكَ طَرِيقَهُ هَذَا وَمَسْلَكَهُ وَمِلَّتَهُ وَاتَّبَعَ طُرُقَ الضَّلَالَةِ وَالْغَيِّ، فَأَيُّ سَفَهٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟ أَمْ أَيُّ ظُلْمٍ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا؟)[1].

قلت: في الآية ثلاث علامات فارقة:

الأولى– في إشارتها إلى سفاهة نفس الراغب عن الملة، دليل قطعي على نفي عذره بأي حجة من جهل أو ضلال أو ظن أو تقليد، إذ هذا اختياره بمحض الإرادة الحرة.

الثانية– فيها دلالة على أن لكل إنسان طائره في عنقه، وأنه على نفسه بصيرة، فليس ينجيه رياسة هو جنديها، ولا تبعية هو ذيلها، ولن ينفعه تقليد الآباء، ولا طاعة الأمراء.

الثالثة– هي دليل على اختيار المرء بين رغبة بالملة أو رغبة عنها، الأول مستقيم، والآخر ضال سفيه، وأي سفاهة أعظم من اتباع المحدث دون القديم، كاليهودية والنصرانية دون ملة إبراهيم ؏، أو الدخيل كالفرق المبتدعة والمذاهب المخترعة دون الأصيل؟!

وهذا كله في رغبة هي دون الإرادة والعزم والعمل، فكيف بمحاربٍ لها ولأتباعها، يدعو لضدها، ويعمل على وأدها، ويُخلي الأرض من المؤمنين بها والدعاة لها، مكراً وتثبيتاً، أو قتلاً وتشريداً، أليس هذا من الكفر البواح، وإعلان الحرب الصراح على الله ﷻ ورسوله ﷺ.

٢– وقال الله ﷻ: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[البقرة: ١٣٥].

[1] تفسير القرآن لابن كثير (١/٤٤٥) باختصار.

قلت: يكون التخيير والاختيار بين ما استوت فيه الأطراف وجوداً وجدوى، فأما إذا كان طرف حقاً، والآخر باطلاً، فكيف يصح حينئذٍ عند عاقل الاختيار؟!

لذلك جاءت الآية مصححة لمسار التخيير، وأن الأمر واحد لا غير، وهو ما كان قبل الفُرقة، ولئلا يستشكل الباحث، أو يضطرب الطالب، فقد سُميت لنا باسمها، فهي ملة إبراهيم عليه السلام، والتي تسامت بميزتين:

الأولى- أنها سابقة لكل الدعوات المحدثة، وغيرها مباين لها أو مولد منها أصابه التشوه؛ ولأنه لا يشترط القِدم في الصحة، كان التقييد بالتولد مهماً للتقريع والتوبيخ، باعتبار إقرار الطوائف جميعاً بأنها الملة الحق، وأنهم أولى الناس بها.

الثانية- أنها مائلة عن كل شرك ومشركين، وكأن الآية تحكم – بل هي تحكم – على أولئك اليهود والنصارى بأنهم مشركون، وإذا كان هذا في يهودية أو نصرانية، منزلة من عند الله عز وجل، ومرضية في زمانها، وكافر من لم يؤمن بها، فكيف بمذهب مخترع من صنع البشر، كالديمقراطية أو الاشتراكية، ثم تجد داعيه يدعوك إلى الهداية به، وأنه خير نتاج لخير لقاح؟! أم كيف بمنهج مبتدع، من رجل مبتدع، انتزع فصلاً من الدين ومطه ليناسب وجهه، وهوى حزبه، ثم قال: أنا على خير البرية ديناً؟!

٣- وقال الله تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[آل عمران: ٩٥].

٤- وقال الله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}[النساء: ١٢٥].

٥- وقال الله تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[الأنعام: ١٦١].

٦- وقال الله تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[النحل: ١٢٣].

قلت: هي أربع آيات حامت حول الملة الحنيفية، لتصنع منها درة التاج، جاءت أولها لتأمر الناس جميعاً – وأمة القرآن تحديداً- باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، اشتركت معها الرابعة في نفس

الأمر مع تنوع في الأسلوب، فكان أمراً مباشراً لرسول الله ﷺ أن يتبع الملة الإبراهيمية، وأمته في هذا –كما هي في كل سنته– تبع له أبداً.

أما الثانية، فقد جاءت لتزكية المنهج المرضي عند الله ﷻ، ومتعجبة – باستنكار– أن يوجد غيرها مساوياً لها أو متفاضلاً عنها في الحسن، وختمت الثالثة العقد من باب التحديث بنعمة الله ﷻ إذ اصطفى لنا الصراط المستقيم وهدانا إليه.

٧- وقال الله ﷻ: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}[الحج: ٧٨].

قلت: إن حملت المجاهدة على المعنى العام، فهي مجاهدة النفس بالصبر على التوحيد والاستقامة عليه والدعوة إليه، وتحمل الأذى في سبيل ذلك، وإن خصصت بالقتال، فلا جهاد إلا بالتوحيد الخالص، ولا جهاد إلا من أجل التوحيد الخالص؛ لأنه سبيل وغاية.

وأما الاجتباء فليس هو لاستحقاق ذاتي في أمة دون أمة، بل هو فضل لله ﷻ خالصاً، وتكليف للأمة القائمة به والمأمورة بأدائه، فإذا هي قامت وأقامت واستقامت كانت الأمة المجتباة، وإن ضيعت {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[المائدة: ٥٤].

ثم إن الآية تؤكد على أن توحيدنا هو ملة إبراهيم ﵇ بالتمام والكمال، وليس هذا غريباً، إذ رسولنا الكريم ﷺ ليس إلا لبنة في بناء التوحيد كما وصف بذلك نفسه الشريفة[١]، وما كان يوماً خارجاً عن هذا الصرح العظيم، لذلك أمر أن يقول، كما...

---

[١] قال رسول الله ﷺ:"إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ"[الجامع للبخاري (٤/١٨٦) برقم (٣٥٣٥)، والمسند لمسلم (٤/١٧٩١) برقم (٢٢٨٦) عن أبي هريرة ﵁].

أ- قال الله ﷻ: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ}[الأحقاف: ٩].

ب- وقال ﷺ: "الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ"[١].

وهذا الدين الواحد هو التوحيد[٢] بلا خلاف، وأما الشرائع فقد اختلفت على ما جاءت به الرسل، مثلها مثل النبع يفيض ماءً ثم يسير في الأرض أوديةً وأنهاراً، فيسقي كل أمة بقدرٍ، والله عليم حكيم.

٨- وقال رسول الله ﷺ : "أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ")[٣].

ورسول الله ﷺ يفرق في قوله هذا بين دينه وملة إبراهيم ﷺ، وهذا باعتبار ثبوت اللفظ، لا أنه رواية بالمعنى، والقرآن جمع بينهما، كما في قول الله ﷻ: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[الأنعام: ١٦١][٤]، ولولا اجتماعهما في موضع واحد، لقلنا باستواء المعاني أو تقاربها إلى حد بعيد، فلما فارق بين الدين والملة، تنوعت عبارات المفسرين بين جمع وتفريق، نختار منها ما له تعلق ببحثنا، وهو أن: (الْمِلَّةُ عِبَارَةٌ عَنْ أَصْلِ الدِّينِ وَالتَّوْحِيدِ وَالتَّقْدِيسِ الَّذِي تَتَّفِقُ فِيهِ جَمِيعُ الشَّرَائِعِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ}[البقرة: ١٣٠]، وَلَا يَجُوزُ تَسْفِيهُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُخَالِفِينَ لَهُ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَمْ يَبْحَثْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَكَيْفَ كَانَ يَبْحَثُ مَعَ انْدِرَاسِ كِتَابِهِ وَإِسْنَادِ أَخْبَارِهِ؟)[٥]، كما قال الغزالي.

---

[١] الجامع للبخاري (١٦٧/٤) برقم (٣٤٤٣)، والمسند لمسلم (١٨٣٧/٤) برقم (٢٣٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٢] قال ابن حجر في الفتح (٤٨٩/٦): (مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ أَصْلَ دِينِهِمْ وَاحِدٌ وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ فُرُوعُ الشَّرَائِعِ).

[٣] إسناده صحيح: المسند لأحمد (٧٧/٢٤) برقم (١٥٣٦٠) عن عبد الرحمن بن أبزى رضي الله عنه.

[٤] قال الشنقيطي في أضواء البيان (٤٤/١): (صَرَّحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّهَا – أي: الملة– دِينُ الْإِسْلَامِ، الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ).

[٥] المستصفى للغزالي (١٦٧/١).

ويقصد بهذا أن الديانات من بعد إبراهيم عليه السلام مخالفة قطعاً لدين إبراهيم عليه السلام لطروء النسخ والتبديل، فكيف يصح إيمان الرسل وأتباعهم، وهم متبعون لنبيهم المرسل إليهم والكتاب المنزل عليهم؟ ثم كيف لم نجد بحثاً من الرسل، ولا تتبعاً لدين إبراهيم عليه السلام؟

فهذا مما يؤكد أنهم جميعاً لم يرغبوا عن ملة إبراهيم عليه السلام، بل اتبعوه فيها، وإلا كانوا سفهاء – حاشاهم–، فلما كان ذلك كذلك كان عملهم بالكتاب المنزل عليهم، لابد وأن لا يُعارض ملة إبراهيم عليه السلام، ويُحمل هذا على وجهين:

الأول: أن يقع التداخل، بحيث يشمل اللاحق السابق ويزيد عليه،كما في نبوات بني إسرائيل، كقول عيسى عليه السلام كما قاله ﷻ:{وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}[آل عمران: ٥٠].

قال الجصاص: (إنَّ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ دَاخِلَةٌ فِي مِلَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَفِي مِلَّةِ نَبِيِّنَا ﷺ زِيَادَةٌ عَلَى مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ، فَوَجَبَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ اتِّبَاعُ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ إذْ كَانَتْ دَاخِلَةً فِي مِلَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَانَ مُتَّبِعُ مِلَّةِ النَّبِيِّ ﷺ مُتَّبِعًا لِمِلَّةِ إبْرَاهِيمَ)[1].

والثاني: أن يتفق في الأصل ويختلف في الفرع، فيُعمل بالأصل اتباعاً للنبيين، ويُتبع النبي المرسل للأمة – خصوصاً– بالفرع، والشيء المتفق عليه لابد وأن يكون هو التوحيد الخالص، وقد...

١٠– ثبت عن (ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أُدْخِلَ المَيِّتُ القَبْرَ، – وَقَالَ أَبُو خَالِدٍ مَرَّةً: إِذَا وُضِعَ المَيِّتُ فِي لَحْدِهِ–، قَالَ مَرَّةً: "بِسْمِ اللَّهِ، وَبِاللَّهِ، وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ"، وَقَالَ مَرَّةً: "بِسْمِ اللَّهِ، وَبِاللَّهِ، وَعَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ")[2].

فإذا ثبت اللفظ كانت الملة والسنة مما تحل إحداهما مكان الأخرى عند الإطلاق، ويراد من كل واحدة منهما ما لا يراد من الأخرى عند التقييد، مع أن السنة هي الطريقة عند التفصيل، وكذلك تثبت نسبة الملة لرسول الله ﷺ، وما هي إلا ملة إبراهيم عليه السلام.

فإن قيل: صف لنا الملة بوصف جامع.

[1] أحكام القرآن للجصاص (٣/٢٦٩).

[2] إسناده صحيح: اللفظ في الجامع للترمذي (٣/٣٥٥) برقم (١٠٤٦).

قلت: قال أبو المظفر: (اعلموا أسعدكم الله، أن الله – تبارك وتعالى– أمر عبده بمعرفته في ذاته وصفاته، وعدله وحكمته، وكماله في صفته، ونفوذ مشيئته، وكمال مملكته، وعموم قدرته، ولا تتكامل المعرفة بذلك كله إلا بنفي النقائص عنه، وبإثبات أوصاف الكمال له من غير أن يشوبه شيء من بدع المبتدعين وإلحاد الملحدين، وكان أمره – تعالى– متضمناً لأمرين: المعرفة بما أوجب معرفته، والإحاطة بما أوجب عليه مجانبته.

حتى إذا اجتمع له الوصفان تحقق له وصف الإيمان على سبيل الإتقان والإيقان، والمفارقة لما يوسوس لكثير منهم من الشبه وحبائل الشيطان، فيكون إيمانه كما أخبر الله – تعالى– به عن إيمان خليل الرحمن، حين قال: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[الأنعام: ٧٩].

أثنى عليه لهذه المعرفة؛ لجمعه بين المعرفة بكمال أوصافه، وميله عن كل معبود يخالفه في وصفه، فوصفه – أي الله تعالى– الخليل بكونه حنيفاً، أي: مائلاً عن عبادة الأوثان وحبائل الشيطان، وما يخالفه من الطرق والأديان، وبمثله أقر رسوله المصطفى ﷺ حين قال: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}[الأنعام: ١٥٩]، وقال: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}[محمد: ١٩]، فأمره بالمعرفة ومغادرة كل دين يخالفه في حقيقته.

وأمره أن يخبر عن نفسه بصفة معرفته الجامعة لوصفي النفي والإثبات، ومعرفة ما يجب معرفته ومجانبة ما تجب مجانبته، فقال: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[الأنعام: ١٦١].

وأمر – سبحانه– الكافة بكلمة الإيمان "لا إله إلا الله" جمع فيها بين النفي والإثبات، وقدم النفي على الإثبات؛ ليعلم أن الإثبات لا يحصل إلا بصيانته عن كل ما يتضمن مخالفته، وهكذا جمع في سورة الإخلاص بين النفي والإثبات، فوصف نفسه بأوصاف الكمال في

قوله: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ}[الإخلاص: ١، ٢]، ونفى عن نفسه النقصان بقوله: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[الإخلاص: ٣، ٤])[١].

فهذه هي الملة، وهي المتضمنة لما أثبته الله ﷻ لنفسه، أو أثبته له رسله – عليهم الصلاة والسلام–، ونفي ما نفاه الله ﷻ عن نفسه، أو نفاه عنه رسله – عليهم الصلاة والسلام–، ولها في جميع أنواع التوحيد متعلق، فإذا أثبتنا الوحدانية لله ﷻ، فلابد وأن نبطل ندية غيره، وإذا قررنا حاكمية الله ﷻ، فلابد وأن يُكفر بكل طاغوت، حاكم أو مُحكَّم، ومن لم يحقق هذا النفي فما أتى بجانب الإثبات، لا كمالاً ولا صحةً، ولذلك كانت ملة إبراهيم ﷺ، هي ملة جميع الأنبياء والمرسلين، وهي الملة المرضية، وعليها وبها قامت الشرعية الإسلامية، وهي التي من أجلها خلق الله ﷻ العباد، وجعل سبيلها سبيل الرشاد، وقسم الناس بها إلى مؤمن وكافر، وتقي وفاجر، فقوتل بمن تحتها من امتنع عنها، وأمر من آمن بها بفرض الجزية والصغار على من هو خارج عنها، ممن ظن أنه على هدى، أو حسب أنه متبع لها، فما نفعهم إيمانهم ولا ما كانوا يظنون.

[١] التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين لأبي المظفر الإسفراييني (١٣، ١٤).

"الحنيفية"

١- قال الله ﷻ: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[البقرة: ١٣٥].

قال ابن عباس – رضي الله عنهما-: (الْحَنِيفُ الْمَائِلُ عَنِ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ)[1].

وقال الطبري: (الْحَنِيفُ عِنْدِي: هُوَ الِاسْتِقَامَةُ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ، وَاتِّبَاعُهُ عَلَى مِلَّتِهِ، وَالِائْتِمَام بِهِ فِيهَا.

فَسُمِّيَ الْحَنِيفُ مِنَ النَّاسِ حَنِيفًا بِاتِّبَاعِهِ مِلَّتَهُ وَاسْتِقَامَتِهِ عَلَى هَدْيِهِ وَمِنْهَاجِهِ، وَسُمِّيَ الضَّالُّ عَنْ مِلَّتِهِ بِسَائِرِ أَسْمَاءِ الْمِلَلِ، فَقِيلَ: يَهُودِيٌّ وَنَصْرَانِيٌّ وَمَجُوسِيٌّ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ صُنُوفِ الْمِلَلِ)[2].

وقال الرازي: (أَيْ: مُخَالِفًا لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، مُنْحَرِفًا عَنْهُمَا)[3].

قلت: من كمال الدين أن جاءت القسمة الثنائية للأشياء، وذلك لئلا يضل الناس الطريق، فإله حق وما دونه من آلهة باطلة، ودين حق وما سواه من أديان زائفة، وهكذا في السبيل والمآل والناس والدور، ومن هذا ما هاهنا، والتي قسمت فيه المعتقد إلى حق وضلال، بلا تثليث، فالحق هو الملة الحنيفية، والباطل في الجهة المقابلة مع تنوع أسماءه وتباين صوره، فمرة ينسب لرسالات سابقة كاليهودية أو النصرانية، ومرة يتبع لمذاهب مبتدعة كالمرجئة والخوارج، ومرة يُلحق بنظريات محدثة كالديمقراطية والاشتراكية، والحنيف ضد كل هذا، فكان في بعده مستقيماً على الحق، مائلاً عن كل باطل، إذ من علامات أهل السنة (أَنَّهُمْ لَا يَنْتَسِبُونَ إِلَى مَقَالَةٍ مُعَيَّنَةٍ وَلَا إِلَى شَخْصٍ مُعَيَّنٍ غَيْرِ الرَّسُولِ، فَلَيْسَ لَهُمْ لَقَبٌ يُعْرَفُونَ بِهِ وَلَا

---

[1] معالم التنزيل للبغوي (١/١٥٥).

[2] جامع البيان للطبري (٢/٥٩٤، ٥٩٥) باختصار.

[3] التفسير الكبير للرازي (٤/٧١) باختصار.

نِسْبَةٌ يَنْتَسِبُونَ إِلَيْهَا، إِذَا انْتَسَبَ سِوَاهُمْ إِلَى الْمَقَالَاتِ الْمُحْدَثَةِ وَأَرْبَابِهَا، كَمَا قَالَ بَعْضُ أَئِمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَقَدْ سُئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ: "السُّنَّةُ مَا لَا اسْمَ لَهُ سِوَى السُّنَّةِ".

وَأَهْلُ الْبِدَعِ يَنْتَسِبُونَ إِلَى الْمَقَالَةِ تَارَةً كَالْقَدَرِيَّةِ وَالْمُرْجِئَةِ، وَإِلَى الْقَائِلِ تَارَةً كَالْهَاشِمِيَّةِ وَالنَّجَّارِيَّةِ وَالضَّرَاوِيَّةِ، وَإِلَى الْفِعْلِ تَارَةً كَالْخَوَارِجِ وَالرَّوَافِضِ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ بَرِيئُونَ مِنْ هَذِهِ النِّسَبِ كُلِّهَا، وَإِنَّمَا نِسْبَتُهُمْ إِلَى الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ)[1]، كما قال ابن القيم.

وفي الآية يخبر الله ﷻ عن قيل الكافرين، أنهم على هدى، بدلالة الدعوة لما هم عليه، وهو ظن مكتسب بفضل المداومة والملازمة للإلف المصاحب للممارسة، حيث لا يُتصور خلافه، أو يقتصر التصويب على المعهود، فكان أن تغاضى الذكر الحكيم عن إبطال دعواهم، ووجه الحديث نحو إثبات سلامة الخليل من الميل لأي ملة غير الإسلام، وزاد فبرأه من مخالطة المشركين، فإذا كنتم أيها المؤمنون بإبراهيم عليه السلام متبعون له، فإنه ما كان يهودياً ولا نصرانياً، وختْم الآية بقوله: {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} كأنه تعريض بهم أنهم كذلك؛ لذلك كان إبراهيم عليه السلام مائلاً عنهم برغم أنه قبلهم زماناً، وذلك لميله عن الشرك، والموحد ما دام موحداً فإنه لا محالة يميل عن كل شرك واقع أو قادم.

فإن قيل: وما الشرك الذي وقع فيه اليهود والنصارى، وهم لم يعبدوا الأصنام، كقوم إبراهيم عليه السلام؟

قلت: قول الله ﷻ يبين ذلك، ويغنينا عن التخرص والظنون، قال الله ﷻ: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[آل عمران:٦٤].

ومنه تعلم أن ليس شرطاً في هذه الأمة أن تعبد الأصنام ليقع في الشرك أفرادها، فجعل بعض الناس أئمتهم وقادتهم وسادتهم، في مقام الخطاب والتكليف، والتشريع والتحليل والتحريم والحظر والإباحة، والإجازة والمنع، هو عين اتخاذهم أرباباً، قال الله ﷻ: {اتَّخَذُوا

---

[1] مختصر الصواعق لابن الموصلي (٦٠٣).

أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[التوبة: ٣١].

٢- وقال الله ﷻ: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[آل عمران: ٦٧].

قال الطبري: (يَعْنِي: مُتَّبِعًا أَمْرَ اللَّهِ وَطَاعَتَهُ، مُسْتَقِيمًا عَلَى مَحَجَّةِ الْهُدَى الَّتِي أُمِرَ بِلُزُومِهَا)[1].

وقال ابن عاشور: (قَوْلُهُ: {وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} أَفَادَ الِاسْتِدْرَاكَ بَعْدَ نَفْيِ الضِّدِّ حَصْرًا لِحَالِ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا يُوَافِقُ أُصُولَ الْإِسْلَامِ؛ وَلِذَلِكَ بَيَّنَ {حَنِيفًا} بِقَوْلِهِ: {مُسْلِماً}؛ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ مَعْنَى الْحَنِيفِيَّةِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالْإِسْلَامِ، فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الْحَنِيفِيَّةُ، وَقَالَ: {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} فَنَفَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ مُوَافَقَةَ الْيَهُودِيَّةِ، وَمُوَافَقَةَ النَّصْرَانِيَّةِ، وَمُوَافَقَةَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنَّهُ كَانَ مُسْلِمًا، فَثَبَتَتْ مُوَافَقَتُهُ الْإِسْلَامَ... وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُبْقِي شَكًّا فِي أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ إِسْلَامُ إِبْرَاهِيمَ)[2].

٣- وقال الله ﷻ: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[آل عمران: ٩٥].

قال الطبري: (الْحَنِيفِيَّةُ يَعْنِي: الِاسْتِقَامَةَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ دُونَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمُشْرِكَةِ)[3].

وقال البغوي: (إِنَّمَا دَعَاهُمْ إِلَى اتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ؛ لِأَنَّ فِي اتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ اتِّبَاعُهُ ﷺ)[4].

وقال الرازي: (أَيِ: اتَّبِعُوا مَا يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ- مِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ. ثُمَّ قَالَ: {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} أَيْ لَمْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَلَا عَبَدَ سِوَاهُ، كَمَا فَعَلَهُ بَعْضُهُمْ... وَالْغَرَضُ مِنْهُ بَيَانُ أَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ- عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام... لَا

---

[1] جامع البيان للطبري (٥/٤٨٥).

[2] التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/٢٧٥) باختصار.

[3] جامع البيان للطبري (٥/٥٨٨).

[4] معالم التنزيل للبغوي (٢/٦٩).

يَدْعُو إِلَّا إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالْبَرَاءَةِ عَنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى، وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ –صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ– إِلَّا عَلَى هَذَا الدِّينِ)[١].

وقال أبو حيان: (أَمَرَهُمْ بِاتِّبَاعِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ... وَهِيَ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ الَّتِي عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ، فَيَخْلُصُونَ مِنْ مِلَّةِ الْيَهُودِيَّةِ)[٢].

٤– وقال الله ﷻ: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}[النساء: ١٢٥].

قال الجصاص: (هَذَا يُوجِبُ أَنَّ كُلَّ مَا ثَبَتَ مِنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَعَلَيْنَا اتِّبَاعُهُ)[٣].

وقال الرازي: (الْحَنِيفُ: الْمَائِلُ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ مَائِلٌ عَنِ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا، لِأَنَّ مَا سِوَاهُ بَاطِلٌ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ مَائِلٌ عَنْ كُلِّ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ، وَتَحْقِيقُ الْكَلَامِ فِيهِ أَنَّ الْبَاطِلَ وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا مِنَ الْبَاطِلِ الَّذِي يُضَادُّهُ فَقَدْ يَكُونُ قَرِيبًا مِنَ الْبَاطِلِ الَّذِي يُجَانِسُهُ، وَأَمَّا الْحَقُّ فَإِنَّهُ وَاحِدٌ، فَيَكُونُ مَائِلًا عَنْ كُلِّ مَا عَدَاهُ، كَالْمَرْكَزِ الَّذِي يَكُونُ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ عَنْ جَمِيعِ أَجْزَاءِ الدَّائِرَةِ)[٤].

٥– وقال الله ﷻ: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[الأنعام: ٧٩].

قال القرطبي: (أَيْ: قَصَدْتُ بِعِبَادَتِي وَتَوْحِيدِي اللَّهَ ﷻ وَحْدَهُ.

وَذَكَرَ الْوَجْهَ؛ لِأَنَّهُ أَظْهَرُ مَا يَعْرِفُ بِهِ الْإِنْسَانُ صَاحِبَهُ، {حَنِيفاً} مَائِلًا إِلَى الْحَقِّ)[٥].

وقال أبو حيان: ({حَنِيفاً} مَائِلًا عَنْ كُلِّ دِينٍ إِلَى دِينِ الْحَقِّ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى مُسْلِمًا أَيْ: مُنْقَادًا إِلَيْهِ مُسْتَسْلِمًا لَهُ)[٦].

---

[١] التفسير الكبير للرازي (٨/٢٩٤).
[٢] البحر المحيط لأبي حيان (٣/٢٦٦) باختصار.
[٣] أحكام القرآن للجصاص (٣/٢٦٩).
[٤] التفسير الكبير للرازي (١١/٢٨٨، ٢٨٩) باختصار.
[٥] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/٢٨).
[٦] البحر المحيط لأبي حيان (٤/٥٦٨).

٦- وقال رسول الله ﷺ: "أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا... وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا")[1].

٧- و(عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: "وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ")[2].

قال ابن القيم: (الحنيفية والتوحيد: هي دين جميع الأنبياء الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، وهو الفطرة التي فطر عليها عباده، فمن كان عليها فهو المهتدي، لا من كان يهودياً أو نصرانياً، فإن الحنيفية تتضمن الإقبال على الله بالعبادة والإجلال والتعظيم والمحبة والذل.

والتوحيد يتضمن إفراده بهذا الإقبال دون غيره، فيعبد وحده، ويحب وحده، ويطاع وحده، ولا يجعل معه إلهاً آخر)[3].

[1] المسند لمسلم (٤/٢١٩٨) برقم (٢٨٦٥) عن عياض المجاشعي رضي الله عنه.

[2] المسند لمسلم (١/٥٣٤) برقم (٧٧١) عن علي رضي الله عنه.

[3] بدائع الفوائد لابن القيم (٤/ ١٥٦).

"معاملة الله ﷻ للكافرين، كيف تكون؟"

وهذا يُساق ليعلم الموحد أنه إن أقام ملة إبراهيم عليه السلام، فذلك يعني أنه على منهج ربه سائر، وأنه قد وفى بما أُمر به، وأنه متبع لأمر ربه ﷻ في معاملة الكافرين والمنافقين، حنيفاً مستقيماً بلا ميل أو حيدة، فإن تبرأ من الكافرين، فقد تبرأ الله ﷻ منهم من قبل، وإن أبغضهم، فالله ﷻ يبغضهم، وإن عاداهم فإنه يعادي من عاداه الله ﷻ، وهكذا في كل فعل وأمر، إنما هو فعل واستجابة لما يحبه الله ﷻ ويرضاه، ومن ذلك:

1- البراءة:

أ- قال الله ﷻ: {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[التوبة: ١].

قال الجصاص: (الْبَرَاءَةُ هِيَ قَطْعُ الْمُوَالَاةِ وَارْتِفَاعُ الْعِصْمَةِ وَزَوَالُ الْأَمَانِ)[1].

وقال الرازي: (مَعْنَى الْبَرَاءَةِ انْقِطَاعُ الْعِصْمَةِ، يُقَالُ: بَرِئْتُ مِنْ فُلَانٍ... أَيْ: انْقَطَعَتْ بَيْنَنَا الْعِصْمَةُ، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَنَا عُلْقَةٌ)[2].

ب- وقال الله ﷻ: {وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}[التوبة: ٣].

قال الرازي: (بَيَّنَ أَنَّهُ - تَعَالَى- كَمَا يَتَوَلَّى الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ يَتَبَرَّأُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَيَذُمُّهُمْ وَيَلْعَنُهُمْ، وَكَذَلِكَ الرَّسُولُ؛ وَلِذَلِكَ أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ التَّوْبَةِ الْمُزِيلَةِ لِلْبَرَاءَةِ)[3].

---

[1] أحكام القرآن للجصاص (٤/٢٦٤).

[2] التفسير الكبير للرازي (١٥/ ٥٢٢).

[3] المصدر السابق (١٥/ ٥٢٦).

ج- وقال الله ﷻ: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}[آل عمران: ٢٨].

قال الطبري: ({فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ} يَعْنِي بِذَلِكَ: فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ، وَبَرِئَ اللَّهُ مِنْهُ بِارْتِدَادِهِ عَنْ دِينِهِ، وَدُخُولِهِ فِي الْكُفْرِ)[1].

وقال ابن القيم: (تبرَّأَ – سُبْحَانَهُ– مِمَّنِ اتَّخَذَ الْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَحَذَّرَهُ نَفْسَهُ أَشَدَّ التَّحْذِيرِ فَقَالَ...)[2]. وذكر الآية.

2- التكفير:

أ- قال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}[الصف: ١٤].

ب- وقال الله ﷻ: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ}[المائدة: ٧٢/١٧].

ج- وقال الله ﷻ: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ}[المائدة: ٧٣].

د- وقال الله ﷻ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[البقرة: ٢٥٨].

هـ- وقال الله ﷻ: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا}[مريم: ٧٧].

و- وقال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}[النساء: ١٥٠، ١٥١].

---

[1] جامع البيان للطبري (٥/ ٣١٥).

[2] أحكام أهل الذمة لابن القيم (١/٤٨٨، ٤٨٩).

ز- وقال الله ﷻ: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}[المائدة: ٤٤].

ح- وقال الله ﷻ: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}[المؤمنون: ١١٧].

ط- وقال الله ﷻ: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}[الزمر: ٨].

ي- وقال الله ﷻ: {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ}[الكافرون: ١].

3- المعاداة:

أ- قال الله ﷻ: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}[البقرة: ٩٨].

قال القرطبي: (عَدَاوَةَ اللَّهِ لِلْعَبْدِ تَعْذِيبُهُ، وَإِظْهَارُ أَثَرِ الْعَدَاوَةِ عَلَيْهِ)[١].

ب- وقال الله ﷻ: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}[التوبة: ١١٤].

ج- وقال الله ﷻ: {إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ}[طه: ٣٨، ٣٩].

د- وقال الحق ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ}[الممتحنة: ١].

* ومنه أيضاً:

4- الإبعاد:

أ- قال الله ﷻ: {وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[هود: ٤٤].

---

[١] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/٣٦).

قال ابن كثير: (أَيْ: هَلَاكًا وَخَسَارًا لَهُمْ، وَبُعْدًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)[1].

ب- وقال الله ﷻ: {أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ}[هود: ٦٠].

ج- وقال الله ﷻ: {أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ}[هود: ٦٨].

د- وقال الله ﷻ: {أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ}[هود: ٩٥].

5- الإحباط:

أ- قال الله ﷻ في المنافقين: {فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ}[الأحزاب: ١٩].

قال الطبري: (أَذْهَبَ اللَّهُ أُجُورَ أَعْمَالِهِمْ وَأَبْطَلَهَا)[2].

وقال الرازي: (الْإِحْبَاطَ: إِعْدَامٌ وَإِهْدَارٌ)[3].

ب- وقال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ}[محمد: ٣٢].

6- الإخساء:

قال الله ﷻ: {قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}[المؤمنون: ١٠٨].

قال النسفي: (اسْكُتُوا سُكُوتَ ذِلَّةٍ وَهَوَانٍ)[4].

7- التثبيط:

قال الله ﷻ في المنافقين: {فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ}[التوبة: ٤٦].

قال البغوي: (مَنَعَهُمْ وَحَبَسَهُمْ عَنِ الْخُرُوجِ)[5].

---

[1] تفسير القرآن لابن كثير (٤/ ٣٢٥).
[2] جامع البيان للطبري (١٩/٥٥).
[3] التفسير الكبير للرازي (٢٥/١٦٣).
[4] المصدر السابق (٢/٤٨٣).
[5] معالم التنزيل للبغوي (٤/٥٥).

وقال الرازي: (أَيْ: فَكَسَّلَهُمْ وَضَعَّفَ رَغْبَتَهُمْ فِي الِانْبِعَاثِ)[1].

وقال القرطبي: (أَيْ: حَبَسَهُمْ عَنْكَ وَخَذَلَهُمْ)[2].

8- التعذيب: وله أوصاف، منها:

أ- عذاب أليم:

قال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[البقرة:١٠٤].

ب- عذاب الحريق:

قال الله ﷻ: { وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ }[الأنفال:٥٠].

ج- عذاب شديد:

قال ﷻ: {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ}[الشورى: ٢٦].

د- عذاب عظيم:

قال الله ﷻ: {وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[آل عمران:١٧٦].

هـ- عذاب مقيم:

قال الله ﷻ: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ}[التوبة: ٦٨].

و- عذاب مهين:

---

[1] التفسير الكبير للرازي (٦٢/١٦).

[2] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥٦/٨).

قال ﷻ: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}[آل عمران:١٨٧].

قلت: التعذيب يكون في الدنيا وفي الآخرة، أما الذي في الآخرة فمحل اتفاق، وكل الآيات المذكورة سلفاً ظاهرة الدلالة عليه، وأما التي في القبر، فمحمل للمرة الثانية في قوله ﷻ: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ}[التوبة:١٠١].

على أن في الآية وجوهاً أخرى ذكرها أئمة التفسير، قال الطبري: (الْعَذَابُ فِي الْمَرَّتَيْنِ كِلْتَيْهِمَا قَبْلَ دُخُولِهِمُ النَّارَ، وَالْأَغْلَبُ مِنْ إِحْدَى الْمَرَّتَيْنِ أَنَّهَا فِي الْقَبْرِ)[١].

وتبقى المرة الأولى وقد وقع فيها الاحتمال في التفسير، والإجمال فيها أجمع للقول، قال الرازي: (قَوْلُهُ: {سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ} الْمُرَادُ مِنْهُ عَذَابُ الدُّنْيَا بِجَمِيعِ أَقْسَامِهِ)[٢].

وقال ابن عاشور: (الْمَعْنَى: سَنُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا مُتَكَرِّرًا مُضَاعَفًا... وَهَذَا التَّكَرُّرُ تَخْتَلِفُ أَعْدَادُهُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ وَاخْتِلَافِ أَزْمَانِ عَذَابِهِمْ)[٣].

ولا شك أن الواقع من عباد الله – جل في علاه– على الكافرين هو من عذاب الله ﷻ قطعاً، كما قال الله ﷻ: {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ}[التوبة:٥٢].

والمفسرون كلهم قالوا: هو القتل[٤]، ومنهم من زاد السبي[٥]، ومنهم من زاد الأسر والنهب[٦].

---

[١] جامع البيان للطبري (٦٩٤/١١).
[٢] التفسير الكبير للرازي (١٣١/١٦).
[٣] التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠/١١).
[٤] جامع البيان للطبري (٤٩٧/١١)، النكت والعيون للماوردي (٣٧١/٢)، والمحرر الوجيز لابن عطية (٤٤/٣).
[٥] تفسير القرآن لابن كثير (١٦٢/٤).
[٦] فتح القدير للشوكاني (٤٢١/٢).

9- التقطيع:

أ- قال الله ﷻ: {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[الأعراف:١٦٨].

قال البغوي: (فَرَّقَهُمُ اللَّهُ فَتَشَتَّتَ أَمْرُهُمْ وَلَمْ تَجْتَمِعْ لَهُمْ كَلِمَةٌ)[١].

وقال أبو حيان: (أَيْ: فِرَقًا مُتَبَايِنِينَ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ)[٢].

ب- وقال الله ﷻ في سبأ: {فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[سبأ:١٩].

قال الطبري: (قَطَّعْنَاهُمْ فِي الْبِلَادِ كُلَّ مَقْطَعٍ)[٣].

وقال البغوي: (فَرَّقْنَاهُمْ فِي كُلِّ وَجْهٍ مِنَ الْبِلَادِ كُلَّ التَّفْرِيقِ)[٤].

10- الختم والطبع:

أ- قال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[البقرة: ٦،٧].

قال الطبري: (الذُّنُوبُ إِذَا تَتَابَعَتْ عَلَى الْقُلُوبِ أَغْلَقَتْهَا، وَإِذَا أَغْلَقَتْهَا أَتَاهَا حِينَئِذٍ الْخَتْمُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ﷿ وَالطَّبْعُ، فَلَا يَكُونُ لِلْإِيمَانِ إِلَيْهَا مَسْلَكٌ، وَلَا لِلْكُفْرِ مِنْهَا مُخَلِّصٌ.

فَذَلِكَ هُوَ الطَّبْعُ وَالْخَتْمُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – فِي قَوْلِهِ: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ}، نَظِيرُ الطَّبْعِ وَالْخَتْمِ عَلَى مَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ مِنَ الْأَوْعِيَةِ وَالظُّرُوفِ الَّتِي لَا يُوصَلُ إِلَى مَا فِيهَا إِلَّا بِفَضِّ ذَلِكَ عَنْهَا ثُمَّ حِلِّهَا، فَكَذَلِكَ لَا يَصِلُ الْإِيمَانُ إِلَى قُلُوبِ مَنْ وَصَفَ اللَّهُ أَنَّهُ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، إِلَّا بَعْدَ فَضِّهِ خَاتَمَهُ وَحِلِّهِ رِبَاطَهُ عَنْهَا)[٥].

---

[١] معالم التنزيل للبغوي (٣/٢٩٥).

[٢] البحر المحيط لأبي حيان (٥/٢٠٩).

[٣] جامع البيان للطبري (١٩/٢٦٦).

[٤] معالم التنزيل للبغوي (٦/٣٩٦).

[٥] جامع البيان للطبري (١/٢٦٧).

وقال القرطبي: (الْخَتْمُ... مَعْنَاهُ: التَّغْطِيَةُ عَلَى الشَّيْءِ، وَالِاسْتِيثَاقُ مِنْهُ حَتَّى لَا يَدْخُلُهُ شَيْءٌ)[1].

ب- وقال الله ﷻ: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}[النساء:١٥٥].

ج- وقال الله ﷻ: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}[محمد:١٦].

11- الخزي:

أ- قال الله ﷻ: {إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ}[النحل: ٢٧].

قال الطبري: (يَعْنِي: الذِّلَّةَ وَالْهَوَانَ)[2].

وقال ابن كثير: (أَيِ: الْفَضِيحَةَ)[3].

ب- وقال الله ﷻ: {وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ}[الحشر: ٥].

12- الذلة والمسكنة:

أ- قال الله ﷻ: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}[البقرة: ٦١].

وقال القرطبي: ({الذِّلَّةُ} الذُّلُّ وَالصَّغَارُ)[4].

وقال ابن كثير: (أَيْ: لَا يَزَالُونَ مُسْتَذَلِّينَ، مَنْ وَجَدَهُمُ اسْتَذَلَّهُمْ وَأَهَانَهُمْ، وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الصَّغَارَ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَذِلَّاءُ مُتَمَسْكِنُونَ)[5].

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/١٨٥، ١٨٦) باختصار.

[2] جامع البيان للطبري (١٤/٢٠٨).

[3] تفسير القرآن لابن كثير (٤/٥٦٧).

[4] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/٤٣٠).

[5] تفسير القرآن لابن كثير (١/٢٨٢).

ب- وقال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ}[الأعراف: ١٥٢].

ج- وقال الله ﷻ: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ}[الشورى:٤٥].

د- وقال الله ﷻ: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ}[القلم:٤٣].

13- الرعب:

أ- قال الله ﷻ: {وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا}[الأحزاب: ٢٦].

ب- وقال الله ﷻ: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ}[آل عمران: ١٥١].

ج- وقال الله ﷻ: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}[الأنفال:١٢].

قال النسفي: ({الرُّعْبَ} هُوَ امْتِلَاءُ الْقَلْبِ مِنَ الْخَوْفِ)[١].

14- الصغار:

قال الله ﷻ: {سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ} [الأنعام:١٢٤].

قال الطبري: (عَنِ السُّدِّيِّ... قَالَ: "الصَّغَارُ: الذِّلَّةُ"،...وَهُوَ أَشَدُّ الذُّلِّ)[٢].

---

[١] مدارك التنزيل للنسفي (٦٣٥/١).

[٢] جامع البيان للطبري (٥٤٠/٩).

وقال القرطبي: (الصَّغَارُ: الضَّيْمُ وَالذُّلُّ وَالْهَوَانُ)[1].

وقال ابن عاشور: (الصَّغَارُ... هُوَ الْقَمَاءَةُ وَنُقْصَانُ الشَّيْءِ عَنْ مِقْدَارِ أَمْثَالِهِ)[2].

15- الغضب والسخط:

أ- قال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ}[الأعراف: ١٥٢].

ب- وقال الله ﷻ: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[النحل: ١٠٦].

ج- وقال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ}[الممتحنة:١٣].

د- وقال الله ﷻ: {تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ}[المائدة: ٨٠].

قال الأصفهاني: (السَّخَطُ والسُّخْطُ: الْغَضَبُ الشَّدِيدُ الْمُقْتَضِي لِلْعُقُوبَةِ)[3].

16- القتال:

أ- قال الله ﷻ: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}[التوبة: ٣٠].

قال الطبري: (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: {قَاتَلَهُمُ اللَّهُ} يَقُولُ: لَعَنَهُمُ اللَّهُ)[4].

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧/٨٠).

[2] التحرير والتنوير لابن عاشور (٨/٥٥).

[3] المفردات للأصفهاني (١/٤٠٢).

[4] جامع البيان للطبري (١١/٤١٥).

ب- وقال الله ﷻ: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون: ٤].

قلت: القتال من باب إعلان الحرب عليهم.

17- القتل:

قال الله ﷻ: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى}[الأنفال: ١٧].

قال الطبري: (أَضَافَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ- قَتْلَهُمْ إِلَى نَفْسِهِ، وَنَفَاهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ الَّذِينَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ؛ إِذْ كَانَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ هُوَ مُسَبِّبٌ قَتَلَهُمْ، وَعَنْ أَمْرِهِ كَانَ قِتَالُ الْمُؤْمِنِينَ إِيَّاهُمْ)[1].

وقال ابن كثير: (أَيْ: لَيْسَ بِحَوْلِكُمْ وَقُوَّتِكُمْ قَتَلْتُمْ أَعْدَاءَكُمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِكُمْ، أَيْ: بَلْ هُوَ الَّذِي أَظْفَرَكُمْ بِهِمْ وَنَصَرَكُمْ عَلَيْهِمْ)[2].

قلت: ما دام أن الحق ﷻ نسب القتل إلى نفسه الكريمة، فينبغي حمله – مع سابقه- على ظاهره، وهو وإن لم يباشر القتال والقتل بذاته الشريفة، فالقول قوله والأمر أمره.

18- اللعنة:

أ- قال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ}[البقرة: ١٥٩].

قال الطبري: (لَعَنَهُ اللَّهُ بِمَعْنَى: أَقْصَاهُ وَأَبْعَدَهُ، وَأَسْحَقَهُ، وَأَصْلُ اللَّعْنِ: الطَّرْدُ)[3].

---

[1] جامع البيان للطبري (٨٢/١١).

[2] تفسير القرآن لابن كثير (٣٢/٤).

[3] جامع البيان للطبري (٧٣٢/٢).

وقال الرازي: (مَعْنَى اللَّعْنِ مِنْهُمْ: مُبَاعَدَةُ الْمَلْعُونِ وَمُشَاقَّتُهُ وَمُخَالَفَتُهُ، مَعَ السُّخْطِ عَلَيْهِ وَالْبَرَاءَةِ مِنْهُ)[1].

ب- وقال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}[البقرة: ١٦١].

ج- وقال الله ﷻ: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}[هود: ١٨].

19- المزايلة:

قال الله ﷻ: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ}[يونس: ٢٨].

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: (فَرَّقْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آلِهَتِهِمْ)[2].

وقال البغوي: ({فَزَيَّلْنَا} مَيَّزْنَا وَفَرَّقْنَا {بَيْنَهُمْ} أَيْ: بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَشُرَكَائِهِمْ، وَقَطَعْنَا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ التَّوَاصُلِ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ حِينَ يَتَبَرَّأُ كُلُّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِمَّنْ عَبَدَهُ)[3].

20- لا يحبهم الله ﷻ:

أ- قال الله ﷻ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}[آل عمران: ٣٢].

ب- وقال الله ﷻ: {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[آل عمران: ٥٧/ ١٤٠].

ج- وقال الله ﷻ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[القصص: ٧٧].

---

[1] التفسير الكبير للرازي (١٤٢/٤).

[2] زاد المسير لابن الجوزي (٣٢٨/٢).

[3] معالم التنزيل للبغوي (١٣١/٤).

21- لا يرضى الله ﷻ عنهم:

قال الله ﷻ: {يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}[التوبة: ٩٦].

22- لا يقبل الله ﷻ حجتهم، ولا تنفعهم معذرتهم:

أ- قال الله ﷻ: {فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}[الروم: ٥٧].

ب- وقال الله ﷻ: {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ}[الصافات: ٢٥، ٢٦].

ج- وقال الله ﷻ: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}[النحل: ٨٤].

23- لا يكلمهم الله ﷻ:

أ- قال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة: ١٧٤].

ب- وقال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[آل عمران: ٧٧].

24- لا يؤذن لهم بالكلام:

أ- قال الله ﷻ: {قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}[المؤمنون: ١٠٨].

ب- وقال الله ﷻ: {وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ}[النمل: ٨٥].

ج- وقال الله ﷻ: {هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ}[المرسلات: ٣٥، ٣٦].

25- ليسوا من الله ﷻ في شيء:

قال الله ﷻ: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}[آل عمران:٢٨].

قال ابن عاشور: (الْمَعْنَى أَنَّ فَاعِلَ ذَلِكَ مَقْطُوعٌ عَنِ الِانْتِمَاءِ إِلَى اللَّهِ)[١].

---

[١] التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/٢١٧).

"سياسة الكافرين بعضهم مع بعض"

وهذا ليس مما يمدحون به، ولا فيما يذكر لهم بخير، بل هو خبر عن منهجهم حين تتجلى الحقيقة من تحت ركام الزيف؛ وليبان أن ما فعلوه حين تكشفت الحجب، كان واجباً عليهم حين كان زمام الأمر بأيديهم، وأن ما آمنوا برؤيته بعين البصر، كان لزاماً عليهم الإيمان به بعين البصيرة، يوم عموا عن الأدلة وصموا عن الحق، وعنفوا الموحدين وأرعبوهم وأرهبوهم، بمقدور منهم – مُقدَّر علينا وعليهم–، ثم فجروا فزادوا، وتوعدوا فأنفذوا، فقتلوا وصلبوا وسجنوا وأخرجوا وأغرقوا وأحرقوا، أفعال سادية تترفع وحوش الغاب عن الوسم بها، فكانوا – بأمرهم وفعلهم– هم الأرذليين الأذليين في الدنيا والآخرة، وكانوا أصدق دليل وبرهان على صدق دعوة الأنبياء والمرسلين، ومن كانوا لهم تابعين، إذ ما جاء أحد بمثل ما جاءوا به إلا عُودي.

ولأن أجوافهم قد ملئت إجراماً فقد تفجرت حمماً على أنفسهم وأتباعهم، فمن ذلك...

1- البراءة:

أ- قال الله ﷻ: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}[البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

قلت: هذا حين يختصم السادة والأتباع، فيتبرأ كلٌ من الآخر، فالزعماء الذين وعدوهم بحمل الكِفل عنهم إن هم اتبعوهم وأطاعوهم، تبرؤوا منهم اليوم، ولم يجد الأتباع إلا تمني العودة ليتبرؤوا من سادتهم وقادتهم، وإنهم لكاذبون، فلو رُدوا لعادوا لما نُهوا عنه، إذ لكل واحد منهما في صاحبه رغبة، لا يحققها الأول إلا بأتباع، ولا يستطيعها الآخر إلا بأسياد.

ب- وقال الله ﷻ: {قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ}[القصص: ٦٣].

ج- وقال الله ﷻ: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ}[الحشر: ١٦].

د- وقال الله ﷻ: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[الأنفال: ٤٨].

2- البغضاء:

أ- قال الله ﷻ: {هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ}[ص: ٥٩-٦١].

قلت: فأين ذهبت مراسيم الاستقبال؟ وأين البرتوكولات والشارات والبسط الحمراء؟ وأين المراكب والمواكب؟

وفي المقابل: أين حفلات التخريج؟ وأين الأوسمة والتكريم؟ وأين الترقية والترفيع؟

ذهب كل هذا كأمس الدابر، وبقي {لَا مَرْحَبًا} يقولها القادة لجندهم، والجند لقادتهم، والسادة لأتباعهم، والأتباع لسادتهم، فهل من معتبر؟!

ب- وقال الله ﷻ: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ}[فصلت: ٢٨].

قلت: هكذا "تحت أقدامكم"! بعد أن كنتم ترفعونهم على أكتافكم، وتعصبون جباهكم بشعاراتهم، وتتعممون بشاراتهم، وتُقاتلون تحت راياتهم، وتُكفِنون وتُكفَنون بأعلامهم، فالآن فقط أدركتم مكانهم الذي يصلح لهم، ليت الأمر بأيديكم، فتبت كل أياديكم.

3- التكفير:

أ- قال الله ﷻ: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}[العنكبوت: ٢٥].

ب- وقال الله ﷻ: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ}[غافر: ٨٤].

قال الطبري: (يَقُولُ: وَجَحَدْنَا الْآلِهَةَ الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَقْتِنَا هَذَا نُشْرِكُهَا فِي عِبَادَتِنَا اللَّهَ وَنَعْبُدُهَا مَعَهُ، وَنَتَّخِذُهَا آلِهَةً، فَبَرِئْنَا مِنْهَا)[1].

ج- وقال الله ﷻ: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا}[مريم: ٨١، ٨٢].

قلت: في الآية الأولى كفروا بأشخاص بعضهم، وفي الآيتين التاليتين كفروا بالأشياء والمناهج والأسباب، وعلى الصورتين يقع التكفير، ليدل - رغماً عن أنوفهم- على أن المنهج الحق يقع في التكفير على الوجهين ولابد، وأنهم كانوا ضالين مُضلين، حين وسموا الموحدين بالتكفيريين، فها هم الآن يشهدون على أنفسهم بصدق ما كان له يُحاربون، ويقرون بما كانوا فيه يعاندون، ويقولون ما كانوا عنه ينهون.

٤- اللعنة:

أ- قال الله ﷻ: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ}[الأعراف: ٣٨].

ب- وقال الله ﷻ: {وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}[العنكبوت: ٢٥].

٥- المعاداة:

أ- قال الله ﷻ: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ}[الزخرف: ٦٧].

ب- وقال الله ﷻ: {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}[الأحقاف: ٦].

---

[1] جامع البيان للطبري (٢٠/٣٧٣).

الجزء الثاني

المؤكدات

إن لكل شيء علامة، فعلامة طاعة الله ﷻ طاعة رسوله ﷺ، ومن علامة الإيمان حب الأنصار ﷺ، وإن للملة علامة لابد وأن تدل عليها، وكذلك هي الحنيفية، وإلا لم يكن معنى للتفريق في المدلول، ولا في السبب والنتيجة.

وهذا فصل في العلامات الدالة على الملة الحنيفية مستخرج من القرآن بتفسير أئمة البيان، ولا ندعي إحاطتها جميعاً، ولكنها أظهر ما بان لنا، وقد تتفرع، أو تتداخل، أو يُزاد عليها، فرحم الله ﷻ من وفاها حقها، أو كاد، وهي تنقسم لجزأين:

الأول – المؤكدات: وهي العلامات الدالة على صحة السير.

الثاني– المتممات: وهي العلامات الدالة على كمال المسير.

وسيظهر الفرق بينهما في حينه بإذن الله ﷻ وتوفيقه، فهلم إلى المؤكدات مساقة بالترتيب، وهي في الأهمية على السواء...

العلامة الأولى

"الاجتناب"

الاجتناب: أصله البعد عن الشيء والتحرز منه، ومتاركته والنأي عنه، قال ابن منظور: (جَنَّبَ الشيءَ... واجْتَنَبَهُ: بَعُدَ عَنْهُ)[1].

وقد جاء الأمر الرباني باجتناب أصناف، منها:

أ- الأصنام:

قال الله ﷻ: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} [إبراهيم: ٣٥].

قال القرطبي: (أَي: اجْعَلْنِي جَانِبًا عَنْ عِبَادَتِهَا... وَاجْتَنَبَهُ أَيْ: تَرَكَهُ)[2].

وقال ابن القيم: (ها هنا أمران: تجنيب عبادتها، واجتنابه.

فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها؛ ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم، والتجنيب فعله، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله)[3].

قلت: لما اجتنب إبراهيم عليه السلام الأصنام وعابديها، خلصت له خلة الرحمن؛ لامتناع الجمع بين محبة الأصنام – أو عابديها– وخلة الرحمن؛ ولأنه لابد من طلب الثبات على الملة فرقاً من زلة القدم أو تعثر الخطى، جاء الدعاء بالثبات على الاجتناب مفسراً واضحاً لقوله ﷻ: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[البقرة: ١٣٢].

ب- الطواغيت:

١- قال الله ﷻ: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}[النحل: ٣٦].

---

[1] لسان العرب لابن منظور (١/٢٧٩) باختصار.

[2] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩/ ٣٦٨) باختصار.

[3] شفاء العليل لابن القيم (٥٩).

قال القرطبي: (﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أَيِ: اتْرُكُوا كُلَّ مَعْبُودٍ دُونَ اللَّهِ، كَالشَّيْطَانِ وَالْكَاهِنِ وَالصَّنَمِ، وَكُلَّ مَنْ دَعَا إِلَى الضَّلَالِ)[1].

وقال الشنقيطي: (ذَكَرَ – جَلَّ وَعَلَا – فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّهُ بَعَثَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَاجْتِنَابِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ.

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"؛ لِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ نَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ، فَنَفْيُهَا هُوَ خَلْعُ جَمِيعِ الْمَعْبُودَاتِ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ، وَإِثْبَاتُهَا هُوَ إِفْرَادُهُ – جَلَّ وَعَلَا – بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ بِإِخْلَاصٍ، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي شَرَعَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ – عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ –.

وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَهُوَ طَاغُوتٌ، وَلَا تَنْفَعُ عِبَادَةُ اللَّهِ إِلَّا بِشَرْطِ اجْتِنَابِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، كَمَا بَيَّنَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[البقرة: ٢٥٦])[2].

قلت: مع تباين بواعث كفر الكافرين، إلا أن الآية حصرت مهمة الرسل في أمرين:

الأول– الأمر بعبادة الله ﷻ.

الثاني– الأمر باجتناب الطاغوت.

فدل على أن كل ما سوى الله ﷻ فهو طاغوت، وأن العبادة لغير الله ﷻ أو مع الله ﷻ، هي من دين الطاغوت، فكان في اجتناب الطاغوت بمعناه العام كفاية عن التفصيل في أسباب الكفر والشرك، مثاله الحكم بما أنزل الله ﷻ– والذي هو من عبادة الله ﷻ–، واجتناب الطاغوت والحكم بحكمه – والذي هو أي حكم بغير ما أنزل الله ﷻ–، أي أن من آمن بالله ﷻ وحكم بحكمه، فقد ترك حكم الطاغوت، ولكن هل كفر به؟! قضية أخرى تحتاج لبرهان تفصيلي.

ومن حكم بحكم الطاغوت، فهو مؤمن به، وإن لم يُعلنه كفراً بالله ﷻ.

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠/ ١٠٣).

[2] أضواء البيان للشنقيطي (٢/ ٣٧٤، ٣٧٥) باختصار.

٢- وقال الله ﷻ: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ}[الزمر: ١٧].

قال الطبري: (أَيِ: اجْتَنَبُوا عِبَادَةَ كُلِّ مَا عُبِدَ مِن دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ.

وَقَوْلُهُ: {وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ} يَقُولُ: وَتَابُوا إِلَى اللَّهِ وَرَجَعُوا إِلَى الْإِقْرَارِ بِتَوْحِيدِهِ، وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ، وَالْبَرَاءَةِ مِمَّا سِوَاهُ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ)[١].

وقال القرطبي: (أَيْ: تَبَاعَدُوا مِنَ الطَّاغُوتِ، وَكَانُوا مِنْهَا عَلَى جَانِبٍ، فَلَمْ يَعْبُدُوهَا)[٢].

وقال الرازي: ({وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ} إِشَارَةٌ إِلَى الْإِعْرَاضِ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ)[٣].

وقال سليمان بن سحمان: (المراد من اجتنابه هو بغضه، وعداوته بالقلب، وسبه وتقبيحه باللسان، وإزالته باليد عند القدرة، ومفارقته، فمن ادعى اجتناب الطاغوت ولم يفعل ذلك فما صدق)[٤].

ج- الأوثان:

قال الله ﷻ: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ}[الحج: ٣٠، ٣١].

قال الطبري: (اجْتَنِبُوا أَيُّهَا النَّاسُ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ، وَقَوْلَ الشِّرْكِ، مُسْتَقِيمِينَ لِلَّهِ عَلَى إِخْلَاصِ التَّوْحِيدِ لَهُ، وَإِفْرَادِ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ لَهُ، خَالِصًا دُونَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ، غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ شَيْئًا مِنْ دُونِهِ)[٥].

وقال الرازي: (سَمَّى الْأَوْثَانَ رِجْسًا لَا لِلنَّجَاسَةِ، لَكِنْ لِأَنَّ وُجُوبَ تَجَنُّبِهَا أَوْكَدُ مِنْ وُجُوبِ تَجَنُّبِ الرِّجْسِ؛ وَلِأَنَّ عِبَادَتَهَا أَعْظَمُ مِنَ التَّلَوُّثِ بِالنَّجَاسَاتِ)[٦].

د، هـ- الأنصاب والأزلام:

---

[١] جامع البيان للطبري (٢٠/ ١٨٣، ١٨٤) باختصار.
[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/ ٢٤٣).
[٣] التفسير الكبير للرازي (٢٦/ ٤٣٤- ٤٣٦) باختصار.
[٤] الدرر السنية (١٠/٥٠٢، ٥٠٣).
[٥] جامع البيان للطبري (١٦/ ٥٣٨) باختصار.
[٦] التفسير الكبير للرازي (٢٣/٢٢٣) باختصار.

قال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[المائدة: ٩٠].

قال الطبري: (يَقُولُ: فَاتْرُكُوهُ وَارْفُضُوهُ، وَلَا تَعْمَلُوهُ)[١].

وقال النحاس: (أَيْ: كُونُوا فِي جَانِبٍ غَيْرِ جَانِبِهِ)[٢].

وقال ابن العربي: (يُرِيدُ أَبْعِدُوهُ، وَاجْعَلُوهُ نَاحِيَةً.

وَهَذَا أَمْرٌ بِاجْتِنَابِهَا، وَالْأَمْرُ عَلَى الْوُجُوبِ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ عُلِّقَ بِهِ الْفَلَاحُ)[٣].

قلت: الاجتناب يكون على وجهين:

الأول– اجتناب المشرك ذاتاً...

أ– فلا يرافقه ولا يساكنه، كما قال رسول الله ﷺ: "مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ"[٤].

قال العظيم آبادي: (الْمَعْنَى: مَنِ اجْتَمَعَ مَعَ الْمُشْرِكِ وَوَافَقَهُ وَرَافَقَهُ وَمَشَى مَعَهُ، "وَسَكَنَ مَعَهُ" أَيْ: فِي دِيَارِ الْكُفْرِ، "فَإِنَّهُ مِثْلُهُ")[٥].

ب– ولا يتخذه إماماً أو ولياً أو حاكماً أو حَكَماً أو ناصحاً.

الثاني– اجتناب ذات الشرك، ويكون باجتناب منهجه وسبيله، كمثل اتخاذ قانونه وتشريعه دستوراً ومرجعاً.

---

[١] جامع البيان للطبري (٨/٦٥٦)

[٢] معاني القرآن للنحاس (٢/٥٣٦).

[٣] أحكام القرآن لابن العربي (٢/١٦٥).

[٤] إسناده صحيح: السنن لأبي داود (٣/٩٣) برقم (٢٧٨٧) عن سمرة بن جندب ﷺ.

[٥] عون المعبود للعظيم آبادي (٧/٣٣٧).

العلامة الثانية

"الإرهاب"

قال الراغب: (الرَّهْبَةُ والرُّهْبُ: مَخَافَةٌ مَعْ تَحَرُّزٍ وَاضْطِرَابٍ)[1].

وقال ابن منظور: (أَرْهَبَهُ ورَهَّبَهُ واسْتَرْهَبَهُ: أَخَافَهُ وَفَزَّعَهُ)[2].

والمراد به: إيقاع العدو في خوف وفزع ورعب من المسلمين.

وقد جاء البيان القرآني بالحث على ذلك، كما...

أ- قال الله ﷻ: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}[الأنفال:٦٠].

قال ابن عطية: ({تُرْهِبُونَ} مَعْنَاهُ: تُفْزِعُونَ وَتُخَوِّفُونَ)[3].

وقال ابن الجوزي: (أَيْ: تُخِيفُونَ وَتُرْعِبُونَ)[4].

وقال الرازي: (الْمُرَادُ أَنَّ تَكْثِيرَ آلَاتِ الْجِهَادِ وَأَدَوَاتِهَا كَمَا يُرْهِبُ الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ نَعْلَمُ كَوْنَهُمْ أَعْدَاءً، كَذَلِكَ يُرْهِبُ الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ لَا نَعْلَمُ أَنَّهُمْ أَعْدَاءٌ، ثُمَّ فِيهِ وُجُوهٌ:

الْأَوَّلُ: وَهُوَ الْأَصَحُّ أَنَّهُمْ هُمُ الْمُنَافِقُونَ)[5].

وقال أبو حيان: (الْمَعْنَى أَنَّ الْكُفَّارَ إِذَا عَلِمُوا بِمَا أَعْدَدْتُمْ لِلْحَرْبِ مِنَ الْقُوَّةِ وَرِبَاطِ الْخَيْلِ خَوَّفُوا مَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَأَرْهَبُوهُمْ، إِذْ يُعْلِمُونَهُمْ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِعْدَادِ لِلْحَرْبِ فَيَخَافُونَ مِنْكُمْ، وَإِذَا كَانُوا قَدْ أَخَافُوا مَنْ يَلِيهِمْ مِنْكُمْ، فَهُمْ أَشَدُّ خَوْفًا لَكُمْ)[6].

---

[1] المفردات للراغب الأصفهاني (٣٦٦/١).
[2] لسان العرب لابن منظور (٤٣٦/١).
[3] المحرر الوجيز لابن عطية (٥٤٦/٢).
[4] زاد المسير لابن الجوزي (٢٢١/٢).
[5] التفسير الكبير للرازي (٤٩٩/١٥، ٥٠٠).
[6] البحر المحيط لأبي حيان (٣٤٤/٥، ٣٤٥).

قلت: علقت الآية إرهاب الأعداء بالأسباب المادية، وبالإعدادات الحربية، التي توقع الفزع والخوف في قلوبهم قبل بدء المعارك، وهو مما يستحسن إظهاره، وبالإعداد يتحقق مقصد الإرهاب علاوة على حُسن أثره في الأداء القتالي، حين استخدام المُعَد.

وذكره في المنافقين – من غير تخصيص بهم– يشمل من أظهر الإسلام، وكان عيناً أو أذناً أو قلباً للعدو الظاهر، فهو منهم حقيقة وإن تظاهر بغير ذلك، أو ظن أنه غير ذلك أو وجد من يختلق له صنوف التأويل، فهذا الصنف – لذبذبته – يبقى دائماً خائفاً وجلاً، يخشى أن تدور عليه دائرة، أو يفتضح حاله، فلا يسلم من سيف المسلم، ولا تنفعه موالاة الكافر؛ لذلك يحسبون كل صيحة عليهم.

وإذا أَرَّخَت الآية لبداية العمل، وهو فعل المكلفين، فقد جاءت أختها لتضيء جانب النتيجة؛ وليعرف المجاهد – بالكشف عن الجوهر، دون الحاجة لكل المخترعات الحديثة– أن المُصَوب إليه قد أصيب في مقتل، كما...

ب– قال الله ﷻ: {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [الحشر:١٣].

قال أبو حيان: (خَاطَبَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ هَؤُلَاءِ يَخَافُونَكُمْ أَشَدَّ خِيفَةٍ مِنَ اللَّهِ – تَعَالَى–؛ لِأَنَّهُمْ يَتَوَقَّعُونَ عَاجِلَ شَرِّكُمْ، وَلِعَدَمِ إِيمَانِهِمْ لَا يَتَوَقَّعُونَ أَجَلَ عَذَابِ اللَّهِ، وَذَلِكَ لِقِلَّةِ فَهْمِهِمْ)[١].

وقال ابن عاشور: (الْمَقْصُودُ: تَشْدِيدُ نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ عَدُوَّهُمْ مُرْهَبٌ مِنْهُمْ، وَذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُ الْمُسْلِمِينَ إِقْدَامًا فِي مُحَارَبَتِهِمْ، إِذْ لَيْسَ سِيَاقُ الْكَلَامِ لِلتَّسْجِيلِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ قِلَّةَ رَهْبَتِهِمْ لِلَّهِ، بَلْ إِعْلَامَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّهُمْ أَرْهَبُ لَهُمْ مِنْ كُلِّ أَعْظَمِ الرَّهَبَاتِ...

وَوَجْهُ وَصْفِ الرَّهْبَةِ بِأَنَّهَا فِي صُدُورِهِمُ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّهَا رَهْبَةٌ جِدُّ خَفِيَّةٍ، أَيْ: أَنَّهُمْ يَتَظَاهَرُونَ بِالِاسْتِعْدَادِ لِحَرْبِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَتَطَاوَلُونَ بِالشَّجَاعَةِ؛ لِيَرْهَبَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، وَمَا هُمْ بِتِلْكَ الْمَثَابَةِ، فَأَطْلَعَ الله رَسُوله ﷺ عَلَى دَخِيلَتِهِمْ)[٢].

---

[١] البحر المحيط لأبي حيان (١٠/١٤٥، ١٤٦).

[٢] التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨/١٠٢، ١٠٣) باختصار.

* وأما وقوع ذلك فهو نتيجة أحد فعلين:

الأول: من الله ﷻ خالصاً، كما...

١- قال الله ﷻ: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ}[آل عمران: ١٥١].

٢- وقال الله ﷻ: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}[الأنفال: ١٢].

٣- وقال الله ﷻ: {وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا}[الأحزاب: ٢٦].

٤- وقال النبي ﷺ: "نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ"[1].

٥- وقال جبريل عليه السلام: (إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَأْمُرُكَ يَا مُحَمَّدُ بِالْمَسِيرِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنِّي عَامِدٌ إِلَيْهِمْ فَمُزَلْزِلٌ بِهِمْ)[2]، فهذا من جند الله ﷻ المسلط على الكافرين.

قال ابن تيمية: (تَخْوِيفُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَإِرْعَابُهُمْ هُوَ مِنْ اللَّهِ نُصْرَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)[3].

الثاني: من أفعال المكلفين، ومن أمثلته الدالة على لزومه:

أ- الأمر بالإعداد الحربي كما دلت عليه آية الإعداد.

ب- في فتح مكة (قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يَا عَبَّاسُ، احْبِسْهُ – أي: أبو سفيان- بِمَضِيقِ الْوَادِي عِنْدَ خَطْمِ الْجَبَلِ، حَتَّى تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ اللهِ فَيَرَاهَا". قَالَ: فَخَرَجْتُ بِهِ حَتَّى حَبَسْتَهُ حَيْثُ أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَحْبِسَهُ. قَالَ: وَمَرَّتْ بِهِ الْقَبَائِلُ عَلَى رَايَاتِهَا كُلَّمَا مَرَّتْ قَبِيلَةٌ، قَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَأَقُولُ: سُلَيْمٌ. فَيَقُولُ: مَالِي وَلِسُلَيْمٍ؟

قَالَ: ثُمَّ تَمُرُّ الْقَبِيلَةُ، قَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟

فَأَقُولُ: مُزَيْنَةُ. فَيَقُولُ: مَا لِي وَلِمُزَيْنَةَ؟

حَتَّى تَعَدَّتِ الْقَبَائِلُ لَا تَمُرُّ قَبِيلَةٌ إِلَّا قَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟

---

[1] الجامع للبخاري (١/٧٤) برقم (٣٣٥)، والمسند لمسلم (١/٣٧٠) برقم (٥٢١) عن جابر رضي الله عنه.

[2] السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٣٣).

[3] مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٤/٢٠٥).

فَأَقُولُ: بَنُو فُلَانٍ. فَيَقُولُ: مَالِي وَلِبَنِي فُلَانٍ.

حَتَّى مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْخَضْرَاءِ، كَتِيبَةٌ فِيهَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ لَا يَرَى مِنْهُمْ إِلَّا الْحَدَقَ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ، مَنْ هَؤُلَاءِ يَا عَبَّاسُ؟

قُلْتُ: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

قَالَ: مَا لِأَحَدٍ بِهَؤُلَاءِ قِبَلٌ وَلَا طَاقَةٌ، وَاللهِ يَا أَبَا الْفَضْلِ، لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيكَ الْغَدَاةَ عَظِيمًا.

قُلْتُ: يَا أَبَا سُفْيَانَ، إِنَّهَا النُّبُوَّةُ.

قَالَ: فَنَعَمْ إِذَنْ.

قُلْتُ: النَّجَاءُ إِلَى قَوْمِكَ.

قَالَ: فَخَرَجَ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، هَذَا مُحَمَّدٌ قَدْ جَاءَكُمْ بِمَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ)[1].

ج- ومن ذلك خروج رسول الله ﷺ لقتال الروم في تبوك، وقد كانت من قبلها مؤتة، وما زرعه – فأنبته- ذلك من هيبةٍ للمسلمين في قلوب العرب جميعاً، فلم تقوَ لهم بعدها شوكة على مقاتلة من يملك إرادة مقاتلة الروم، هذا علاوة على وقعه في نفوس الروم أنفسهم، كيف لا وهم يهابونه من غير قتال، كما قال أبو سفيان ﷺ – وكان يومئذٍ معادياً للإسلام- وذلك حين سأله عظيم الروم عن رسول الله ﷺ، فقال مقيّماً للموقف وملخصاً للحالة: (إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ)[2].

وإننا لو سايرنا الغزوات والمعارك الحربية مسايرة من تكشفت له البواطن بدلالة القرآن، لرأينا وقعها في قلوب الأعداء رهيباً، نجد بيان ذلك بالتتبع الإجمالي أو الاستقصائي في فتوح مكة والطائف وخيبر كمثال، بل نجد صداه في حروب الصحابة ﷺ من بعد رسول الله ﷺ، كقتال المرتدين والفرس والروم، وكتب السيرة والتاريخ تزخر بذلك، وقد يسر الله ﷻ سرد بعضه في (إرشاد السؤول إلى حروب الرسول ﷺ).

---

[1] صحيح: الطبراني في المعجم الكبير (٨/٩) برقم (٧٢٦٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

[2] الجامع للبخاري (١/٨) برقم (٧)، والمسند لمسلم (٣/١٣٩٣) برقم (١٧٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

العلامة الثالثة

"الاعتزال"

قال ابن منظور: (اعْتَزَلَ الْشَّيءَ: تَنَحَّى عَنْهُ، واعْتَزَلْتُ الْقَومَ أَيْ: فَارَقْتُهُمَ وَتَنَحَّيتَ عَنْهُمْ)[1]، وهذا ينتجه دافعين:

الأول– الإكراه، ويكون بضغط خارجي على العامل، فيزيحه عما هو مستقر عليه، ويضطره لمفارقة – من أو ما– كان ملاصقاً له، أو يترك ما كان عازماً على فعله، وهذا الدافع خارج نطاق حديثنا، إذ لا تبنى عليه أية أحكام شرعية لها تعلق بهذا الموضع، فلا المسلم المكره يؤجر على اعتزاله الكفر، ولا الكافر المكره يقبل منه اعتزاله له.

الثاني– الإيمان، وهو الشعور الداخلي الذي يحفز الشخص على الاقتراب من الشيء والابتعاد عن ضده، وهو كما في المؤمنين بالله ﷻ – وهو موضع البؤرة– كذلك هو في المؤمنين بالطاغوت؛ لذلك تراهم يعرضون عن التوحيد، ويصدفون عن الحكم بما أنزل الله ﷻ، وينأون عن التحاكم للكتاب والسنة تأويلاً أو تزويراً، بل وينهون عنه ضمناً أو صراحةً، وقد ذكرت الآيات ذلك، وفي أخرى بينت الوجه الآخر للمؤمنين بالله ﷻ حقاً، كما...

١– قال الله ﷻ: {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا}[مريم: ٤٨].

قال مقاتل: (كَانَ اعْتِزَالُهُ إِيَّاهُمْ أَنَّهُ فَارَقَهُمْ، فَهَاجَرَ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ)[2].

وقال ابن كثير: (أَيْ: أَجْتَنِبُكُمْ وَأَتَبَرَّأُ مِنْكُمْ وَمِنْ آلِهَتِكُمُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ)[3].

وقال الشوكاني: (أَيْ: أُهَاجِرُ بِدِينِي عَنْكُمْ وَعَنْ مَعْبُودَاتِكُمْ حَيْثُ لَمْ تَقْبَلُوا نُصْحِي، وَلَا نَجَعَتْ فِيكُمْ دَعْوَتِي)[1].

---

[1] لسان العرب لابن منظور (١١/٤٤٠) باختصار.

[2] معالم التنزيل للبغوي (٥/ ٢٣٥).

[3] تفسير القرآن لابن كثير (٥/٢٣٦).

وقال ابن عاشور: (أَظْهَرَ إِبْرَاهِيمُ الْعَزْمَ عَلَى اعْتِزَالِهِمْ وَأَنَّهُ لَا يَتَوَانَى فِي ذَلِكَ، وَلَا يَأْسَفُ لَهُ إِذَا كَانَ فِي ذَاتِ اللَّهِ – تَعَالَى–...

رَأَى إِبْرَاهِيمُ أَنَّ هِجْرَانَهُ أَبَاهُ غَيْرُ مُغْنٍ؛ لِأَنَّ بَقِيَّةَ الْقَوْمِ هُمْ عَلَى رَأْيِ أَبِيهِ، فَرَأَى أَنْ يَهْجُرَهُمْ جَمِيعًا؛ وَلِذَلِكَ قَالَ لَهُ: {وَأَعْتَزِلُكُمْ}.

وَضَمِيرُ جَمَاعَةِ الْمُخَاطَبِينَ عَائِد إِلَى أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ، تَنْزِيلًا لَهُمْ مَنْزِلَةَ الْحُضُورِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ؛ لِأَنَّ أَبَاهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَأَمْرَهُمْ سَوَاءٌ، أَوْ كَانَ هَذَا الْمَقَالُ جَرَى بِمَحْضَرِ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ...

وَزَادَ عَلَى الْإِعْلَانِ بِاعْتِزَالِ أَصْنَامِهِمُ، الْإِعْلَانَ بِأَنَّهُ يَدْعُوَ اللَّهَ، احْتِرَاسًا مِنْ أَنْ يَحْسَبُوا أَنَّهُ نَوَى مُجَرَّدَ اعْتِزَالِ عِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ، فَرُبَّمَا اقْتَنَعُوا بِإِمْسَاكِهِ عَنْهُمْ، وَلِذَا بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ بِعَكْسِ ذَلِكَ، يَدْعُو اللَّهَ الَّذِي لَا يَعْبُدُونَهُ)[٢].

وقال عبد الرحمن بن حسن: (بادأهم بذكر اعتزالهم أولاً، ثم عطف عليه باعتزال معبوداتهم... وهذا هو حقيقة التوحيد)[٣].

وقال عبد الرحمن بن محمد: (الحنفاء أهل التوحيد، اعتزلوا هؤلاء المشركين؛ لأن الله أوجب على أهل التوحيد اعتزالهم، وتكفيرهم، والبراءة منهم...

فلا يتم لأهل التوحيد توحيدهم، إلا باعتزال أهل الشرك، وعداوتهم وتكفيرهم؛ فهم معتزلة بهذا الاعتبار؛ لأنهم اعتزلوا أهل الشرك، كما اعتزلهم الخليل إبراهيم – عليه الصلاة والسلام–)[٤].

قلت: في الاعتزال دلائل، منها:

---

[١] فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٩٧).

[٢] التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦/١٢٢، ١٢٣) باختصار.

[٣] الدرر السنية (٢/٢٦٦)، بالمشاركة مع علي بن حسين، وإبراهيم بن سيف، باختصار.

[٤] المصدر السابق (١١/٤٣٤) باختصار.

أ- فيه مكاشفةٌ لأهل الباطل؛ لئلا يُظن اجتماعنا بهم موافقة منا على أفعالهم، فها هي المفارقة بادية؛ لتدل على استحالة الالتقاء أو المعايشة، ولأننا على الحق، فقد رغبنا عنكم زهداً في دنياكم، غير آسفين لا عليكم، ولا على ما يجمعنا بكم، أو ما يأتينا منكم.

ب- فيه مصارحةٌ لأهل الحق، أن لا خير في أهل الباطل نشاركهم فيه، ولا أمل فيهم نرجوه، ولا حق عندهم نعمل به، ولا عدل منهم نميل إليه.

ج- فيه مباينةٌ للصفوف، لئلا تختلط بالمنافقين، إذ لا يعتزل المحق إلا لعجزه عن مدافعة الباطل وقهره، وهذا حال لا يلجأ إليه منافق، إذ لا مطمع في المعتزِلين، ولا خوف منهم، فما الذي يدعوه ليشاركهم؟

د- فيه إشارة إلى أن مخالط أهل الباطل، إن لم يكن مكرهاً، فهو منهم حكماً، إذ جعل الله ﷻ الاعتزال لمن لم يقدر على الهجرة مخرجاً دون جريان حكم الظاهر عليه.

٢- وقال الله ﷻ: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} إلى قوله: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا}[الكهف: ١٣- ١٦].

قال القرطبي: (هَذِهِ الْآيَةُ صَرِيحَةٌ فِي الْفِرَارِ بِالدِّينِ، وَهِجْرَةِ الْأَهْلِ وَالْبَنِينَ وَالْقَرَابَاتِ وَالْأَصْدِقَاءِ وَالْأَوْطَانِ وَالْأَمْوَالِ خَوْفَ الْفِتْنَةِ وَمَا يَلْقَاهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْمِحْنَةِ.

وَقَدْ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَارًّا بِدِينِهِ، وَكَذَلِكَ أَصْحَابُهُ، وَجَلَسَ فِي الْغَارِ.

وَهَجَرُوا أَوْطَانَهُمْ وَتَرَكُوا أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَهَالِيَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَقَرَابَاتِهِمْ وَإِخْوَانَهُمْ، رَجَاءَ السَّلَامَةِ بِالدِّينِ وَالنَّجَاةِ مِنْ فِتْنَةِ الْكَافِرِينَ.

فَسُكْنَى الْجِبَالِ وَدُخُولُ الْغِيرَانِ، وَالْعُزْلَةُ عَنِ الْخَلْقِ وَالِانْفِرَادُ بِالْخَالِقِ، وَجَوَازُ الْفِرَارِ مِنَ الظَّالِمِ هِيَ سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ – صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ- وَالْأَوْلِيَاءِ.

وَقَدْ فَضَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعُزْلَةَ، وَفَضَّلَهَا جَمَاعَةُ الْعُلَمَاءِ لَا سِيَّمَا عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ وَفَسَادِ النَّاسِ، وَقَدْ نَصَّ اللَّهُ – تَعَالَى- عَلَيْهَا فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: {فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ}...

وَمُضَمَّنُ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ لِبَعْضٍ: إِذَا فَارَقْنَا الْكُفَّارَ وَانْفَرَدْنَا بِاللَّهِ – تَعَالَى– فَلْنَجْعَلِ الْكَهْفَ مَأْوًى وَنَتَّكِلْ عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ سَيَبْسُطُ لَنَا رَحْمَتَهُ، وَيَنْشُرُهَا عَلَيْنَا، وَيُهَيِّئُ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مِرْفَقًا)[1].

وقال ابن كثير: (ذَكَرَ – تَعَالَى– أَنَّهُمْ فِتْيَةٌ – وَهُمُ الشَّبَابُ– وَهُمْ أَقْبَلُ لِلْحَقِّ، وَأَهْدَى لِلسَّبِيلِ مِنَ الشُّيُوخِ، الَّذِينَ قَدْ عَتَوْا وعَسَوا فِي دِينِ الْبَاطِلِ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ شَبَابًا، وَأَمَّا الْمَشَايِخُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَعَامَّتُهُمْ بَقُوا عَلَى دِينِهِمْ، وَلَمْ يُسْلِمْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، وَهَكَذَا أَخْبَرَ – تَعَالَى– عَنْ أَصْحَابِ الْكَهْفِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِتْيَةً شَبَابًا... فَأَلْهَمَهُمُ اللَّهُ رُشْدَهُمْ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ، فَآمَنُوا بِرَبِّهِمْ، أَيْ: اعْتَرَفُوا لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَشَهِدُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

وَقَوْلُهُ: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}، يَقُولُ – تَعَالَى–: وصَبَّرناهم عَلَى مُخَالَفَةِ قَوْمِهِمْ وَمَدِينَتِهِمْ، وَمُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَالسَّعَادَةِ وَالنِّعْمَةِ، فَإِنَّهُ قَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ أَبْنَاءِ مُلُوكِ الرُّومِ وَسَادَتِهِمْ...

قَوْلِهِ: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ} أَيْ: وَإِذَا فَارَقْتُمُوهُمْ وَخَالَفْتُمُوهُمْ بِأَدْيَانِكُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ، فَفَارِقُوهُمْ أَيْضًا بِأَبْدَانِكُمْ)[2].

وقال الشنقيطي: (اعْتِزَالُهُمْ إِيَّاهُمْ هُوَ مُجَانَبَتُهُمْ لَهُمْ، وَفِرَارُهُمْ مِنْهُمْ بِدِينِهِمْ)[3].

وقال ابن عاشور: (الِاعْتِزَالُ: التَّبَاعُدُ وَالِانْفِرَادُ عَنْ مُخَالَطَةِ الشَّيْءِ، فَمَعْنَى اعْتِزَالِ الْقَوْمِ تَرْكُ مُخَالَطَتِهِمْ، وَمَعْنَى اعْتِزَالِ مَا يَعْبُدُونَ: التَّبَاعُدُ عَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ)[4].

قلت: تعرض هذه الآيات للرسول ﷺ مشهداً مهيباً لفتية زكاهم الله ﷻ، وشهد بإيمانهم، ثم أسبغ عليهم نعمة الزيادة في الهدى، والثبات على الحق، بالربط على القلب، وإني لأقطع أن العرب في أبلغ أساليبهم لا يستطيعون قرباً من المعنى ودلالة على المقصود إلا حوماً حوله،

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠/٣٦٠– ٣٦٧) باختصار.

[2] تفسير القرآن لابن كثير (٥/١٤٠– ١٤٢) باختصار.

[3] أضواء البيان للشنقيطي (٣/٢١٧).

[4] التحرير والتنوير لابن عاشور (١٥/٢٧٦).

مع معرفتهم بالمفردات والتراكيب يقيناً، ولكن توظيفها الدلالي على ثبات القلب المؤدي لهجران الأهل والوطن، يحتاج من القوة ما يناسب الربط المستعار مجازاً من قوة الحبال وتماسكها، فيا لله كم جهدوا وجاهدوا ليهجروا القوم ويتخذوا الكهف مأوى؟!

وهو كهف حقيقي دار الزمن دورته ليدخله المصطفي ﷺ وصاحبه ﷺ فراراً بدينهم، أو هو كهف معنوي لكل موحد، ممتد أبداً عبر العصور، إذا تعلق بجناب الله ﷻ، والذي يأوي إليه كل لاجئ فار بدينه وزاهد بدنيا غيره وراغب بمرضاة ربه، حينها تغشاه رحمة ربه، وتشمله عنايته، ويترفق به في أمره كله.

وقد جاء الترغيب في العزلة في أحاديث نبوية شريفة، منها:

١- عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: (كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: "نَعَمْ" قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: "نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ"، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: "قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ"، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: "نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: "هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا"، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: "تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ"، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ: "فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ")[١].

قال القرطبي: (هذا أمر بالاعتزال عند الفتن، وهو على جهة الوجوب؛ لأنه لا يسلم الدين إلا بذلك)[٢].

قلت: وذلك لأن كل فرقة تدعي أنها على الحق، وأن الحق لا يعدو رأيها، فما لم يجمع الفرق إمام واحد[١]، وما لم تجتمع تحت راية إمام واحد، فلن تهتدي الأمة؛ ولأن الضلال غير

[١] الجامع للبخاري (٥١/٩) برقم (٧٠٨٤)، والمسند لمسلم (١٤٧٥/٣) برقم (١٨٤٧).

[٢] المفهم لأبي العباس القرطبي (١٠٤/١٢).

موروث عن الأكابر، ولا هو دائم؛ لحفظ الله ﷻ للأمة بالمجددين، فلابد أن يكون الحق فيما كان قبل الاختلاف، فعليه التمسك بـ:

أ- ما لم يختلفوا فيه، كوحدانية الله ﷻ، ووجوب اتباع الرسول ﷺ، وختم الشرائع والرسالات بالقرآن.

ب- وما كان قبل أن يختلفوا، وذلك لأن الاختلاف محدث، و"الْحَقُّ قَدِيمٌ" كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2].

ثم الثبات على ما تمسك به، حتى يموت عليه، كما في وصية إبراهيم عليه السلام.

٢- عن (عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ – رضي الله عنهما- قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ ذَكَرَ الْفِتْنَةَ، فَقَالَ: "إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ، وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ، وَكَانُوا هَكَذَا" وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، قَالَ: فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: كَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ؟ قَالَ: "الْزَمْ بَيْتَكَ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ بِمَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ")[3].

قال الخطابي: (يَقُولُ: إِذَا دَعَوْكَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا، فَدَعْهُمْ وَاعْتَزِلْهُمْ، وَلَا تَكُنْ مَعَهُمْ)[4].

قلت: حين تنتكس المفاهيم وتنقلب الموازين، ويصبح الواقع حَكماً، والعادة محكمة، يكون اعتزال الناس خير وسيلة لحفظ النفس والدين؛ لأن المخالط إذا سلم من الفتنة، فلن يسلم من أذى الناس، وليأخذ بما يعرف من الحق، وليترك ما خالفه، ولا ينشغل إلا بخاصة نفسه ومن يعول، أما عامة الناس، فأموات غير أحياء، {وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ}[فاطر:٢٢]، كما قال الخبير بذات الصدور ﷻ.

---

[1] أقصد بالإمام هنا أحد معنيين: الأول: القدوة ومن – أو ما – يؤتم به، من إنسان أو كتاب، وهو أحد وجوه تفسير قوله ﷻ: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ}[الإسراء: ٧١].

الثاني: السبيل الواضح الظاهر، ومنه قوله ﷻ: {وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ}[الحجر: ٧٩].

ويخصص كلاهما بالصلاح والهدى المستمد من الكتاب والسنة.

[2] السنن للدارقطني (٥/٣٦٧) برقم (٤٤٧١).

[3] إسناده صحيح: السنن لأبي داود (٤/١٢٤) برقم (٤٣٤٣).

[4] العزلة للخطابي (٩).

٣- عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: (قَالَ رَجُلٌ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ، يَا رَسُولَ اللهِ؟
قَالَ: "مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ".
قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟
قَالَ: "ثُمَّ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ")[1].

قلت: الموحد بين حالين:

الأولى- غازياً فاتحاً في سبيل الله ﷻ؛ لدفع شر الناس عن أنفسهم، فليس بعد الكفر شر، وشر الكافر على نفسه وأهله والناس أجمعين مستطير، فجهاده أنفع من مسالمته، ومدافعته أنجع من مهادنته أو مداهنته.

الثانية- مدافعاً ومنافحاً دون شر الناس اللاحق به، وأحسن أحواله يكون حين يعتزل شرور الناس، ويخلو بوجه ربه الكريم.

٤- قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي"، قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: "كُونُوا أَحْلَاسَ بُيُوتِكُمْ")[2].

قلت: قال أهل اللغة: أحلاس البيوت هم ملازموها[3]، وذلك لشدة الفتنة، وليس بعد العجز عن تحقيق الغنيمة خير من تفادي الهزيمة؛ لذلك لا يعرض الموحد ما يتقلب في صدره لفتنة لا يأمن الخروج منها، منتصباً أم منكسراً، فكان في الاعتزال كل السلامة، و"فِي الْعُزْلَةِ رَاحَةٌ مِنْ خُلَطَاءِ السُّوءِ"[4]، كما قال عمر ﷺ.

وقال الخطابي: (قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ- حِكَايَةً عَنْ إِبْرَاهِيمَ ﷺ: {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا}[مريم: ٤٨]، اعْتَصَمَ خَلِيلُ اللَّهِ -

---

[1] الجامع للبخاري (٤/١٥) برقم (٢٧٨٦)، والمسند لمسلم واللفظ له (٣/١٥٠٣) برقم (١٨٨٨).
قال النووي في المنهاج (١٣/٣٤): (لَيْسَ الْمُرَادُ نَفْسَ الشِّعْبِ خُصُوصًا، بَلِ الْمُرَادُ الِانْفِرَادُ وَالِاعْتِزَالُ، وَذَكَرَ الشِّعْبَ مِثَالًا؛ لِأَنَّهُ خَالٍ عَنِ النَّاسِ غَالِبًا).

[2] إسناده صحيح: السنن لأبي داود (٤/١٠١) برقم (٤٢٦٢) عن أبي موسى الأشعري ﷺ.

[3] لسان العرب لابن منظور (٦/ ٥٤).

[4] المصنف لابن أبي شيبة (٧/ ٩٨) برقم (٣٤٤٧٧).

سُبْحَانَهُ- بِالْعُزْلَةِ، وَاسْتَظْهَرَ بِهَا عَلَى قَوْمِهِ عِنْدَ جَفَائِهِمْ إِيَّاهُ، وَخُذْلَانِهِمْ لَهُ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَمُعَانَدَةِ الْحَقِّ، وَكَفَاهُ اللَّهُ – تَعَالَى- أَمْرَهُمْ، وَعَصَمَهُ مِنْ شَرِّهِمْ، وَأَثَابَهُ عَلَى ذَلِكَ بِالْمَوْهِبَةِ الْجَزِيلَةِ، وَعَوَّضَهُ النُّصْرَةَ بِالذُّرِّيَّةِ الطَّيِّبَةِ، قَالَ اللَّهُ – وَهُوَ أَجَلُّ قَائِلٍ-: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا}[مريم: ٤٩]...

وَقَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا}[الكهف: ١٦]، وَكَانُوا قَوْمًا كَرِهُوا الْمَقَامَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِ الْبَاطِلِ، فَفَرُّوا مِنْ فِتْنَةِ الْكُفْرِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَصَرَفَ اللَّهُ – تَعَالَى- عَنْهُمْ شَرَّهُمْ وَدَفَعَ عَنْهُمْ بَأْسَهُمْ، وَرَفَعَ فِي الصَّالِحِينَ ذِكْرَهُمْ.

وَقَدِ اعْتَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ قُرَيْشًا لَمَّا جَفَوْهُ وَآذَوْهُ، فَدَخَلَ الشِّعْبَ، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِاعْتِزَالِهِمْ وَالْهِجْرَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلَى الْمَدِينَةِ مُهَاجِرًا حَتَّى تَلَاحَقَ بِهِ أَصْحَابُهُ وَتَوَافَوْا بِهَا مَعَهُ، فَأَعْلَى اللَّهُ كَلِمَتَهُ وَتَوَلَّى إِعْزَازَهُ وَنُصْرَتَهُ ﷺ.

وَالْعُزْلَةُ عِنْدَ الْفِتْنَةِ سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ وَعِصْمَةُ الْأَوْلِيَاءِ وَسِيرَةُ الْحُكَمَاءِ الْأَلِبَّاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ، فَلَا أَعْلَمُ لِمَنْ عَابَهَا عُذْرًا، لَاسِيَّمَا فِي هَذَا الزَّمَانِ الْقَلِيلِ خَيْرُهُ، الْبَكِيءُ دَرُّهُ، وَبِاللَّهِ نَسْتَعِيذُ مِنْ شَرِّهِ وَرَيْبِهِ)[1] .

---

[1] العزلة للخطابي (٨).

العلامة الرابعة

"الإعراض"

قال ابن الأثير: (أَعْرَضَ عَنِ الشَّيْءِ إذَا وَلاَّهُ ظَهْرَهُ)[1].

وقال ابن منظور: (الإِعْرَاضُ عَنِ الشَّيْءِ: الْصَدُّ عَنْهُ)[2].

والإعراض عن المشركين، من مأمورات الشريعة، ومنهج الأنبياء والمرسلين، كما...

أ- قال الله ﷻ: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}[الأنعام: ١٠٦].

قلت: جاءت المقابلة بين الاتباع والإعراض، للدلالة على أن كمال الأول في تحقيق الثاني، ولتقول للموحد: ما دمت متبعاً لما أمرك الله ﷻ به، فحق عليك أن تعرض عن الشرك والمشركين، وهنا يبين موقف المنافقين المسارعين في الكفار، أو المخالطين لهم، أو متبعي منهجهم، فهؤلاء ما أعرضوا عن المشركين ذاتاً ومنهجاً، فكيف يكونوا مؤمنين؟!

ولا يفهم من هذا تركهم على ما هم عليه، بل الموحد مأمور به في الحالين:

الأول- حال الاستضعاف، وفيها يكون الإعراض - بالمعنى اللغوي- عن المشركين، وهو حد ليس دونه حد؛ لحفظ الديانة، والسلامة من الفتنة.

الثاني- حال القوة، وفيها يكون جهادهم، ودفعهم للإيمان بالله ﷻ، وهو من الإعراض عن قبول وجودهم أو تقبل دينهم أو منهجهم.

ب- وقال الله ﷻ: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}[الأعراف: ١٩٩].

قال الطبري: (إِنَّهُ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُعْرِضَ عَمَّنْ جَهِلَ، وَذَلِكَ وَإِنْ كَانَ أَمْرًا مِنَ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ، فَإِنَّهُ تَأْدِيبٌ مِنْهُ - عَزَّ ذِكْرُهُ- لِخَلْقِهِ بِاحْتِمَالِ مَنْ ظَلَمَهُمْ أَوِ اعْتَدَى عَلَيْهِمْ، لَا

---

[1] النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٣/٢١٥).

[2] لسان العرب لابن منظور (٧/١٨٢).

بِالْإِعْرَاضِ عَمَّنْ جَهَلَ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ اللَّهِ، وَلَا بِالصَّفْحِ عَمَّنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَجَهَلَ وَحْدَانِيَّتَهُ، وَهُوَ لِلْمُسْلِمِينَ حَرْبٌ)[١].

وقال ابن عطية: ({وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ} حُكْمُ مُتَرَتِّبٌ مُحْكَمٌ مُسْتَمِرٌّ فِي النَّاسِ مَا بَقُوا، هَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ مِنَ الْعُلَمَاءِ)[٢].

وقال ابن القيم: (أَمَرَ نَبِيَّهُ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، فَقَالَ: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}، وَأَثْنَى عَلَى عِبَادِهِ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَمُتَارَكَتِهِمْ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}[القصص: ٥٥])[٣].

قلت: هذا إعراض تحقير واستخفاف، حين يغلب الجهل ويطغى، ويغيب العلم أو يفنى، فلا يعد في الجاهل محلاً للذكرى، فيكون الإعراض عنه من أرفع وسائل تعليمه، وأنجع وسائل تأديبه، كما...

ج- قال الله ﷻ: {فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}[النجم: ٢٩].

د- وقال الله ﷻ: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}[الحجر: ٩٤].

قال الرازي: (أَيْ: لَا تُبَالِ بِهِمْ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى لَوْمِهِمْ إِيَّاكَ عَلَى إِظْهَارِ الدَّعْوَةِ)[٤].

قلت: إن كان الأمر لما هم فيه من الشرك، فنعم يُعرِض عنهم الموحد غير عابئ بهم، وإن تعلق بكيدهم، فالإعراض عنهم هو بغير المبالاة بما ينوون فعله، فكأنه إعراض عن قوتهم وقدرتهم الفاعلة إن كانت منهم استقلالاً، أو من غيرهم استمداداً.

هـ- وقال الله ﷻ: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[الأنعام: ٦٨].

قال الطبري: (يَقُولُ: فَصُدَّ عَنْهُمْ بِوَجْهِكَ، وَقُمْ عَنْهُمْ، وَلَا تَجْلِسْ مَعَهُمْ)[٥].

---

[١] جامع البيان للطبري (١٠/ ٦٤٥).

[٢] المحرر الوجيز لابن عطية (٢/٤٩١).

[٣] مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٥٣).

[٤] التفسير الكبير للرازي (١٩/ ١٦٥).

[٥] جامع البيان للطبري (٩/٣١٣).

قلت: هي آيات تتحدث عن مجتمع المنافقين المخالط للصف المسلم، فكان في الأمر بالإعراض عنهم مجموعة فوائد، منها:

الأولى– تمييزهم عن الصف المسلم، بالنأي عنهم؛ لئلا يتوهم جاهل حالنا وحالهم أننا سواء.

الثانية– الاستغناء عنهم بالموحدين.

فكأنه يقول لأتباعه المجتمعين معه: أنتم المسلمون الذين أُمرنا بتصبير أنفسنا معهم، وهؤلاء هم الذي أُمرنا بالإعراض عنهم، مصداقاً وتطبيقاً منهجياً لقوله ﷺ: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}[الكهف: ٢٨].

العلامة الخامسة

"الإغاظة"

قال الراغب الأصفهاني: (الْغَيْظُ: أَشَدُّ غَضَبٍ)[1].

وقال ابن منظور: (الغيْظُ: الغضَبُ، وَقِيلَ: الْغَيْظُ غَضَبٌ كَامِنٌ لِلْعَاجِزِ، وَقِيلَ: هُوَ أَشَدُّ مِنَ الغضَبِ، وَقِيلَ: هُوَ سَوْرَتُهُ وأَوَّلُه)[2].

وقد تعبدنا الله ﷻ بإغاظة الكافرين وإغضابهم، كما...

١- قال الله ﷻ: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ٢٩].

قال الطبري: (دَلَّ ذَلِكَ عَلَى مَتْرُوكٍ مِنَ الْكَلَامِ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَعَلَ ذَلِكَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ؛ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ)[3].

وقال البغوي: (أَيْ: إِنَّمَا كَثَّرَهُمْ وَقَوَّاهُمْ؛ لِيَكُونُوا غَيْظًا لِلْكَافِرِينَ)[4].

وقال ابن القيم: (كُلَّمَا عَلَتْ مَرْتَبَتُهُ – أي: العبد- أَجْلَبَ عَلَيْهِ الْعَدُوُّ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ، وَظَاهَرَ عَلَيْهِ بِجُنْدِهِ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِ حِزْبَهُ وَأَهْلَهُ بِأَنْوَاعِ التَّسْلِيطِ، وَهَذِهِ الْعُقْبَةُ – أي تسلط جند الشيطان- لَا حِيلَةَ لَهُ فِي التَّخَلُّصِ مِنْهَا، فَإِنَّهُ كُلَّمَا جَدَّ فِي الِاسْتِقَامَةِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَالْقِيَامِ لَهُ بِأَمْرِهِ، جَدَّ الْعَدُوُّ فِي إِغْرَاءِ السُّفَهَاءِ بِهِ، فَهُوَ فِي هَذِهِ الْعُقْبَةِ قَدْ لَبِسَ لَأْمَةَ الْحَرْبِ،

[1] المفردات للراغب الأصفهاني (٦١٩).

[2] لسان العرب لابن منظور (٧/٤٥٠).

[3] جامع البيان للطبري (٢١/٣٣٢).

[4] معالم التنزيل للبغوي (٧/٣٢٧).

وَأَخَذَ فِي مُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ، فَعُبُودِيَّتُهُ فِيهَا عُبُودِيَّةُ خَوَاصِّ الْعَارِفِينَ، وَهِيَ تُسَمَّى عُبُودِيَّةَ الْمُرَاغَمَةِ، وَلَا يَنْتَبِهُ لَهَا إِلَّا أُولُو الْبَصَائِرِ التَّامَّةِ، وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ مُرَاغَمَةِ وَلِيِّهِ لِعَدُوِّهِ، وَإِغَاظَتِهِ لَهُ، وَقَدْ أَشَارَ – سُبْحَانَهُ– إِلَى هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ: أَحَدُهَا: قَوْلُهُ: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً} [النساء: ١٠٠]، سَمَّى الْمُهَاجِرَ الَّذِي يُهَاجِرُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ مُرَاغِمًا يُرَاغِمُ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّهُ، وَاللَّهُ يُحِبُّ مِنْ وَلِيِّهِ مُرَاغَمَةَ عَدُوِّهِ، وَإِغَاظَتَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}[التوبة: ١٢٠]، وَقَالَ تَعَالَى فِي مِثْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَتْبَاعِهِ: {وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}، فَمُغَايَظَةُ الْكُفَّارِ غَايَةٌ مَحْبُوبَةٌ لِلرَّبِّ مَطْلُوبَةٌ لَهُ، فَمُوَافَقَتُهُ فِيهَا مِنْ كَمَالِ الْعُبُودِيَّةِ، وَشَرَعَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُصَلِّي إِذَا سَهَا فِي صَلَاتِهِ سَجْدَتَيْنِ... "تَرْغِيمًا لِلشَّيْطَانِ"[1]، وَسَمَّاهَا الْمُرْغِمَتَيْنِ[2].

فَمَنْ تَعَبَّدَ اللَّهَ بِمُرَاغَمَةِ عَدُوِّهِ، فَقَدْ أَخَذَ مِنَ الصِّدِّيقِيَّةِ بِسَهْمٍ وَافِرٍ، وَعَلَى قَدْرِ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ وَمُوَالَاتِهِ وَمُعَادَاتِهِ لِعَدُوِّهِ يَكُونُ نَصِيبُهُ مِنْ هَذِهِ الْمُرَاغَمَةِ؛ وَلِأَجْلِ هَذِهِ الْمُرَاغَمَةِ حُمِدَ التَّبَخْتُرُ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، وَالْخُيَلَاءُ وَالتَّبَخْتُرُ عِنْدَ صَدَقَةِ السِّرِّ، حَيْثُ لَا يَرَاهُ إِلَّا اللَّهُ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ إِرْغَامِ الْعَدُوِّ، وَبَذْلِ مَحْبُوبِهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ لِلَّهِ ﷻ)[3].

قلت: ضرب الله ﷻ مثلاً، وذكر صفة القوم الذين يحبهم في الكتب السالفة؛ ليكونوا حجة على أهل الكتاب، وليتعرفوا على أولئك الموصوفين بسيماهم الدالة عليهم، وليقتلوهم حنقاً وكمداً حين يرونهم في عبادتهم ومعاملتهم وقتالهم كما وُصفوا في كتبهم، ولقد كان كل هذا، والسيرة تدل على فعل رسول الله ﷺ والصحابة ﷺ معه – ومن بعده– باليهود والنصارى،

---

[1] المسند الصحيح لمسلم (١/٤٠٠) برقم (٥٧١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

[2] إسناده صحيح: السنن لأبي داود (١/٢٦٩) برقم (١٠٢٥) عن ابن عباس –رضي الله عنهما–.

[3] مدارج السالكين لابن القيم (١/٢٤١).

كيف أجلوهم من ديارهم، وأخرجوهم من صياصيهم، وكيف قتلوا مقاتلهم وسبوا نساءهم وأولادهم، وغنموا أموالهم، وفرضوا الجزية والصغار عليهم.

أما قريش وأمثالها من العرب، فحديثهم عجب، فقد اغتاظوا من استهداف القافلة، فخرجوا لبدر، فهُزموا وخسروا المعركة وأخذت القافلة وأضعافها غنيمة، ثم خرجوا لأحد، فما حققوا نصراً ولا أعادوا مجداً، ثم الأحزاب عادوا منها يجرون ذيول العار، وهكذا دواليك، إلى أن وطئت سنابك خيل التوحيد معاقلهم، فمنهم من أغلق عليه بابه، ومنهم من فر إلى الجبال، ومنهم من لم يجد بداً من التسليم والإذعان.

٢- وقال الله ﷻ: {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}[التوبة: ١٢٠].

قال الجصاص: (فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ وَطْءَ دِيَارِهِمْ بِمَنْزِلَةِ النَّيْلِ مِنْهُمْ، وَهُوَ قَتْلُهُمْ أَوْ أَخْذُ أَمْوَالِهِمْ أَوْ إخْرَاجُهُمْ عَنْ دِيَارِهِمْ، هَذَا كُلُّهُ نَيْلٌ مِنْهُمْ، وَقَدْ سَوَّى بَيْنَ وَطْءِ مَوْضِعٍ يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَبَيْنَ النَّيْلِ مِنْهُمْ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ وَطْءَ دِيَارِهِمْ - وَهُوَ الَّذِي يَغِيظُهُمْ وَيُدْخِلُ الذُّلَّ عَلَيْهِمْ- هُوَ بِمَنْزِلَةِ نَيْلِ الْغَنِيمَةِ وَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ)[١].

وقال أبو حيان: (وَأَطْلَقَ مَوْطِئًا إِذَا كَانَ مَكَانًا لِيَعُمَّ كُلَّ موطِىءٍ يَغِيظُ وَطْؤُهُ الْكُفَّارَ، سَوَاءٌ كَانَ مِنْ أَمْكِنَةِ الْكُفَّارِ، أَمْ مِنْ أَمْكِنَةِ الْمُسْلِمِينَ، إِذَا كَانَ فِي سُلُوكِهِ غَيْظُهُمْ)[٢].

وقال الألوسي: (أَيْ: يُغْضِبُهُمْ وَيُضَيِّقُ صُدُورَهُمْ)[٣].

وقال ابن عاشور: (الْوَطْءُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: هُوَ الدَّوْسُ بِحَوَافِرِ الْخَيْلِ وَأَخْفَافِ الْإِبِلِ وَأَرْجُلِ الْغُزَاةِ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ، فَإِنَّهُ الَّذِي يَغِيظُ الْعَدُوَّ وَيُغْضِبُهُ؛ لِأَنَّهُ يَأْنَفُ مِنْ وَطْءِ أَرْضِهِ بِالْجَيْشِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْوَطْءُ هُنَا مُسْتَعَارًا لِإِذْلَالِ الْعَدُوِّ وَغَلَبَتِهِ وَإِبَادَتِهِ)[١].

---

[١] أحكام القرآن للجصاص (٣٧٢/٤).

[٢] البحر المحيط لأبي حيان (٥٢٣/٥).

[٣] روح المعاني للألوسي (٤٤/٦).

قلت: ليس إرادة الغزو أو التلميح به بأقل من الغزو نفسه، وانظر لحالين يتجلى لك كيف أغاظ فعل رسول الله ﷺ الكفار، وذلك حين وطيء جيشه أرض عدوه، أو حين خاطب الملوك، بأسلوب المعتز ومنطق القادر...

الأول- في عمرة القضاء، ثم فتح مكة، أو في غزوة مؤتة، ثم تبوك.

والثاني- حين خاطب كسرى، مقدماً اسمه الشريف ﷺ على اسم غيره، تعززاً على الكافر، وخروجاً عن المألوف في عالم السياسة، وتعالياً عن الواقع والظروف والملابسات، وإعادةً للأمر إلى نصابه، فنحن الأعلى وهم الأذل، وكيف ينهى المؤمنون عن التقدم بين يدي الله ﷻ ورسوله ﷺ بقرآن يتلى، ثم يجيز لنفسه أن يقدم اسماً على اسمه؟!

إنه المحال وضرب الخيال، ورسول الله ﷺ عند الله ﷻ وعند نفسه أكبر من أن يتزلف لملك، أو يتصنع لعظيم، وهو يعلم يقيناً أن ملك أمته سيبلغ موضع قدمي المخاطَبين، بأمر الله ﷻ ثم بالموحدين المجاهدين.

٣- وقال الله ﷻ: {هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}[آل عمران: ١١٩].

قال البغوي: (]وذلك[لِمَا يَرَوْنَ مِنَ ائْتِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ وَاجْتِمَاعِ كَلِمَتِهِمْ، وَعَضُّ الْأَنَامِلِ عِبَارَةٌ عَنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ، وَهَذَا مِنْ مَجَازِ الْأَمْثَالِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ عَضٌّ)[٢].

وقال الرازي: ({قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ} وَهُوَ دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يَزْدَادَ غَيْظُهُمْ حَتَّى يَهْلَكُوا بِهِ، وَالْمُرَادُ مِنَ ازْدِيَادِ الْغَيْظِ: ازْدِيَادُ مَا يُوجِبُ لَهُمْ ذَلِكَ الْغَيْظَ مِنْ قُوَّةِ الْإِسْلَامِ وَعِزَّةِ أَهْلِهِ، وَمَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الذُّلِّ وَالْخِزْيِ)[٣].

وقال الألوسي: (قِيلَ: الْمُرَادُ حَدِّثْ نَفْسَكَ بِإِذْلَالِهِمْ وَإِعْزَازِ الْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ قَوْلٌ، وَقِيلَ: هُوَ خِطَابٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَتَحْرِيضٌ لَهُمْ عَلَى عَدَاوَتِهِمْ وَحَثٌّ لَهُمْ عَلَى خِطَابِهِمْ

---

[١] التحرير والتنوير لابن عاشور (٥٦/١١).

[٢] معالم التنزيل للبغوي (٢/ ٩٦)، والزيادة لضرورة الوصل.

[٣] التفسير الكبير للرازي (٣٤٢/٨).

خِطَابَ الْخُصَمَاءِ، فَإِنَّهُ لَا أَقْطَعَ لِلْمَحَبَّةِ مِنْ جِرَاحَةِ اللِّسَانِ، فَالْمَقْصُودُ عَلَى هَذَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ} مُجَرَّدُ الْخِطَابِ بِمَا يُكْرِهُونَهُ، وَالصَّحِيحُ الَّذِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ كَلِمَتُهُمْ أَنَّهُ دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ)[١].

وقال السعدي: (أَيْ: سَتَرَوْنَ مِنْ عِزِّ الْإِسْلَامِ وَذُلِّ الْكُفْرِ مَا يَسُوءُكُمْ، وَتَمُوتُونَ بِغَيْظِكُمْ)[٢].

قلت: فيه رأي ورؤية، أما الرأي فإنكم تحبونهم وتودوا في أنفسكم فيهم حسناً، وهذا محض الخطأ، فليسوا يرونكم كما ترونهم، بل لا يرونكم إلا أعداءً، ولكنهم يخدعوكم في المظهر أو المخبر، فإياكم وإياهم، أظهروا لهم ما يغيظهم، وهي الرؤية التي يجب أن يرونها منكم، فلا يقع ناظرهم إلا على ما يغيظهم، من جهة اجتماع المسلمين وتآخيهم، ومن جهة معاملتكم معهم جهاداً وعداوةً وبغضاً وبراءةً، وجزيةً وصغاراً.

٤- وقال الله ﷻ حكاية عن فرعون، قوله عن أتباع موسى ﵇: {إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ} [الشعراء: ٥٤، ٥٥].

قال ابن عطية: (يُرِيدُ: بِخِلَافِهِمُ الْأَمْرَ وَبِأَخْذِهِمُ الْأَمْوَالَ عَارِيَةً وَهُرُوبِهِمُ مِنْهُمُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ)[٣].

وقال الرازي: (يَعْنِي: يَفْعَلُونَ أَفْعَالًا تَغِيظُنَا وَتُضَيِّقُ صُدُورَنَا، وَاخْتَلَفُوا فِي تِلْكَ الْأَفْعَالِ عَلَى وُجُوهٍ: أَحَدُهَا: مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَمْرِ الْحُلِيِّ وَغَيْرِهِ.

وَثَانِيهَا: خُرُوجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ عُبُودِيَّةِ فِرْعَوْنَ وَاسْتِقْلَالُهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ.

وَثَالِثُهَا: مُخَالَفَتُهُمْ لَهُمْ فِي الدِّينِ وَخُرُوجُهُمْ عَلَيْهِمْ.

وَرَابِعُهَا: لَيْسَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَتَّخِذُوا فِرْعَوْنَ إِلَهًا)[٤].

وقال القرطبي: (وَالْغَيْظُ: الْغَضَبُ... أَيْ: غَاظُونَا بِخُرُوجِهِمْ مِنْ غَيْرِ إِذْنٍ)[٥].

---

[١] روح المعاني للألوسي (٢/٢٥٥، ٢٥٦).

[٢] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٩٧٣/١).

[٣] المحرر الوجيز لابن عطية (٢٣٢/٤).

[٤] التفسير الكبير للرازي (٥٠٦/٢٤).

[٥] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠١/١٣) باختصار.

وقال أبو حيان: (الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ لِقِلَّتِهِمْ لَا يُبَالِي بِهِمْ وَلَا تُتَوَقَّعُ غَفْلَتُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ أَفْعَالًا تَغِيظُنَا وَتَضِيقُ صُدُورُنَا، وَنَحْنُ قَوْمٌ مِنْ عَادَتِنَا التَّيَقُّظُ وَالْحَذَرُ وَاسْتِعْمَالُ الْحَزْمِ فِي الْأُمُورِ، فَإِذَا خَرَجَ عَلَيْنَا خَارِجٌ سَارَعْنَا إِلَى حَسْمِ يَسَارِهِ، وَهَذِهِ مَعَاذِيرُ اعْتَذَرَ بِهَا إِلَى أَهْلِ الْمَدَائِنِ، لِئَلَّا يُظَنَّ بِهِ مَا يَكْسِرُ مِنْ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ)[1].

وقال ابن كثير: (أَيْ: كُلَّ وَقْتٍ يَصِلُ لَنَا مِنْهُمْ مَا يَغِيظُنَا)[2].

قلت: يغيظون فرعون، بأحد وجهين:

الأول– أنهم لم يتبعوا أمره، أو خرجوا عن طاعته بعد أن كانوا فيها، وهذه من الفراعنة عجيبة، فإنهم ما اتبعوا أمر ربهم، الذي هو خالقهم، ثم يُدينون الناس باتباع أمرهم، وهم لا يملكون لهم نفعاً ولا ضراً في الدنيا فضلاً عن الآخرة، ولمَّا لم يذعن الناس لدينهم جعلوا العقوبات كأنها مكرمات، فقتل طائفة واستحيى طائفة؛ لتموت كمداً على الطائفة الأولى أو تحت سياط التعذيب، أو في أعمال السخرة.

الثاني– أنهم فعلوا أفعالاً تغيظه، كما حدثنا القرآن عن قتل موسى عليه السلام لأحد أتباع فرعون، أو إيمان السحرة، أو أخذ بني إسرائيل لحلي المصريين، وغير ذلك من الأفعال التي غاظته، والتي تشبه فعل قوم آخرين أغاظوا عدوهم فتحزبوا على حربهم، كما...

٥– قال الله ﷻ: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}[الأحزاب: ٢٥].

قال الرازي: (أَيْ: مَعَ غَيْظِهِمْ لَمْ يَشْفُوا صَدْرًا، وَلَمْ يُحَقِّقُوا أَمْرًا)[3].

وقال ابن كثير: (رَدَّهُمْ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ بِغَيْظِهِمْ وحَنَقهم، لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا لَا فِي الدُّنْيَا، مِمَّا كَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الظَّفَرِ وَالْمَغْنَمِ، وَلَا فِي الْآخِرَةِ بِمَا تَحَمَّلُوهُ مِنَ الْآثَامِ فِي مُبَارَزَةِ الرَّسُولِ –

[1] البحر المحيط لأبي حيان (١٥٧/٨) باختصار.
[2] تفسير القرآن لابن كثير (١٤٣/٦).
[3] التفسير الكبير للرازي (١٦٤/٢٥).

صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- بِالْعَدَاوَةِ، وَهَمِّهِمْ بِقَتْلِهِ، وَاسْتِئْصَالِ جَيْشِهِ، وَمَنْ هَمَّ بِشَيْءٍ وَصَدَقَ هَمَّهُ بِفِعْلِهِ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَفَاعِلِهِ)[1].

وقال ابن عاشور: (الْغَيْظُ: الْحَنَقُ وَالْغَضَبُ، وَكَانَ غَضَبُهُمْ عَظِيمًا يُنَاسِبُ حَالَ خَيْبَتِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ تَجَشَّمُوا كُلْفَةَ التَّجَمُّعِ وَالْإِنْفَاقِ وَطُولِ الْمُكْثِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ بِلَا طَائِلٍ، وَخَابَتْ آمَالُهُمْ فِي فَتْحِ الْمَدِينَةِ وَأَكْلِ ثِمَارِهَا وَإِفْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهَا مُنَازَلَةُ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ، ثُمَّ غَاظَهُمْ مَا لَحِقَهُمْ مِنَ النَّكْبَةِ بِالرِّيحِ وَالِانْهِزَامِ الَّذِي لَمْ يَعْرِفُوا سَبَبَهُ)[2].

قلت: إن عُلل خروجهم رأساً واجتماعهم أساساً بأفعال الموحدين التي أغاظتهم، ثم عجزوا عن شفاء صدورهم بما زاد من غيظهم وحنقهم حين عجزوا عن ذلك، كان هذا كافياً لإعلان النصر عليهم، وإن اقتصر الغيظ على ما حل بهم جراء انفضاض عسكرهم، بعد قرب ظهور تباشير النصر، كان ذلك مدعاة لإثارة الغيظ أضعافاً مضاعفةً، كما لو لم يخرجوا بدياً، ولكنهم منوا أنفسهم وأحباشهم وأحلافهم بالظفر في ساعة، فلما رجعوا والخيبة تكتنفهم، ازدادوا غيظاً على غيظهم، وكان ذلك أشد على أنفسهم من معاينة الهزيمة، فإنها على الأقل أحد خياري الحرب، أما رجوعهم بعد الوعود والأماني فمعرة ما استطاعوا منها فكاكاً.

* ومن مظاهرها:

أ- في قول الله ﷻ: {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ}[الأنبياء: ٣٦].

قال ابن عاشور: (كَلَامُهُمْ مَسُوقٌ مَسَاقَ الْغَيْظِ وَالْغَضَبِ)[3].

ب- في قول الله ﷻ: {كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}[العلق: ١٩]، قال الرازي: (كَأَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَهُ بِالسُّجُودِ لِيَزْدَادَ غَيْظُ الْكَافِرِ، كَقَوْلِهِ: {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}[الْفَتْح: ٢٩]، وَالسَّبَبُ الْمُوجِبُ

[1] تفسير القرآن لابن كثير (٦/٣٩٦).

[2] التحرير والتنوير لابن عاشور (٢١/٣١٠).

[3] التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/٦٦) باختصار.

لِازْدِيَادِ الْغَيْظِ هُوَ أَنَّ الْكَافِرَ كَانَ يَمْنَعُهُ مِنَ الْقِيَامِ، فَيَكُونُ غَيْظُهُ وَغَضَبُهُ عِنْدَ مُشَاهَدَةِ السُّجُودِ أَتَمَّ)[١].

ب- وفي غزوة أحد (قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلاَءِ، فَقَدْ قُتِلُوا، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ)[٢].

ج- و(عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَهْدَى عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ فِي هَدَايَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَمَلًا كَانَ لِأَبِي جَهْلٍ، فِي رَأْسِهِ بُرَةُ فِضَّةٍ، يَغِيظُ بِذَلِكَ الْمُشْرِكِينَ)[٣].

قال الخطابي: (مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا الجَمَلَ كَانَ مَعْرُوفًا بِأَبِي جَهْلٍ، فَحَازَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَلْبِهِ، فَكَانَ يُغِيظُهُمْ أَنْ يَرَوْهُ فِي يَدِهِ، وَصَاحِبَهُ قَتِيلٌ سَلِيبٌ)[٤].

د- وفي قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه (قَالَ فَبَيْنَا أَهْلِ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ قَمْرَاءَ إِضْحِيَانٍ، إِذْ ضُرِبَ عَلَى أَسْمِخَتِهِمْ، فَمَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ أَحَدٌ. وَامْرَأَتَانِ مِنْهُمْ تَدْعُوَانِ إِسَافًا، وَنَائِلَةَ، قَالَ: فَأَتَتَا عَلَيَّ فِي طَوَافِهِمَا، فَقُلْتُ: أَنْكِحَا أَحَدَهُمَا الْأُخْرَى، قَالَ: فَمَا تَنَاهَتَا عَنْ قَوْلِهِمَا، قَالَ: فَأَتَتَا عَلَيَّ، فَقُلْتُ: هَنٌ مِثْلُ الْخَشَبَةِ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَكْنِي، فَانْطَلَقَتَا تُوَلْوِلَانِ)[٥].

قال النووي: (أَرَادَ بِذَلِكَ سَبَّ إِسَافَ وَنَائِلَةَ وَغَيْظَ الْكُفَّارِ)[٦].

---

[١] التفسير الكبير للرازي (٣٢/٢٢٧).

[٢] الجامع للبخاري (٤/٦٥) برقم (٣٠٣٩) عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

[٣] إسناده حسن: السنن لأبي داود (٢/١٤٥) برقم (١٧٤٩).

[٤] معالم السنن للخطابي (٢/١٥٢).

[٥] المسند لمسلم (٤/١٩١٩) برقم (٢٤٧٣) عن أبي ذر رضي الله عنه.

[٦] المنهاج للنووي (١٦/٢٩).

العلامة السادسة

"الإغلاظ"

قال ابن منظور: (الْغِلَظُ: ضِدُّ الرِّقَّةِ فِي الْخَلْقِ وَالطَّبْعِ وَالفِعْلِ وَالْمَنْطِقِ وَالْعَيْشِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ)[1].

والموحد مأمور بالإغلاظ – لا بالرقة واللين– على الكافرين، قولاً وفعلاً، كما...

١– قال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}[التوبة: ١٢٣].

قال الطبري: (أَيْ: مِنْكُمْ شِدَّةً عَلَيْهِمْ)[2].

وقال الجصاص: (أَمَرَ بِالْغِلْظَةِ عَلَى الْكُفَّارِ الْذِينَ أُمِرْنَا بِقِتَالِهِمْ فِي الْقَوْلِ وَالْمُنَاظَرَةِ وَالرِّسَالَةِ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ يُوقِعُ الْمَهَابَةَ لَنَا فِي صُدُورِهِمْ وَالرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَيَسْتَشْعِرُونَ مِنَا بِهِ شِدَّةَ الِاسْتِبْصَارِ فِي الدِّينِ، وَالْجِدِّ فِي قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ، وَمَتَى أَظْهَرُوا لَهُمْ اللِّينَ فِي الْقَوْلِ وَالْمُحَاوَرَةِ اسْتَجْرَءُوا عَلَيْهِمْ وَطَمِعُوا فِيهِمْ)[3].

وقال ابن عطية: (مَعْنَى الْكَلَامِ: وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ خُشُونَةً وَبَأْسًا)[4].

وقال القرطبي: (أَيْ: شِدَّةً وَقُوَّةً وَحَمِيَّةً)[5].

وقال الألوسي: (أَيْ: قَهْرًا وَشِدَّةً)[6].

وقال سعد بن حمد بن عتيق: (من أعظم الواجبات: بيان ما أوجبه الله من جهاد المشركين، ومعاداة الكافرين، والحرص على مراغمتهم، وإدخال الحزن عليهم، وإيصال المكروه إليهم، أخذا بقوله تعالى...)[1] وذكر الآية.

---

[1] لسان العرب لابن منظور (٧/٤٤٩).

[2] جامع البيان للطبري (١٢/ ٨٧).

[3] أحكام القرآن للجصاص (٤/ ٣٧٤).

[4] المحرر الوجيز لابن عطية (٣/ ٩٧).

[5] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٨/ ٢٩٨).

[6] روح المعاني للألوسي (٦/ ٥٣).

قلت: إذا كان القتال في ذاته يحمل من الغلظة ما تنبئ به فلول السيوف، فكيف والأمر الرباني أفردها بالذكر، وأمر بها؟

إن هذا لأعظم دليل على مزيد العناية والاهتمام،؛ وليعلم المقاتل أنه يتعبد ربه بمراغمة الكافر ومقاتلته وإغاظته والإغلاظ عليه بكل مستطاع، وذلك ليؤمنوا – بقناعة الرؤية والتجربة– أن ليس في قلب الموحد للكافرين ذرة رحمة أو رأفة، كفعل رسول الله ﷺ بالعرنيين، أو كفعل الصحابة ﷺ بالمرتدين.

٢– وقال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[التوبة: ٧٣/ التحريم: ٩].

قال ابن عباس –رضي الله عنهما–: (يُرِيدُ شِدَّةَ الِانْتِهَارِ لَهُمْ، وَالنَّظَرِ بِالْبُغْضَةِ وَالْمَقْتِ)[٢].

وقال الطبري: (يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَاشْدُدْ عَلَيْهِمْ بِالْجِهَادِ وَالْقِتَالِ وَالْإِرْهَابِ)[٣].

وقال الجصاص: (فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى وُجُوبِ الْغِلْظَةِ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَنَهْيٌ عَنْ مُقَارَنَتِهِمْ وَمُعَاشَرَتِهِمْ)[٤].

وقال أبو حيان: (الْغِلَظُ: ضِدُّ الرِّقَّةِ، وَالْمُرَادُ خُشُونَةُ الْكَلَامِ وَتَعْجِيلُ الِانْتِقَامِ)[٥].

وقال الشوكاني: (أَيْ: شَدِّدْ عَلَيْهِمْ فِي الدَّعْوَةِ، وَاسْتَعْمِلِ الْخُشُونَةَ فِي أَمْرِهِمْ بِالشَّرَائِعِ)[٦].

وقال ابن عاشور: (مَعْنَى أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ بِحُصُولِ مَا يَجِدُهُ الْكَافِرُونَ مِنْ غِلْظَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ هُوَ أَمْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَكُونُوا أَشِدَّاءَ فِي قِتَالِهِمْ، وَهَذِهِ مُبَالَغَةٌ فِي الْأَمْرِ بِالشِّدَّةِ؛ لِأَنَّهُ أُمِرَ لَهُمْ بِأَنْ يَجِدَ الْكُفَّارُ فِيهِمُ الشِّدَّةَ، وَذَلِكَ الْوِجْدَانُ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا إِذَا كَانَتِ الْغِلْظَةُ بِحَيْثُ تَظْهَرُ وَتَنَالُ الْعَدُوَّ فَيُحِسُّ بِهَا)[٧].

---

[١] الدرر السنية (١٤/٣٥٩) باختصار.

[٢] زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٢٧٨).

[٣] جامع البيان للطبري (١١/ ٥٦٧).

[٤] أحكام القرآن للجصاص (٥/ ٣٦٥).

[٥] البحر المحيط لأبي حيان (٥/ ٤٦٤).

[٦] فتح القدير للشوكاني (٥/ ٣٠٤).

[٧] التحرير والتنوير لابن عاشور (١١/ ٦٣).

قلت: الأمر بالإغلاظ قولاً وفعلاً ظاهر في الكافرين، مظهري الكفر، أما مبطنيه، فما داموا قد جُمعوا مع الكافرين، فيصعب حمل الإغلاظ على القول فقط، بل يجب الإغلاظ عليهم كما هو على الكافرين سواءً بسواء؛ لاستوائهم في الكفر، بل زيادة، فكيف يكون الإغلاظ عليهم، وهم لا يقاتَلون أساساً؟

قلنا: هذا - والله أعلم- تمهيد لقتالهم، وتهديد به، كما قال ﷻ: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا}[الأحزاب: ٦٠،٦١].

فعلق الحكم بشرط فعلهم، أي: لئن لم تنتهوا أيها المنافقون فسترون من القتال والإغلاظ فيه ما رأيتم من قتالنا للكفار وأشد، فلا تمتنعوا بظاهر إسلامكم فإنه لن ينفعكم.

وعلى العموم، إن ظهر من المنافقين ما يدل على كفرهم، فيجب أن يعاملوا بما هم أهله، مما سبق وما سيأتي من علامات الملة، قال الجصاص: (يَنْبَغِي أَنْ يُعَامَلَ الْكُفَّارُ بِالْغِلْظَةِ وَالْجَفْوَةِ دُونَ الْمُلَاطَفَةِ وَالْمُلَايَنَةِ)[1].

* ومن صور الإغلاظ القولي:

أ- قال الله ﷻ: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[الأنعام: ٧٤].

ب- وقال الله ﷻ: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[الأنبياء: ٥١- ٥٤].

ج- وقال الله ﷻ حكاية عن موسى ؑ: {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا}[الإسراء: ١٠٢].

د- ما جاء في صلح الحديبية من قول أبي بكر ؓ لعروة بن مسعود: (امْصُصْ بِبَظْرِ اللَّاتِ)[2].

* ومن صوره العملية:

[1] أحكام القرآن للجصاص (٢٨٨، ٢٨٩).

[2] الجامع للبخاري (١٩٣/٣) برقم (٢٧٣١) عن المسور ومروان -رضي الله عنهما-.

أ- قال الله ﷻ: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ}[محمد:٤].

قال الزمخشري: (في هَذِهِ الْعِبَارَةِ مِنَ الْغِلْظَةِ وَالشِّدَّةِ مَا لَيْسَ في لَفْظِ الْقَتْلِ، لِمَا فيهِ مِنْ تَصْوِيرِ الْقَتْلِ بِأَشْنَعِ صُورَةٍ وَهُوَ حَزُّ الْعُنُقِ وَإِطَارَةُ الْعُضْوِ الَّذِي هُوَ رَأْسُ الْبَدَنِ وَعُلُوُّهُ وَأَوْجَهُ أَعْضَائِهِ، وَلَقَدْ زَادَ في هَذِهِ الْغِلْظَةِ في قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}[الأنفال:١٢].

{أَثْخَنْتُمُوهُمْ} أَكْثَرْتُمْ قَتْلَهُمْ وَأَغْلَظْتُمُوهُ... أَوْ أَثْقَلْتُمُوهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ حَتَّى أَذْهَبْتُمْ عَنْهُمُ النُّهُوضَ، {فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} فَأَسَرُوهُمْ)[1].

ب- قتل مقاتلة بني قريظة وكانوا بين الستمائة والسبعمائة، والمكثر يوصلهم لتسعمائة[2]، في ساعة من نهار.

ج- ما فعله رسول الله ﷺ بالعرنيين، وفيه: "أَمَرَ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسُمِرَتْ أَعْيُنُهُمْ، وَأُلْقُوا فِي الْحَرَّةِ، يَسْتَسْقُونَ فَلَا يُسْقَوْنَ"[3].

د- ما فعله الصحابة ﷺ بالمرتدين، ومنه ما فعله أبو بكر ﷺ بالفجاءة، قال ابن كثير: (قَدْ كَانَ الصِّدِّيقُ حَرَّقَ الْفُجَاءَةَ بِالْبَقِيعِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ سَبَبُهُ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَيْهِ فَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، وَسَأَلَ مِنْهُ أَنْ يُجَهِّزَ مَعَهُ جَيْشًا يُقَاتِلُ بِهِ أَهْلَ الرِّدَّةِ، فَجَهَّزَ مَعَهُ جَيْشًا، فَلَمَّا سَارَ جَعَلَ لَا يَمُرُّ بِمُسْلِمٍ وَلَا مُرْتَدٍّ إِلَّا قَتَلَهُ وَأَخَذَ مَالَهُ، فَلَمَّا سَمِعَ الصِّدِّيقُ بَعَثَ وَرَاءَهُ جَيْشًا فَرَدَّهُ، فَلَمَّا أَمْكَنَهُ بَعَثَ بِهِ إِلَى الْبَقِيعِ، فَجُمِعَتْ يَدَاهُ إِلَى قَفَاهُ وَأُلْقِيَ فِي النَّارِ، فَحَرَّقَهُ وَهُوَ مَقْمُوطٌ)[4].

[1] الكشاف للزمخشري (٣١٦/٤) باختصار.
[2] السيرة النبوية لابن هشام (٢٤١/٢).
[3] الجامع للبخاري (٥٦/١) برقم (٢٣٣)، والمسند لمسلم (١٢٩٧/٣) برقم (١٦٧١) عن أنس ﷺ.
[4] البداية والنهاية لابن كثير (٤٥٦/٩، ٤٥٧).

العلامة السابعة

"البراءة"

قال ابن الأعرابي: (بَرِئَ إِذَا تَخَلَّصَ، وبَرِئَ إِذَا تَنَزَّهَ وَتَبَاعَدَ، وبَرِئَ إِذَا أَعْذَرَ وأَنذَرَ)[1].

وعليه فالبراءة تُحمل على وجوهٍ ثلاثة:

الأول– من كان مخالطاً للشيء ثم تركه، فتخلص منه ومن تبعته، وهذا فعل من كان متلبساً بذنب، ثم تاب عنه، فكأنه مصاب برئ من مرضه.

الثاني– من كان سالماً منه، فتجنبه ونأى بنفسه عنه تعبداً وتنزهاً، وهو فعل الأنبياء جميعاً، إذ هم ما قارفوا الشرك ولا قاربوه، لا في النبوة ولا قبلها.

الثالث– من كان مترفعاً عنه، فبراءته تحتمل معنيين:

أ– الخروج من تبعة الفعل، كقوله ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ"[2]، وذلك حين أمر بقتل الأسرى.

ب– تهديد وتوعد من قاربه، كما في الصحيح من قول أبي موسى رضي الله عنه: (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَةِ وَالحَالِقَةِ وَالشَّاقَّةِ)[3]، وحمله على التهديد واضح.

ومن الباب الثاني والثالث لمعاني البراءة، كانت الملة، كما...

١– قال الله ﷻ: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}[الممتحنة: ٤].

قال الفراء: (يَقُولُ: أَلَا تَأَسَّيْتَ يَا حَاطِبُ بِإِبْرَاهِيمَ، فَتَبَرَأَ مِنْ أَهْلِكَ كَمَا بَرِيءَ إِبْرَاهِيمُ)[4].

وقال أبو حيان: (لَمَّا نَهَى عَنْ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ، ذَكَرَ قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–، وَأَنَّ مِنْ سِيرَتِهِ التَّبَرُّؤَ مِنَ الْكُفَّارِ لِيَقْتَدُوا بِهِ فِي ذَلِكَ وَيَتَأَسَّوْا)[1].

---

[1] لسان العرب لابن منظور (٣٣/١).

[2] الجامع للبخاري (١٦٠/٥) برقم (٤٣٣٩) عن ابن عمر – رضي الله عنهما–.

[3] الجامع للبخاري (٨١/٢) برقم (١٢٩٦)، والمسند لمسلم (١٠٠/١) برقم (١٠٤).

[4] معاني القرآن للفراء (١٤٩/٣).

وقال القرطبي: (الْآيَةُ نَصٌّ فِي الْأَمْرِ بِالِاقْتِدَاءِ بِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي فِعْلِهِ)[2].

وقال ابن كثير: (يَقُولُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَمَرَهُمْ بِمُصَارَمَةِ الْكَافِرِينَ وَعَدَاوَتِهِمْ وَمُجَانَبَتِهِمْ وَالتَّبَرِّي مِنْهُمْ: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ} أَيْ: وَأَتْبَاعُهُ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ {إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ} أَيْ: تَبَرَّأْنَا مِنْكُمْ {وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ} أَيْ: بِدِينِكُمْ وَطَرِيقِكُمْ، {وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا} يَعْنِي: وَقَدْ شُرعت الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ مِنَ الْآنِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، مَا دُمْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ فَنَحْنُ أَبَدًا نَتَبَرَّأُ مِنْكُمْ وَنُبْغِضُكُمْ، {حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} أَيْ: إِلَى أَنْ تُوَحِّدُوا اللَّهَ فَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَخْلَعُوا مَا تَعْبُدُونَ مَعَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ)[3].

وقال ابن عاشور: (الْمُرَادُ هُنَا التَّبَرُّؤُ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ وَمُلَابَسَتِهِمْ)[4].

وقال ابن تيمية مبيناً المنهج: (قَدْ أَمَرَنَا اللَّهُ أَنْ نَتَأَسَّى بِإِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ تَبَرَّءُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَمِمَّا يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَقَالَ الْخَلِيلُ: {إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}[الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وَالْبَرَاءَةُ ضِدُّ الْوِلَايَةِ، وَأَصلُ الْبَرَاءَةِ الْبُغْضُ، وَأَصْلُ الْوِلَايَةِ الْحُبُّ، وَهَذَا لِأَنَّ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ أَلَّا يُحِبَّ إلَّا اللَّهَ، وَيُحِبَّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ لِلَّهِ، فَلَا يُحِبُّ إلَّا لِلَّهِ، وَلَا يُبْغِضُ إلَّا لِلَّهِ)[5].

وقال ابن القيم: (جَعَلَ – سُبْحَانَهُ– لِعِبَادِهِ الْمُسْلِمِينَ أُسْوَةً حَسَنَةً فِي إِمَامِ الْحُنَفَاءِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، إِذْ تَبَرَّءُوا مِمَّنْ لَيْسَ عَلَى دِينِهِمُ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ، وَإِيثَارًا لِمَرْضَاتِهِ، وَمَا عِنْدَهُ)[6].

قلت: ضرب الله عز وجل مثلاً للذين آمنوا إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه، أو من اتبعوه على الإيمان، إذ خلعوا أنفسهم من التبعية لأقوامهم وذويهم، وأعلنوا لهم ومنهم البراءة، استجابةً لأمر الله تبارك وتعالى، واتباعاً لمنهجه في متاركة الكافرين، واجتنابهم ومعبوديهم من دونه، وما ذاك

---

[1] البحر المحيط لأبي حيان (١٠/ ١٥٤).

[2] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨/٥٦).

[3] تفسير القرآن لابن كثير (٨/ ٨٧).

[4] التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨/ ١٤٤).

[5] مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/٤٦٥).

[6] أحكام أهل الذمة لابن القيم (١/٤٨٨).

للتسلية والإخبار عن القوم السالفين، بل لنتخذهم أسوة، منهجاً وسبيلاً للوصول لمرضاة رب العالمين ﷻ.

٢- وقال الله ﷻ: {قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}[الأنعام: ٧٨].

قال الطبري: (هَذَا خَبَرٌ مِنَ اللَّهِ – تَعَالَى ذِكْرُهُ– عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ ﵇، أَنَّهُ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ وَعَرَفَهُ، شَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ، وَأَظْهَرَ خِلَافَ قَوْمِهِ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَأَهْلِ الشِّرْكِ بِاللَّهِ، وَلَمْ يَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ، وَلَمْ يَسْتَوْحِشْ مِنْ قِيلِ الْحَقِّ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ، مَعَ خِلَافِ جَمِيعِ قَوْمِهِ لِقَوْلِهِ وَإِنْكَارِهِمْ إِيَّاهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُمْ: يَا قَوْمِ، إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مَعَ اللَّهِ – الَّذِي خَلَقَنِي وَخَلَقَكُمْ – فِي عِبَادَتِهِ مِنْ آلِهَتِكُمْ وَأَصْنَامِكُمْ)[1].

وقال ابن تيمية: (هَذَا الْبُغْضُ وَالْعَدَاوَةُ وَالْبَرَاءَةُ مِمَّا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمِنْ عَابِدِيهِ، هِيَ أُمُورٌ مَوْجُودَةٌ فِي الْقَلْبِ، وَعَلَى اللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، كَمَا أَنَّ حُبَّ اللَّهِ وَمُوَالَاتَهُ وَمُوَالَاةَ أَوْلِيَائِهِ: أُمُورٌ مَوْجُودَةٌ فِي الْقَلْبِ، وَعَلَى اللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، وَهِيَ تَحْقِيقُ قَوْلِ: "لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ")[2].

وقال عبد الرحمن بن حسن: (تأمل كيف ابتدأهم بالبراءة من المشركين، وهذا هو حقيقة معنى "لا إله إلا الله"، ومدلولها، لا بمجرد قولها باللسان، من غير معرفة وإذعان، لما تضمنته كلمة الإخلاص، من نفي الشرك، وإثبات التوحيد)[3].

قلت: أعلن تنزيه نفسه عن مقاربة الشرك، بعد أن أعلمهم بالحجة القائمة عليهم، فأظهر لهم براءته مما يعتقدونه حقاً، مع ما يحمله ذلك من بغضاء له، ولكنه لن يضيره ما دام لائذاً بجناب الله ﷻ، فحقق بذلك شرط الإيمان، وهو البراءة مما يشركون.

٣- وقال الله ﷻ: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}[الزخرف:٢٦، ٢٧].

قال ابن عاشور: (الْمَعْنَى: وَاذْكُرْ زَمَانَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ قَوْلًا صَرِيحًا فِي التَّبَرُّؤِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَخُصَّ أَبُو إِبْرَاهِيمَ بِالذِّكْرِ قَبْلَ ذِكْرِ قَوْمِهِ – وَمَا هُوَ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْهُمُ– اهْتِمَامًا

[1] جامع البيان للطبري (٩/٣٦٢، ٣٦٣).

[2] مجموع فتاوى ابن تيمية (١٤/ ٢٨٠).

[3] الدرر السنية (٢/٣٦٥)، بالمشاركة مع: علي بن حسين، وإبراهيم بن سيف.

بِذِكْرِهِ؛ لِأَنَّ بَرَاءَةَ إِبْرَاهِيمَ مِمَّا يَعْبُدُ أَبُوهُ أَدَلُّ عَلَى تَجَنُّبِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، بِحَيْثُ لَا يُتَسَامَحُ فِيهَا وَلَوْ كَانَ الَّذِي يَعْبُدُهَا أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى مُوَحِّدِ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ مِثْلَ الْأَبِ)[1].

قلت: ما دام إبراهيم عليه السلام قد تجرد في توحيده لخالقه، مع ترك كل ما يُعبد من دون الله عز وجل، فإنه – لا محالة– قد أكمل إيمانه وتوحيده بإعلان براءته مما سوى الله عز وجل من معبودات باطلة، ثم إنه أظهر ذلك مصارحةً لأبيه وقومه، لئلا يتوهموا منه مشاركة بمجرد التوالد أو المعاشرة، وابتدأ بأبيه لئلا يقع الإعذار على غيره، فليس من دونه من هو أولى منه بالمقاربة، فلما بادأه بالمتاركة، لم يعد فيه مطمع لأحد.

وجانب آخر، أن البراءة وقعت من كل معبوداتهم واستثنى من ذلك الله جل جلاله، فدل ذلك على أن جزءاً من عبادتهم كان مصروفاً لله عز وجل، وهذا هو الشرك النازع عنهم صفة العبودية الخالصة لله جل جلاله، وهو حال ينقض بدعة ويهدم ضلالة من قال: "نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه"، فها هو إمام الموحدين يتبرأ من قومه وهم يوافقونه في بعض عبادتهم، وما شفع لهم ذلك، بل شملتهم البراءة، مهملة للبعض المشارَك فيه، للشرك الذي فيه.

٤– وقال الله جل جلاله: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}[التوبة: ١١٤].

قال الطبري: (أَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ اللَّهِ، وَهُوَ خَبَرُهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ أَبَاهُ لِلَّهِ عَدُوٌّ تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَذَلِكَ حَالُ عِلْمِهِ وَيَقِينِهِ أَنَّهُ لِلَّهِ عَدُوٌّ وَهُوَ بِهِ مُشْرِكٌ، وَهُو حَالُ مَوْتِهِ عَلَى شِرْكِهِ)[2].

وقال ابن حزم: (فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ الْبَرَاءَةُ مِنْ أَبَوَيْهِ الْكَافِرَيْنِ وَعَدَاوَتِهِمَا فِي اللَّهِ عز وجل)[3].

قلت: لم يتبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه تبرؤ النابذ له بهوى أو رأي رآه، بل هو نتاج يقين بأن أباه عدو لله عز وجل، فلما علم ذلك علم اليقين، أظهر ما يناسب مقام الخلة التي ينتسب إليها، وكما

[1] التحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٢/٢٥)
[2] جامع البيان للطبري (٣٣/١٢).
[3] الفصل لابن حزم (٩٤/٤).

لا ينبغي أن تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو في بيت واحد، كذلك لا ينبغي للخليل أن يكون في قلبه قربى لخليله ولعدو خليله في آن واحد، فلما اختار جناب الله ﷻ، وتبرأ من عدوه، صحت وصفت بذلك خلته.

٥- وقال الله ﷻ: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}[يونس: ٤١].

قال ابن عطية: (آيَةُ مُنَاجَزَةٍ لَهُمْ وَمُتَارَكَةٍ، وَفِي ضِمْنِهَا وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ)[1].

وقال ابن تيمية: (أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ عَمَلِ كُلِّ مَنْ كَذَّبَهُ)[2].

وقال أبو حيان: (أَيْ: وَإِنْ تَمَادَوْا عَلَى تَكْذِيبِكَ فَتَبَرَّأْ مِنْهُمْ، قَدْ أَعْذَرْتَ وَبَلَّغْتَ... وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا آيَةُ مُنَابَذَةٍ لَهُمْ وَمُوَادَعَةٍ[3]، وَضَمَّنَهَا الْوَعِيدَ)[4].

وقال ابن عاشور: (أَعْلِنْ لَهُمْ بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُم كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنْكَ...
وَالْبَرِيءُ: الْخَلِيُّ عَنِ التَّلَبُّسِ بِشَيْءٍ، وَعَنْ مُخَالَطَتِهِ)[5].

وقال الشنقيطي: (أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، أَنْ يُظْهِرَ الْبَرَاءَةَ مِنْ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ الْقَبِيحَةِ إِنْكَارًا لَهَا، وَإِظْهَارًا لِوُجُوبِ التَّبَاعُدِ عَنْهَا...
وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُ: إِنَّ آيَةَ: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي} الْآيَةَ، مَنْسُوخَةٌ بِآيَاتِ السَّيْفِ.
وَالظَّاهِرُ أَنَّ مَعْنَاهَا مُحْكَمٌ؛ لِأَنَّ الْبَرَاءَةَ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَمَلِ السُّوءِ لَا شَكَّ فِي بَقَاءِ مَشْرُوعِيَّتِهَا)[6].

٦- وقال الله ﷻ: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}[الأنعام: ١٩].

قال الرازي: (اعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ دَالٌّ عَلَى إِيجَابِ التَّوْحِيدِ وَالْبَرَاءَةِ عَنِ الشِّرْكِ...

---

[1] المحرر الوجيز لابن عطية (١٢٢/٣).

[2] مجموع فتاوى ابن تيمية (٥٤٦/١٦).

[3] قال ابن منظور في لسان العرب (٣٨٦/٨): (المُوادعةِ: المُتاركةُ، أَيْ: يَدَعُ كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَا هُوَ فِيهِ).

[4] البحر المحيط لأبي حيان (٦٢/٦) باختصار.

[5] التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٥/١١) باختصار.

[6] أضواء البيان للشنقيطي (١٥٧/٢) باختصار.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْمُسْتَحَبُّ لِمَنْ أَسْلَمَ ابْتِدَاءً أَنْ يَأْتِيَ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَيَتَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ دِينٍ سِوَى دِينِ الْإِسْلَامِ)[1].

وقال أبو حيان: (أَمَرَهُ – تَعَالَى– أَنْ يُخْبِرَهُمْ أَنَّهُ لَا يَشْهَدُ شَهَادَتَهُمْ.

وَأَمَرَهُ ثَانِيًا أَنْ يُفْرِدَ اللَّهَ – تَعَالَى– بِالْإِلَهِيَّةِ، وَأَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ إِشْرَاكِهِمْ، وَمَا أَبْدَعَ هَذَا التَّرْتِيبَ! أُمِرَ أَوَّلًا بِأَنْ يُخْبِرَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يُوَافِقُهُمْ فِي الشَّهَادَةِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْأُلُوهِيَّةِ، فَأُمِرَ بِهِ ثَانِيًا؛ لِيَجْتَمِعَ مَعَ انْتِفَاءِ مُوَافَقَتِهِمْ إِثْبَاتُ الْوَحْدَانِيَّةِ لِلَّهِ – تَعَالَى–، ثُمَّ أَخْبَرَ ثَالِثًا بِالتَّبَرُّؤِ مِنْ إِشْرَاكِهِمْ، وَهُوَ كَالتَّوْكِيدِ لِمَا قَبْلَهُ)[2].

وقال ابن عاشور: (بَالَغَ فِي إِثْبَات ذَلِكَ بِالْتَبرِي مِنْ ضِدِّهِ بِقَوْلِهِ: {وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}، وَفِيهِ قَطْعٌ لِلْمُجَادَلَةِ مَعَهُمْ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُتَارَكَةِ)[3].

قلت: لأن إثبات الألوهية لله ﷻ، لا يستلزم نفيها عما سواه، كما فعلت العرب في شركها، كان لابد من تحقيق جانب النفي، كما هو جانب الإثبات، فوقع بالبراءة من شرك المشركين كمال التوحيد، إذ نفي الشركاء إثبات للوحدانية بطريق الضد، كما قال رسول الله ﷺ: "مَنْ وَحَّدَ اللهَ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ"[4].

٧- وقال الله ﷻ: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}[هود: ٥٤].

قال ابن القيم: (هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ: أَنَّ رَجُلًا وَاحِدًا يُخَاطِبُ أُمَّةً عَظِيمَةً بِهَذَا الْخِطَابِ، غَيْرَ جَزِعٍ وَلَا فَزِعٍ وَلَا خَوَّارٍ، بَلْ وَاثِقٌ مِمَّا قَالَهُ جَازِمٌ بِهِ، قَدْ أَشْهَدَ اللَّهَ أَوَّلًا عَلَى بَرَاءَتِهِ مِنْ دِينِهِمْ، وَمِمَّا هُمْ عَلَيْهِ إِشْهَادَ وَاثِقٍ بِهِ، مُعْتَمِدٍ عَلَيْهِ، مُعْلِمٍ لِقَوْمِهِ: أَنَّهُ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مُسَلِّطِهِمْ عَلَيْهِ.

[1] التفسير الكبير للرازي (١٢/٤٩٩) باختصار.

[2] البحر المحيط لأبي حيان (٤/٤٦١).

[3] التحرير والتنوير لابن عاشور (٧/ ١٧٠).

[4] المسند الصحيح لمسلم (١/٥٣) برقم (٢٣) عن طارق بن أشيم رضي الله عنه.

ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ – إِشْهَادَ مُجَاهِرٍ لَهُمْ بِالْمُخَالَفَةِ –: أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ دِينِهِمْ وَآلِهَتِهِمْ، الَّتِي يُوَالُونَ عَلَيْهَا وَيُعَادُونَ، وَيَبْذُلُونَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي نُصْرَتِهَا.

ثُمَّ أَكَّدَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِالِاسْتِهَانَةِ بِهِمْ، وَاحْتِقَارِهِمْ وَازْدِرَائِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَوْ يَجْتَمِعُونَ كُلُّهُمْ عَلَى كَيْدِهِ، وَشِفَاءِ غَيْظِهِمْ مِنْهُ، ثُمَّ يُعَالِجُونَهُ وَلَا يُمْهِلُونَهُ، وَفِي ضِمْنِ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ أَضْعَفُ وَأَعْجَزُ وَأَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّكُمْ لَوْ رُمْتُمُوهُ لَانْقَلَبْتُمْ بِغَيْظِكُمْ مَكْبُوتِينَ مَخْذُولِينَ)[1].

وقال ابن عاشور: (حَمَّلَهُمْ شَهَادَةً لَهُ بِأَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ شُرَكَائِهِمْ، مُبَادَرَةً بِإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ)[2].

قلت: من آوى إلى ركن العزيز فلن يضام، وهم وإن اعتقدوا في آلهتهم النفع والضر، وأن ما أصابه بعض ما شاءته آلهتهم، فليكن الإعلان المناسب لهذا، من جنس ما ينقض بنيانهم بتحديهم، فقال: اشهدوا – شهادة أبلغ من مجرد العلم بالشيء– أني بريء منكم ومن شرككم، وإن كان ما بي مما تظنونه من فعل آلهتكم، فاعلموا أنه لن يضرني ما يصيبني في ذات الله ﷻ، دون فاعلية حقيقية أو ذاتية لغيره ﷻ، ولكنه إن وقع فلفتنة المشركين بآلهتهم؛ ولأن إيماني بهذا راسخ رسوخ الجبال، فلن يكون توكلي على ربي بأقل من هذا ثبوتاً وثباتاً.

٨– وقال الله ﷻ: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ} [هود/ ٣٥].

قال ابن تيمية: (هَذِهِ بَرَاءَةٌ مِنْهُ لِمَنْ يُخَاطِبُ بِذَلِكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ)[3].

قلت: هو من باب المشاكلة في اللفظ، والتنزل مع الخصم، أي: إن كنتم تدَّعون أن ما أنا فيه – وعليه– من التوحيد إجراماً، بإدعاء أن هذا مما لا يحبه الله ﷻ ولا يرضاه، فأنا أتحمل تبعة ما قلت ودعوتكم إليه، أما أنتم، فأنتم أهل الإجرام الحقيقي بأنفسكم وبأتباعكم وبمخالفيكم، ولكل وجهه من الجرم، والجزاء من جنس العمل، فكما فعلتم بمخالفكم أن ألقيتموه في النار، فأنتم بذلك قد اخترتم طريقة تعذيبكم.

٩– وقال الله ﷻ: {فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}[الشعراء: ٢١٦].

[1] مدارج السالكين لابن القيم (٣/٤٣١، ٤٣٢).

[2] التحرير والتنوير لابن عاشور (٩٩/١٢).

[3] الجواب الصحيح لابن تيمية (٣/ ٥٧).

قال القرطبي: (أَيْ: بَرِئٌ مِنْ مَعْصِيَتِكُمْ إِيَّايَ؛ لِأَنَّ عِصْيَانَهُمْ إِيَّاهُ عِصْيَانٌ لِلَّهِ ﷻ؛ لِأَنَّهُ ﵇ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِمَا يَرْضَاهُ، وَمَنْ تَبَرَّأَ مِنْهُ فَقَدْ تَبَرَّأَ اللَّهُ مِنْهُ)[1].

وقال ابن كثير: (مَنْ عَصَاهُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ، فَلْيَتَبَرَّأْ مِنْهُ)[2].

وقال ابن تيمية: (إِذَا كَانَ قَدْ بَرَّأَهُ اللَّهُ مِنْ مَعْصِيَةِ مَنْ عَصَاهُ مِنْ أَتْبَاعِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَيْفَ لَا يُبَرِّئُهُ مِنْ كُفْرِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ هُمْ أَشَدُّ لَهُ مَعْصِيَةً وَمُخَالَفَةً؟!)[3].

وقال عبد اللطيف آل الشيخ: (المرء قد يكره الشرك، ويحب التوحيد، لكن يأتيه الخلل من جهة عدم البراءة من أهل الشرك، وترك موالاة أهل التوحيد ونصرتهم، فيكون متبعاً لهواه، داخلاً من الشرك في شعب تهدم دينه وما بناه، تاركاً من التوحيد أصولاً وشعباً، لا يستقيم معها إيمانه الذي ارتضاه، فلا يحب ولا يبغض لله، ولا يعادي ولا يوالي لجلال من أنشأه وسواه، وكل هذا يؤخذ من شهادة أن "لا إله إلا الله")[4].

قلت: إن حملت الآية على عصيانه ﷺ من المشركين، فمثلها مثل الآيات الأخر التي تناولت الأمر من جهة التنزه والتباعد عما يعملون، ومنه قول أنس بن النضر ﵁ لما انكشف المسلمون يوم أحد، قال: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ – يَعْنِي أَصْحَابَهُ–، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ – يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ–)[5].

وأما إن كان عصيانه ﷺ من المؤمنين، فذلك تبرؤ من الفعل لا الفاعل، بخلاف المشركين، الذين يصاحب التبرؤ من أفعالهم التبرؤ من ذواتهم، والمؤمنون في منجى من هذا التعميم، كما في قوله ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ"[6]، في أمر الأسرى.

وقد تبرأ رسول الله ﷺ من (الصَّالِقَةِ وَالحَالِقَةِ وَالشَّاقَّةِ)[7].

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣/١٤٤).

[2] تفسير القرآن لابن كثير (٦/١٦٦).

[3] الجواب الصحيح لابن تيمية (٣/٦٢).

[4] الدرر السنية (٨/٣٩٦).

[5] الجامع للبخاري (٤/١٩) برقم (٢٨٠٥).

[6] المصدر السابق (٥/١٦٠) برقم (٤٣٣٩) عن ابن عمر – رضي الله عنهما–.

[7] الجامع للبخاري (٢/٨١) برقم (١٢٩٦)، والمسند لمسلم (١/١٠٠) برقم (١٠٤) عن أبي موسى ﵁.

قال ابن الملقن: (يَعْنِي: بَرِيءٌ مِنْ فِعْلِهَا... وَالمُؤَمِّنُ لَا تَجِبُ البَرَاءَةُ مِنْهُ بِالذُّنُوبِ إِلَّا أَنْ يَرْتَدَّ، والْعِيَاذُ بِاللَّهِ)[1].

١٠- وسورة الكافرون كلها براءة، كما قال النبي ﷺ لنوفل ﷺ: "اقْرَأْ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتِمَتِهَا، فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ"[2].

قال ابن تيمية: (قَوْلُهُ: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[الكافرون: ٦]، لَا يَدُلُّ عَلَى رِضَاهُ بِدِينِهِمْ، بَلْ وَلَا عَلَى إِقْرَارِهِمْ عَلَيْهِ، بَلْ يَدُلُّ عَلَى بَرَاءَتِهِ مِنْ دِينِهِمْ)[3].

وقال ابن القيم: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} [الكافرون: ١ - ٢] إِلَى آخِرِهَا، وَهَذِهِ بَرَاءَةٌ مِنْهُمْ وَمِنْ مَعْبُودِهِمْ وَسَمَّاهَا بَرَاءَةً مِنَ الشِّرْكِ)[4]، وله في (البدائع)[5] كلام نفيس، فانظره.

---

[1] التوضيح لابن الملقن (٩/٥٥٥) باختصار.

[2] إسناده صحيح: السنن لأبي داود (٤/٣١٣) برقم (٥٠٥٥).

[3] الجواب الصحيح لابن تيمية (٣/٦٠).

[4] مدارج السالكين لابن القيم (١/١٨٦).

[5] بدائع الفوائد لابن القيم (١/١٤٢) وما بعدها.

العلامة الثامنة

"البغضاء"

قال الراغب: (البُغْضُ: نِفَارُ النَّفسِ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي تَرْغَبُ عَنْهُ، وَهُوَ ضِدُّ الحُبِّ، فَإِنَّ الحُبَّ اِنْجِذَابُ النَّفْسِ إِلَى الشَّيْءِ الَّذِي تَرْغَبُ فِيهِ)[1].

قلت: للإنسان مع كل حال أحوال، فقد يقارب الشيء بل يلاصقه مع نفرة وبغض، وقد يجافي الشيء ويجانبه مع محبة وانجذاب، فليست العلامة الظاهرة في القوة الكافية للدلالة الكلية على ما في القلب، وهذا باب إحكام الأفهام وليس إسقاط الأحكام؛ لتعلق ذلك بالظاهر، ومحله في غير هذا الموضع، إذ معيننا في جمع العلامات، والتي منها بغض الكافرين، ولو كانوا أقرب الأقربين، كما قال الله ﷻ: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}[الممتحنة: ٤].

قال القرطبي:({وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً} أَيْ: هَذَا دَأْبُنَا مَعَكُمْ مَا دُمْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ)[2].

وقال ابن تيمية: (أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَأَسَّوْا بِإِبْرَاهِيمَ وَمَنْ مَعَهُ حَيْثُ أَبْدَوْا الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ لِمَنْ أَشْرَكَ، حَتَّى يُؤْمِنُوا بِاَللَّهِ وَحْدَهُ)[3].

وقال ابن كثير: (يَقُولُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَمَرَهُمْ بِمُصَارَمَةِ الْكَافِرِينَ وَعَدَاوَتِهِمْ وَمُجَانَبَتِهِمْ وَالتَّبَرِّي مِنْهُمْ: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ}...

---

[1] المفردات للراغب الأصفهاني (١/١٣٦).
[2] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨/٥٦).
[3] مجموع فتاوى ابن تيمية (٨/٣٦١).

{وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا} يَعْنِي: وَقَدْ شُرعت الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ مِنَ الْآنِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، مَا دُمْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ فَنَحْنُ أَبَدًا نَتَبَرَّأُ مِنْكُمْ وَنُبْغِضُكُمْ، {حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ})[1].

قلت: من أعظم دلائل الإيمان وعلاماته الحب في الله ﷻ، والبغض فيه، كما ...

أ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ وَطَعْمَهُ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ ﷻ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ فِي اللَّهِ، وَأَنْ يَبْغُضَ فِي اللَّهِ..."[2].

ب- وقال رسول الله ﷺ: "مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ"[3].

لذلك بينت الآيات هذه المعالم وأوضحتها، مفرقة بين الحب الفطري، والحب النابع من اعتقاد أو المولد من إيمان، الأول لا مؤاخذة فيه، ما لم يُنشئ له تابعاً، ويَبني عليه صروحاً، والآخر منهي عنه حين يتعلق بالكافرين أو المشركين أو المنافقين، كما...

أ- قال الله ﷻ: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}[المجادلة: ٢٢].

قال البغوي: (أَخْبَرَ أَنَّ إِيمَانَ الْمُؤْمِنِينَ يَفْسُدُ بِمُوَادَّةِ الْكَافِرِينَ، وَأَنَّ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا لَا يُوَالِي مَنْ كَفَرَ، وَإِنْ كَانَ مِنْ عَشِيرَتِهِ)[4].

وقال ابن كثير: (أَيْ: لَا يُوَادُّونَ الْمُحَادِّينَ، وَلَوْ كَانُوا مِنَ الْأَقْرَبِينَ)[5].

وقال الشوكاني: (الْخِطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَوْ لِكُلِّ مَنْ يَصْلُحُ لَهُ)[6].

ويورد المفسرون هنا حديث أسرى بدر، وفيه: (فَلَمَّا أَسَرُوا الْأُسَارَى، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: "مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى"؟

---

[1] تفسير القرآن لابن كثير (٧/٧٨).

[2] إسناده صحيح: اللفظ في المجتبى للنسائي (٨/٩٤) برقم (٤٩٨٧) عن أنس بن مالك ﷺ.

[3] إسناده صحيح: السنن لأبي داود (٤/٢٢٠) برقم (٤٦٨١) عن أبي أمامة ﷺ.

[4] معالم التنزيل للبغوي (٨/٦٢).

[5] تفسير القرآن لابن كثير (٨/ ٥٤).

[6] فتح القدير للشوكاني (٥/ ٢٣١).

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللهِ، هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ"؟

قُلْتُ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ – نَسِيبًا لِعُمَرَ–، فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، [حَتَّى يَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّهُ لَيْسَتْ فِي قُلُوبِنَا هَوَادَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ]، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا)[1].

ب– وقال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}[الممتحنة: ١].

قال ابن الجوزي: (قَوْلُهُ ﷻ: {تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ} فِيهِ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْبَاءَ زَائِدَةٌ، وَالْمَعْنَى: تُلْقُونَ إِلَيْهِمُ الْمَوَدَّةَ...

وَالثَّانِي: تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ أَخْبَارَ النَّبِيِّ ﷺ وَسِرَّهُ بِالْمَوَدَّةِ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ)[2].

وقال القرطبي: (مَعْنَى {تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ}: تُخْبِرُونَهُمْ بِسَرَائِرِ الْمُسْلِمِينَ وَتَنْصَحُونَ لَهُمْ... وَمَعْنَى {بِالْمَوَدَّةِ}: أَيْ: بِالنَّصِيحَةِ فِي الْكِتَابِ إِلَيْهِمْ)[3].

---

[1] المسند الصحيح لمسلم (٣/١٣٨) برقم (١٧٦٣)، وما بين المعقوفتين إسنادها حسن، وهي في المسند لأحمد (١/٣٣٤) برقم (٢٠٨) عن عمر بن الخطاب ﷺ.

قلت: إيمان أبي بكر ﷺ أرجح من إيمان عمر ﷺ، وليس هذا محل خلاف، بل محله في أمرين نظر إليهما الصديق ﷺ:

أولهما: رجاء إسلام القوم.

ثانيهما: مفاداة الأسرى؛ ليكون الفداء عوناً للموحدين في حربهم على المشركين.

وقد أشار الصديق ﷺ للأمرين صراحةً.

[2] زاد المسير لابن الجوزي (٤/ ٢٦٧) باختصار.

[3] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨/٥٣، ٥٤) باختصار.

وقال أبو حيان: (الضَّمِيرُ فِي {تُلْقُونَ} أَيْ: تَوَادُّونَهُمْ وَهَذِهِ حَالُهُمْ، وَهِيَ الْكُفْرُ بِاللَّهِ، وَلَا يُنَاسِبُ الْكَافِرَ بِاللَّهِ أَنْ يُوَدَّ)[1].

وقال الشوكاني: (جُمْلَةُ: {تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ} مُسْتَأْنَفَةٌ لِلتَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ، أَيْ: تُسِرُّونَ إِلَيْهِمُ الْأَخْبَارَ بِسَبَبِ الْمَوَدَّةِ)[2].

وقال ابن عاشور: (إِنَّ الْإِسْرَارَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ مِمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْإِلْقَاءُ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ، وَالْخَبَرُ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّوْبِيخِ وَالتَّعْجِيبِ، فَالتَّوْبِيخُ مُسْتَفَادٌ مِنْ إِيقَاعِ الْخَبَرِ عَقِبَ النَّهْيِ الْمُتَقَدِّمِ، وَالتَّعْجِيبُ مُسْتَفَادٌ مِنْ تَعْقِيبِهِ بِجُمْلَةِ {وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ}، أَيْ: كَيْفَ تَظُنُّونَ أَنَّ إِسْرَارَكُمْ إِلَيْهِمْ يَخْفَى عَلَيْنَا وَلَا نُطْلِعُ عَلَيْهِ رَسُولَنَا)[3].

* ومن فقه المنهج:

أ- قال ابن القيم: (لِلَّهِ خَلِيلُهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ حَيْثُ يَقُولُ: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ}[إبراهيم: ٣٥ - ٣٦]! وَمَا نَجَا مِنْ شَرَكِ هَذَا الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ إِلَّا مَنْ جَرَّدَ تَوْحِيدَهُ لِلَّهِ، وَعَادَى الْمُشْرِكِينَ فِي اللَّهِ، وَتَقَرَّبَ بِمَقْتِهِمْ إِلَى اللَّهِ)[4].

ب- وقال محمد بن عبد الوهاب: (أما صفة الكفر بالطاغوت، فأن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها، وتبغضها، وتكفر أهلها، وتعاديهم.

وأما معنى الإيمان بالله، فأن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده، دون من سواه، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم، وهذه ملة إبراهيم التي سفه نفسه من رغب عنها)[5].

ج- وقال حمد بن عتيق: (أصل دين جميع الرسل، هو القيام بالتوحيد، ومحبته ومحبة أهله، وموالاتهم، وإنكار الشرك، وتكفير أهله، وبغضهم، وإظهار عداوتهم - وذكر آية الممتحنة،

---

[1] البحر المحيط لأبي حيان (١٠/ ١٥٣).
[2] فتح القدير للشوكاني (٥/ ٢٥١).
[3] التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨/ ١٣٨) باختصار.
[4] مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٥٤).
[5] الدرر السنية (١/ ١٦١).

ثم قال:– ومعنى قوله: {وَبَدَا} أي: ظهر وبان، والمراد التصريح باستمرار العداوة والبغضاء لمن لم يوحد ربه)[١].

[١] المصدر السابق (٨/٤١٨).

العلامة التاسعة

"التحدي"

قال الخليل: (يُقَالُ: فُلَانٌ يَتَحَدَّى فُلَانَاً، أَيْ: يُبَارِيهِ وينازِعُهُ الغَلَبَةَ)[1].

وقال أحمد مختار: (أَتَحَدَّى: تَعْبِيرٌ يُقْصَدُ بِهِ إِنْذَارُ شَخْصٍ بِفِعْلِ شَيْءٍ مَعَ التَّلْمِيحِ إِلَى عَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ...تَحَدَّى فُلَانٌ الشَّيْءَ: جَابَهَهُ دُونَ خَوْفٍ)[2].

والتحدي على وجهه الصحيح، لا يقع – في الغالب– إلا من عاقل مدرك لعواقب الأمور ومآلاتها، فإن التحدي يولد المنافسة بله العداء، وهو وإن أظهر الندية، فهو ملمح لعجز الخصم، ولضعفه في إظهار حقه، وبالتالي إبطال الخصومة ودحض الحجة، ثم جحود أو استخفاف بقدرة الخصم، والاستهانة بقدره.

فهذا رسول الله ﷺ يتحدى قريش ثم العرب، ثم الناس أجمعين، ويعلن لهم العداء، ثم عليهم الحرب، فهل كان في حوزته سابقاً – أو تحقق حالياً– ما يمكنه من مواجهتهم جميعاً، لو لم يكن واثقاً بنصر الذي لا يُغلب ﷻ؟

لذلك كان تحدي الأنبياء لأقوامهم، وآحادهم فرد في مقابل الجميع، مع شهادتهم برجحان عقلهم ورشد فهمهم، أكبر دليل على صحة دعواهم، كما...

أ– قال الله ﷻ حكاية عن إبراهيم عليه السلام: {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ}[الشعراء: ٧٥–٧٧].

قلت: هذا من قوة توكله وثبات يقينه عليه السلام، فإنه ظاهَرهم وآلهتهم بالعداوة، غير عابئ بهم وبمكرهم، أو كيد آلهتهم له، ومن كمال إيمانه بربه لم ير بيد غيره منفذاً يوصلون إليه منه شراً؛ لذلك تحداهم وأظهر العداوة، وزاد فحطم الآلهة وصورها المنصوبة، كما...

ب– قال الله ﷻ حكاية عنه: {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ}[الأنبياء: ٥٧].

---

[1] كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (٣/٢٧٩).

[2] معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عبد الحميد عمر (١/٤٦١) باختصار.

وقد قال بعض المفسرين أنه قاله سراً، أو أنه قاله في مؤخرة من الناس حين خرجوا لعيدهم، فسمعه ضعفة السير، أو أنه قاله ولم يكن غيره، فسمعه أحدهم، ولا أدري محملهم على مثل هذا، وليس في القرآن إشارة له، ولا هناك من حاجة لاحتمال مثله.

وسواء أقاله في قليل من الناس، أم قاله فسمعه أحدهم ثم انتشر عنه، أم قاله صراحة وعلانية، على مسمع منهم[1]، فضمير الجمع في قوله ﷻ: {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ} [الأنبياء: ٦٠]، يؤكد أن من سمعه أو من نقل إليه الكلام قطع بأن إبراهيم عليه السلام قاله، فنسب إليهم السماع جميعاً، فإذا انضاف إليه سالف عهده مع أبيه وقومه من العداوة والبغضاء، كان تحديه لهم بالكيد لأصنامهم غير مستبعد منه، بل هو منهجه، فكان بذلك أول المتهمين، لذلك اقتيد للتحقيق والترهيب والتعذيب.

ولأن هذا منهجه – وبتجاوز سبق التاريخ– فقد تحدى عبدة الشمس والقمر والكواكب في مناظرته لهم بإبطال ألوهيتها لأفولها، وكذلك تحدى النمروذ بأن يأتي بالشمس من المغرب، وما خاف في ذلك من ذلك شيئاً، وكيف يخاف وهو عازم على تحطيم الأصنام، ثم هو مستهزئ بهم وبكبير آلهتهم، العاجز عن حماية نفسه، فكيف بمن هم دونه؟ وقد حكى الله ﷻ عنه قوله: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[الأنعام: ٨١]، فهو ليس ممن يلقي الكلام جزافاً، فيقول ما لا يفعل، أو يطلق التهديدات الجوفاء، ويخطط لما لا يقول.

ج– وقال الله ﷻ: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ}[يونس:٧١].

قال ابن كثير: ({فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ} أَيْ: فَإِنِّي لَا أُبَالِي وَلَا أَكُفُّ عَنْكُمْ سَوَاءٌ عَظُمَ عَلَيْكُمْ أَوْ لَا، {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ} أَيْ: فَاجْتَمِعُوا أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، مِنْ صَنَمٍ وَوَثَنٍ، {ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً} أَيْ: وَلَا تَجْعَلُوا أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ مُلْتَبِسًا، بَلِ افْصِلُوا

---

[1] قال الرازي في التفسير الكبير (٢٢/١٥٤): (اعْلَمْ أَنَّ كِلَا الْوَجْهَيْنِ مُمْكِنٌ).

حَالَكُمْ مَعِي، فَإِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ مُحِقُّونَ، فَاقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونَ، أَيْ: وَلَا تُؤَخِّرُونِي سَاعَةً وَاحِدَةً، أَيْ: مَهْمَا قَدَرْتُمْ فَافْعَلُوا، فَإِنِّي لَا أُبَالِيكُمْ وَلَا أَخَافُ مِنْكُمْ، لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ)[1].

قلت: من كمال ثقته بالله ﷻ ويقينه بنصره، دعاهم لأن يكشفوا عن أنفسهم أسباب الخذلان، وليأتوا بكل وجه يستطيعون من خلاله إنفاذ أمرهم، فقال: أجمعوا أمركم، ولا تتفرقوا في الرأي، ولتجتمع فيكم أسباب القوة، المتفرقة في آحادكم، فيكون اجتماعها مع الرأي الواحد مدعاة للنفاذ، ثم لا تكتفوا بهذا، بل أضيفوا إليه عوامل النصر المستمدة من قوة شركائكم إن كنتم تعتقدون فاعليتها، فيكون في ذلك اجتماع قوة الآلهة مع أتباعها، ثم زيدوا عليها، حزم الرأي ووضوح الخطة، وذلك لتكتمل مراحلها على الوجه المخطط له، ثم لا تكتفوا بهذا، فضموا إليها آخر الأمر، وهو المسارعة في الفعل؛ لئلا تضعف عزائمكم أو يخبو وهج حزمكم؛ ولئلا تُتخذ الإجراءات المضادة لإفشال مخططكم.

وهنا ترتسم على طرف الشفة ابتسامة، لا تخطئها عين البصير، إذ لن يقدروا – بالممتنع أو المستطاع– لمرادهم وصولاً، فهل رأيت – أيها المتأسي– تحدٍ بمثل هذا؟

فإن أردت بطولةً ففي هذه المنهج – لا في غيره– الأبطال.

د– وقال الله ﷻ: {قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[هود: ٥٣– ٥٦].

قال أبو السعود: (أَمَرَهُمْ بِأَنْ يَسْمَعُوا ذَلِكَ وَيَشْهَدُوا بِهِ، اسْتِهَانَةً بِهِمْ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالِاجْتِمَاعِ وَالِاحْتِشَادِ مَعَ آلِهَتِهِمْ جَمِيعًا دُونَ بَعْضٍ مِنْهَا، حَسْبَمَا يُشْعِرُ بِهِ قَوْلُهُمْ: {بَعْضُ آلِهَتِنَا} وَالتَّعَاوُنِ فِي إِيصَالِ الْكَيْدِ إِلَيْهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – وَنَهَاهُمْ عَنِ الْإِنْظَارِ وَالْإِمْهَالِ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: {فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ} أَيْ: إِنْ صَحَّ مَا لَوَّحْتُمْ بِهِ مِنْ كَوْنِ آلِهَتِكُمْ مِمَّا

[1] تفسير القرآن لابن كثير (٢٨٣/٤).

يَقْدِرُ عَلَى إِضْرَارِ مَنْ يَنَالُ مِنْهَا، وَيَصُدُّ عَنْ عِبَادَتِهَا – وَلَوْ بِطَرِيقٍ ضِمْنِيٍّ – فَإِنِّي بَرِيءٌ مِنْهَا، فَكُونُوا أَنْتُمْ مَعَهَا جَمِيعًا وَبَاشِرُوا كَيْدِي، ثُمَّ لَا تُمْهِلُونِي وَلَا تُسَامِحُونِي فِي ذَلِكَ، فَالْفَاءُ لِتَفْرِيعِ الْأَمْرِ عَلَى زَعْمِهِمْ فِي قُدْرَةِ آلِهَتِهِمْ عَلَى مَا قَالُوا وَعَلَى الْبَرَاءَةِ كِلَيْهِمَا، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْمُعْجِزَاتِ، فَإِنَّهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامِ – كَانَ رَجُلًا مُفْرَدًا بَيْنَ الْجَمِّ الْغَفِيرِ وَالْجَمْعِ الْكَثِيرِ مِنْ عُتَاةِ عَادٍ الْغِلَاظِ الشِّدَادِ، وَقَدْ خَاطَبَهُمْ بِمَا خَاطَبَهُمْ وَحَقَّرَهُمْ وَآلِهَتَهُمْ وَهَيَّجَهُمْ عَلَى مُبَاشَرَةِ مَبَادِئِ الْمُضَادَّةِ وَالْمُضَارَّةِ، وَحَثَّهُمْ عَلَى التَّصَدِّي لِأَسْبَابِ الْمُعَازَّةِ وَالْمُعَارَّةِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى مُبَاشَرَةِ شَيْءٍ مِمَّا كُلِّفُوهُ، وَظَهَرَ عَجْزُهُمْ عَنْ ذَلِكَ ظُهُورًا بَيِّنًا)[1].

وقال الرازي: (اعْلَمْ أَنَّ هَذَا مُعْجِزَةٌ قَاهِرَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ الْوَاحِدَ إِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْقَوْمِ الْعَظِيمِ، وَقَالَ لَهُمْ: بَالِغُوا فِي عَدَاوَتِي، وَفِي مُوجِبَاتِ إِيذَائِي، وَلَا تُؤَجِّلُونِ، فَإِنَّهُ لَا يَقُولُ هَذَا إِلَّا إِذَا كَانَ وَاثِقًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ – تَعَالَى – بِأَنَّهُ يَحْفَظُهُ وَيَصُونَهُ عَنْ كَمَدِ الْأَعْدَاءِ)[2].

وقال القرطبي: (هَذَا الْقَوْلُ مَعَ كَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ الثِّقَةِ بِنَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ، أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ وَحْدَهُ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: {فَكِيدُونِي جَمِيعاً}، وَكَذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِقُرَيْشٍ[3]، وَقَالَ نُوحٌ ﷺ: {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ}[يونس: ٧١] الْآيَةَ)[4].

وقال ابن عاشور: (لَمَّا كَانَتِ الْبَرَاءَةُ مِنَ الشُّرَكَاءِ تَقْتَضِي اعْتِقَادَ عَجْزِهَا عَنْ إِلْحَاقِ إِضْرَارٍ بِهِ فَرَّعَ عَلَى الْبَرَاءَةِ جُمْلَةَ {فَكِيدُونِي جَمِيعاً}... تَحَدَّاهُمْ بِأَنْ يَكِيدُوهُ، ثُمَّ ارْتَقَى فِي رُتْبَةِ التَّعْجِيزِ وَالِاحْتِقَارِ، فَنَهَاهُمْ عَنِ التَّأْخِيرِ بِكَيْدِهِمْ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ نِهَايَةُ الِاسْتِخْفَافِ بِأَصْنَامِهِمْ وَبِهِمْ، وَكِنَايَةٌ عَنْ كَوْنِهِمْ لَا يَصِلُونَ إِلَى ذَلِكَ.

وَجُمْلَةُ {إِنِّي تَوَكَّلْتُ}: تَعْلِيلٌ لِمَضْمُونِ {فَكِيدُونِي} وَهُوَ التَّعْجِيزُ وَالِاحْتِقَارُ، يَعْنِي: أَنَّهُ وَاثِقٌ بِعَجْزِهِمْ عَنْ كَيْدِهِ؛ لِأَنَّهُ مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللَّهِ، فَهَذَا مَعْنًى دِينِيٌّ قَدِيمٌ)[5].

---

[1] إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٤/٢١٨).

[2] التفسير الكبير للرازي (١٨/٣٦٥).

[3] يقصد قوله ﷺ: {فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ}[المرسلات:٣٩]، وهو على أحد وجهي التفسير، وسيأتي بعد قليل.

[4] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩/٥٢).

[5] التحرير والتنوير لابن عاشور (١٢/١٠٠) باختصار.

وقال ابن القيم: (هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ: أَنَّ رَجُلًا وَاحِدًا يُخَاطِبُ أُمَّةً عَظِيمَةً بِهَذَا الْخِطَابِ، غَيْرَ جَزِعٍ وَلَا فَزِعٍ، وَلَا خَوَّارٍ، بَلْ وَاثِقٌ مِمَّا قَالَهُ جَازِمٌ بِهِ، قَدْ أَشْهَدَ اللَّهَ أَوَّلًا عَلَى بَرَاءَتِهِ مِنْ دِينِهِمْ، وَمِمَّا هُمْ عَلَيْهِ إِشْهَادَ وَاثِقٍ بِهِ، مُعْتَمِدٍ عَلَيْهِ، مُعْلِمٍ لِقَوْمِهِ: أَنَّهُ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مُسَلِّطِهِمْ عَلَيْهِ.

ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ – إِشْهَادَ مُجَاهِرٍ لَهُمْ بِالْمُخَالَفَةِ –: أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ دِينِهِمْ وَآلِهَتِهِمْ، الَّتِي يُوَالُونَ عَلَيْهَا وَيُعَادُونَ، وَيَبْذُلُونَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي نُصْرَتِهَا.

ثُمَّ أَكَّدَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِالِاسْتِهَانَةِ بِهِمْ، وَاحْتِقَارِهِمْ وَازْدِرَائِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَوْ يَجْتَمِعُونَ كُلُّهُمْ عَلَى كَيْدِهِ، وَشِفَاءِ غَيْظِهِمْ مِنْهُ، ثُمَّ يُعَالِجُونَهُ وَلَا يُمْهِلُونَهُ، وَفِي ضِمْنِ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ أَضْعَفُ وَأَعْجَزُ وَأَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّكُمْ لَوْ رُمْتُمُوهُ لَانْقَلَبْتُمْ بِغَيْظِكُمْ مَكْبُوتِينَ مَخْذُولِينَ)[1].

قلت: هو مشهد آخر من مشاهد التحدي، ممن استقام على المنهج بعد أن آمن به، فصرح – غير مكتفٍ بالاعتقاد– أنه كافر بهم وبآلهتهم، فإن كنتم على حق في انتصاركم لآلهتكم، فاجتمعوا وأجمعوا على ضري، واعلموا أني ما بلغت منزلتي هذه بقوتي الذاتية، بل بتوكلي على ربي الذي ناصيتي وناصيتكم بيده، ولا يخرج عن أمره إلا من يعجزه، وهو المحال.

هـ– وقال الله ﷺ: {قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}[الأنعام: ١٣٥].

قال أبو حيان: (هَذَا الْأَمْرُ أَمْرُ تَهْدِيدٍ وَوَعِيدٍ، كَقَوْلِهِ: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ}[فصلت: ٤٠]، وَهِيَ التَّخْلِيَةُ وَالتَّسْجِيلُ عَلَى الْمَأْمُورِ بِأَنَّهُ لَا يَأْتِي مِنْهُ إِلَّا الشَّرُّ، فَكَأَنَّهُ مَأْمُورٌ بِهِ)[2].

وقال الشوكاني: (أَيِ: اثْبُتُوا عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، فَإِنِّي غَيْرُ مُبَالٍ بِكُمْ وَلَا مُكْتَرِثٍ بِكُفْرِكُمْ، إِنِّي ثَابِتٌ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ، {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} مَنْ هُوَ عَلَى الْحَقِّ، وَمَنْ هُوَ عَلَى الْبَاطِلِ)[3].

و– وقال الله ﷺ: {قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}[الزمر: ٣٩].

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم (٣/٤٣١، ٤٣٢).

[2] البحر المحيط لأبي حيان (٤/٦٥٣).

[3] فتح القدير للشوكاني (٢/١٨٧).

قلت: هذه الآية والتي سبقتها تحملان معنىً متقارباً، وهو المفاصلة بيننا وبين القوم الكافرين، فنحن ثابتون على ما آمنا به وعملناه، وأنتم – إن شئتم عدم الاهتداء– فاثبتوا على ما أنتم له فاعلون، وليس في هذا رضى بما هم عليه، بل هو تهديد ووعيد، إن أنتم بقيتم على حيدتكم تلك عن الحق، فسيأتيكم من عذاب الله ﷻ ما يخزيكم، ومع ظهور هذا المعنى، ففيه التحدي المبطن، أي: لن أترك ما أنا عليه، مهما فعلتم أو كدتم لي، فإني ثابت عليه غير عابئ بكم وبكيدكم، وسوف تعلمون لمن تكون عاقبة الدار.

ز– وقال الله ﷻ: {وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}[إبراهيم: ١٢].

قال البيضاوي: ({وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى مَا آذَيْتُمُونا} جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ أَكَّدُوا بِهِ تَوَكُّلَهُمْ، وَعَدَمَ مُبَالَاتِهِمْ بِمَا يَجْرِي مِنَ الْكُفَّارِ عَلَيْهِمْ)[1].

وقال السعدي: (أَيْ: وَلَنَسْتَمِرَّنَّ عَلَى دَعْوَتِكُمْ وَوَعْظِكُمْ وَتَذْكِيرِكُمْ، وَلَا نُبَالِي بِمَا يَأْتِينَا مِنْكُمْ مِنَ الْأَذَى، فَإِنَّا سَنُوَطِّنُ أَنْفُسَنَا عَلَى مَا يَنَالُنَا مِنْكُمْ مِنَ الْأَذَى احْتِسَابًا لِلْأَجْرِ وَنُصْحًا لَكُمْ؛ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَكُمْ مَعَ كَثْرَةِ التَّذْكِيرِ)[2].

قلت: هو تحدي المؤمنين بما حملوه، الصابرين على ما يلقوه من الناس، المرابطين على ثغر الدعوة، النائلين من الجهال ما يرفع منزلتهم ويعلي مقامهم، وهم يظنون أنهم يذلونهم ويحقرونهم، وما يضرون إلا أنفسهم لو كانوا يعقلون.

ح– وقال الله ﷻ: {فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ}[المرسلات: ٣٩].

قال القرطبي: (أَيْ: حِيلَةٌ فِي الْخَلَاصِ مِنَ الْهَلَاكِ، {فَكِيدُونِ} أَيْ: فَاحْتَالُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَقَاوِوُنِي، وَلَنْ تَجِدُوا ذَلِكَ.

وَقِيلَ: أَيْ: {فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ} أَيْ: قَدِرْتُمْ عَلَى حَرْبٍ {فَكِيدُونِ} أَيْ: حَارِبُونِي، كَذَا رَوَى الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي (٣/١٩٥).

[2] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/٤٢٢).

وَقِيلَ: إِنَّهُ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَكُونُ كَقَوْلِ هود: {فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ}[هود: ٥٥][1].

قلت: إن كان من كلام الله ﷻ فهو يضاف لمنهج الله ﷻ في معاملة الكافرين والمشركين، وإن كان من كلام رسول الله ﷺ، فهو من علامات الملة، وموضعه هنا مناسب لذلك.

* ومن مظاهر التحدي:

١- قول النبي ﷺ لقومه حين آذوه: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ"[2].

٢- (قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَكَانَ أُبَيّ بْنُ خَلَفٍ... يَلْقَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ إنَّ عِنْدِي الْعَوْذَ، فَرَسًا أَعْلِفُهُ كُلَّ يَوْمٍ فَرَقًا مِنْ ذُرَةٍ، أَقْتُلُك عَلَيْهِ؛ فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "بَلْ أَنَا أَقْتُلُكَ إنْ شَاءَ اللهُ")[3].

٣- ومنه ما تحدى به رسول الله ﷺ قريش – بل العرب قاطبة- بأن يأتوا بمثل القرآن أو بعشر سور منه، أو بسورة واحدة، طويلة أو قصيرة.

٤- ومنه تحديه ﷺ لليهود بأن يأتوا بالتوراة، وليتلوها إن كانوا صادقين، كما قال ﷻ: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[آل عمران:٩٣].

٥- ومنه تحديه ﷺ للنصارى ودعوتهم للمباهلة، كما قال ﷻ: {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}[آل عمران:٦١].

٦- ومنه التحدي العام بأن يأتي المخالف بالدليل على صحة دعواه، كما...

أ- قال ﷻ: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[البقرة:١١١].

ب- وقال ﷻ: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[النمل:٦٤].

[1] السيرة النبوية لابن هشام (٨٤/٢) باختصار.

[2] إسناده حسن: التقاسيم والأنواع لابن حبان (٥٢٥/١٤) برقم (٦٥٦٧) عن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما-.

[3] السيرة النبوية لابن هشام (٨٤/٢) باختصار.

٧- ومنه تحدي موسى عليه السلام لفرعون أمام ملئه، بالقول وبالمعجزات الباهرة، ثم يتحداه بإبطال سحره ورد كيده وكشف زيفه، على مرأى ومسمع من الناس؛ ليكون أبلغ في الأداء، و{قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}[طه: ٥٩].

٨- ولما توعد فرعون السحرة بقوله: {فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى}[طه:٧١]، أجابوه مباشرة بلا تردد أو لعثمة، فـ{قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}[طه:٧٢].

٩- ومنه تحدي الغلام للملك، يرجع إليه في كل مرة، وخبره في الصحيح[1].

١٠- (قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: ... كَانَ أَوَّلُ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: اجْتَمَعَ يَوْمًا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: وَاَللَّهِ مَا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ هَذَا الْقُرْآنَ يُجْهَرُ لَهَا بِهِ قَطُّ، فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمُوهُ؟

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: أَنَا، قَالُوا: إنَّا نَخْشَاهُمْ عَلَيْكَ، إنَّمَا نُرِيدُ رَجُلًا لَهُ عَشِيرَةٌ يَمْنَعُونَهُ مِنْ الْقَوْمِ إنْ أَرَادُوهُ، قَالَ: دَعُونِي فَإِنَّ اللَّهَ سَيَمْنَعُنِي.

قَالَ: فَغَدَا ابْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى الْمَقَامَ فِي الضُّحَى، وَقُرَيْشٌ فِي أَنْدِيَتِهَا، حَتَّى قَامَ عِنْدَ الْمَقَامِ ثُمَّ قَرَأَ: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ" رَافِعًا بِهَا صَوْتَهُ، {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ} [الرحمن:١، ٢]، قَالَ: ثُمَّ اسْتَقْبَلَهَا يَقْرَؤُهَا.

قَالَ: فَتَأَمَّلُوهُ فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: مَاذَا قَالَ ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ؟

قَالَ: ثُمَّ قَالُوا: إنَّهُ لَيَتْلُو بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ، فَقَامُوا إلَيْهِ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ فِي وَجْهِهِ، وَجَعَلَ يَقْرَأُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْلُغَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إلَى أَصْحَابِهِ وَقَدْ أَثَّرُوا فِي وَجْهِهِ، فَقَالُوا لَهُ: هَذَا الَّذِي خَشِينَا عَلَيْكَ.

فَقَالَ: مَا كَانَ أَعْدَاءُ اللَّهِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْهُمْ الْآنَ، وَلَئِنْ شِئْتُمْ لَأُغَادِيَنَّهُمْ بِمِثْلِهَا غَدًا، قَالُوا: لَا، حَسْبُكَ، قَدْ أَسْمَعْتَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ)[2].

---

[1] المسند الصحيح لمسلم (٤/٢٢٩٩) برقم (٣٠٠٥) عن صهيب رضي الله عنه.

[2] السيرة النبوية لابن هشام (١/٣١٤، ٣١٥) باختصار.

١١- وفي حديث أبي ذر ﷺ لما قدم على رسول الله ﷺ: (فَقُلْتُ لَهُ: اعْرِضْ عَلَيَّ الإِسْلاَمَ، فَعَرَضَهُ فَأَسْلَمْتُ مَكَانِي، فَقَالَ لِي: "يَا أَبَا ذَرٍّ، اكْتُمْ هَذَا الأَمْرَ، وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ، فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ"، فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لَأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَجَاءَ إِلَى المَسْجِدِ وَقُرَيْشٌ فِيهِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَقَالُوا: قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئِ، فَقَامُوا فَضُرِبْتُ لِأَمُوتَ، فَأَدْرَكَنِي العَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: وَيْلَكُمْ، تَقْتُلُونَ رَجُلًا مِنْ غِفَارَ، وَمَتْجَرُكُمْ وَمَمَرُّكُمْ عَلَى غِفَارَ، فَأَقْلَعُوا عَنِّي، فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ الغَدَ رَجَعْتُ، فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قُلْتُ بِالأَمْسِ، فَقَالُوا: قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئِ فَصُنِعَ بِي مِثْلَ مَا صُنِعَ بِالأَمْسِ، وَأَدْرَكَنِي العَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ، وَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ بِالأَمْسِ)[١].

١٢- ومنه – وما أكثره- تحدي الأئمة والعلماء على مدى الزمان للولاة الظلمة، فمنه المواجهة بالسيف كفعل (ابن الأشعث) إذ (قَامَ مَعَهُ عُلَمَاءُ وَصُلَحَاءُ للهِ تَعَالَى، لِمَا انْتَهَكَ الحَجَّاجُ مِنْ إِمَاتَةِ وَقْتِ الصَّلاَةِ، وَلِجَوْرِهِ وَجَبَرُوْتِهِ)[٢]، كما قال الذهبي.

ومنه المجابهة بالحق، كما في مواجهة الأوزاعي لعبد الله بن علي، غير خائف ولا جبان، وقصته مشهورة، ذكرها الذهبي، ثم قال: (قَدْ كَانَ عَبْدُ اللهِ بنُ عَلِيٍّ مَلِكاً جَبَّاراً، سَفَّاكاً لِلدِّمَاءِ، صَعبَ المِرَاسِ، وَمَعَ هَذَا فَالإِمَامُ الأَوزَاعِيُّ يَصْدَعُهُ بِمُرِّ الحَقِّ كَمَا تَرَى، لاَ كَخَلْقٍ مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ الَّذِيْنَ يُحَسِّنُوْنَ لِلأُمَرَاءِ مَا يَقْتَحِمُوْنَ بِهِ مِنَ الظُّلمِ وَالعَسْفِ، وَيَقلِبُوْنَ لَهُمُ البَاطِلَ حَقّاً – قَاتَلَهُمُ اللهُ – أَوْ يَسكُتُوْنَ مَعَ القُدْرَةِ عَلَى بَيَانِ الحَقِّ)[٣].

---

[١] الجامع للبخاري بلفظه (١٨٤/٤) برقم (١٧٤١) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

[٢] سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠٣/٧).

[٣] المصدر السابق (١٤٦/١٣).

العلامة العاشرة

"التكفير"

إذا كان أصل الكفر في اللغة (سَتْرُ الشيْءِ)[1]، فالتكفير هو تعرية ما ستره المخالف، وإعلان كفره، وخروجه عن دين ربه، وإظهار جحوده لخالقه، وبيان البراءة منه، والعداوة له، وهو على قسمين:

أ- كفر بالمعبودات، وهي أربعة:

- الآلهة.
- الأرباب.
- الأنداد.
- الطواغيت.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: "مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ"[2].

وفي رواية: "مَنْ وَحَّدَ اللهَ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ..."[3].

فهذا مما يبين أن من شرط صحة القول بلا إله إلا الله، الكفر بكل ما يعبد من دون الله ﷻ، وأظهرها الأربعة سالفة الذكر، والقول فيها تفصيلاً خارج مسارنا الحالي؛ لوضوحه وشهرة القول فيه لكل من درس الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك.

ب-كفر بالعابدين، وهو حكم شرعي قد تعبد الله ﷻ به المؤمنين، وهو المراد هنا، كما...

[1] المفردات للراغب الأصفهاني (٧١٤).

[2] المسند الصحيح لمسلم (١/ ٥٣) برقم (٢٣) عن طارق بن أشيم رضي الله عنه.

[3] المصدر السابق/ مكرر.

١- قال الله ﷻ: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}[الممتحنة: ٤].

قال الطبري: ({كَفَرْنَا بِكُمْ} أَنْكَرْنَا مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ، وَجَحَدْنَا عِبَادَتَكُمْ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْ تَكُونَ حَقًّا)[١].

وقال القرطبي: ({كَفَرْنا بِكُمْ} أَيْ: بِمَا آمَنْتُمْ بِهِ مِنَ الْأَوْثَانِ.

وَقِيلَ: أَيْ: بِأَفْعَالِكُمْ وَكَذَبْنَاهَا وَأَنْكَرْنَا أَنْ تَكُونُوا عَلَى حَقٍّ)[٢].

وقال ابن عاشور: (أَيْ: كَفَرْنَا بِجَمِيعِكُمْ، فَكُفْرُهُمْ بِالْقَوْمِ غَيْرُ كُفْرِهِمْ بِمَا يَعْبُدُهُ قَوْمُهُمْ)[٣].

وقال أبو السعود: (أَيْ: بِدِينِكُمْ، أَوْ بِمَعْبُودِكُمْ، أَوْ بِكُمْ وَبِهِ، فَلَا نَعْتَدُّ بِشَأْنِكُمْ وَبِآلِهَتِكُمْ)[٤].

٢- وقال الله ﷻ: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[البقرة: ٢٥٦].

قال الطبري: (تَأْوِيلُ الْكَلَامِ إِذًا: فَمَنْ يَجْحَدْ رُبُوبِيَّةَ كُلِّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونَ اللَّهِ فَيَكْفُرُ بِهِ...)[٥].

وقال ابن عطية: (قَدَّمَ – تَعَالَى- ذِكْرَ الْكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ؛ لِيُظْهِرَ الِاهْتِمَامَ بِوُجُوبِ الْكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ)[٦].

وقال أبو حيان: (الْكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ؛ لِأَنَّ الْكُفْرَ بِهَا هُوَ رَفْضُهَا، وَرَفْضُ عِبَادَتِهَا، وَلَمْ يَكْتَفِ بِالْجُمْلَةِ الْأُولَى لِأَنَّهَا لَا تَسْتَلْزِمُ الْجُمْلَةَ الثَّانِيَةَ، إِذْ قَدْ يَرْفُضُ عِبَادَتَهَا وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، لَكِنَّ الْإِيمَانَ يَسْتَلْزِمُ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ)[٧].

---

[١] جامع البيان للطبري (٢٢/ ٥٦٦).

[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨/ ٥٦).

[٣] التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨/ ١٤٤).

[٤] إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٨/٢٣٧).

[٥] جامع البيان للطبري (٤/٥٩٩).

[٦] المحرر الوجيز لابن عطية (١/ ٣٤٤).

[٧] البحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٦١٧).

وقال ابن كثير: (أَيْ: مَنْ خَلَعَ الْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ مِنْ عِبَادَةِ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللَّهِ، وَوَحَّدَ اللَّهَ فَعَبَدَهُ وَحْدَهُ وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ،{فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى})[1].

وقال محمد بن عبد الوهاب: (صفة الكفر بالطاغوت فأن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها، وتبغضها، وتكفر أهلها، وتعاديهم)[2].

٣- وقال الله ﷻ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ}[النساء: ٦٠].

قال مقاتل: (أَنْ يَتَبَرَّؤُوا مِنَ الْكَهَنَةِ)[3].

وقال السمرقندي: (يَعْنِي: أُمِرُوا بِتَكْذِيبِهِ)[4].

وقال الواحدي: (أَيْ: أُمِرُوا أَنْ لَا يُوَالُوا غَيْرَ أَهْلِ دِينِهِمْ)[5].

وقال الألوسي: ({وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ} وَيُخَالِفُوهُ)[6].

٤- وقال الله ﷻ: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا}[الكهف: ٣٧، ٣٨].

قال أبو حيان: ({أَكَفَرْتَ} اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَتَوْبِيخٍ حَيْثُ أَشْرَكَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ)[7].

وقال ابن كثير: (هَذَا إِنْكَارٌ وَتَعْظِيمٌ لِمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ جُحُودِ رَبِّهِ)[8].

قلت: هذا تكفير عيني بمكفر، وهو قول الرجل: {مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا}[الكهف: ٣٥، ٣٦]، فما قال له:

[1] تفسير القرآن لابن كثير (١/ ٦٨٣).
[2] الدرر السنية (١/١٦١).
[3] تفسير مقاتل بن سليمان (١/٣٨٥).
[4] تفسير القرآن لأبي الليث السمرقندي (١/٣٣٩).
[5] الوجيز للواحدي (١/٢٧١).
[6] روح المعاني للألوسي (٣/٨١).
[7] البحر المحيط لأبي حيان (٧/١٧٧).
[8] تفسير القرآن لابن كثير (٥/١٨٥).

قلتَ قول الكفر، أو قولك هذا قول كفري، أو هو من قول الكفار، أو ظاهره الكفر، أو كفرٌ إن اعتقدته، أو كفرٌ إذا تحققت شروطه وانتفت موانعه، بل أوقع عليه حكم التكفير العيني بقوله مجرداً، دون نظر للاعتقاد المصاحب، بل اكتفاءً بالظاهر، هذا أولاً...

وثانياً- سواء أكان الرجل كافراً من قبل، وقوله هذا زيادة في الكفر، أو هو كفر بهذا القول، فحكم التكفير واحد.

وثالثاً- يتشابه في الحكم أن كان كفره شكاً أو جحوداً أو تشريكاً، فالأمر فيه سواء.

٥- وقال الله ﷻ: {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[الكافرون: ١-٦].

وهذا تكفير عيني بمكفرات واقعة قولية أو عملية أو اعتقادية، جمع بينها المشركون قديماً، وإذا انفرد كل مشرك بواحد منها، فهذا الواحد يكفي لإيقاع الحكم، أو إنزال الاسم، فالزم الحق تهتدي.

العلامة الحادية عشر

"الإيذان بالحرب"

لا يُقدم على إعلان الحرب والإخبار بما في النفس تجاه الأعداء إلا أحد رجلين:

أ– أحمق متهور لا يُقيم للعواقب وزناً.

ب– مؤمن بما يحمل، لا يرهب عدواً.

ومن هنا عُلق إظهار الملة بالإيمان، إذ لولا اليقين بنصر الله ﷻ؛ لما كان هيناً على نبي معاداة قومه، فضلاً عن معاداة الناس أجمعين، فكيف لو اقترن هذا العداء بالتحدي، بل كيف لو زيد عليه إعلان الحرب صراحةً؟!

إن مجرد التلويح بالحرب يكفي لأخذ العدو أهبته، بل هو قبل ذلك قد أعد للأمر عدته، ولكن ليس على الموحد بأس في ذلك؛ لأنه يثق بأن من أمره بإعلان الحرب هو من وعده بالنصر، كما في دعاء الرسول ﷺ يوم بدر: "اللهُمَّ، نَصْرُكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي"[1].

وتحقيقاً لاسم "الناصر" كان لابد من ظهور أثره على المؤمن به، بأن يُعد عدة القتال، ثم يدخل المعركة؛ ليتنزل النصر من الناصر، لذلك...

أ– قال الله ﷻ: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ}[الأنبياء: ١٠٩].

قال الطبري: (يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَإِنْ أَدْبَرَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ يَا مُحَمَّدُ عَنِ الْإِقْرَارِ بِالْإِيمَانِ، بِأَنْ لَا إِلَهَ لَهُمْ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَأَعْرَضُوا عَنْهُ، وَأَبَوُا الْإِجَابَةَ إِلَيْهِ، {فَقُلْ} لَهُمْ: قَدْ {آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ} يَقُولُ: أَعْلَمْتُهُمْ أَنَّكَ وَهُمْ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَنَّ بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ حَرْبٌ، لَا صُلْحَ بَيْنَكُمْ وَلَا سِلْمَ، وَإِنَّمَا عُنِيَ بِذَلِكَ قَوْمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ قُرَيْشٍ)[2].

[1] المغازي للواقدي (٥٩/١).

[2] جامع البيان للطبري (٤٤١/١٦).

وقال البغوي: (أَيْ: أَعْلَمْتُكُمْ بِالْحَرْبِ، وَأَنْ لَا صُلْحَ بَيْنَنَا، {عَلَى سَوَاءٍ} أَيْ: إِنْذَارٌ بَيِّنٌ يَسْتَوِي فِي عِلْمِهِ، لَا اسْتِبْدَادًا بِهِ دُونَكُمْ؛ لِتَتَأَهَّبُوا لِمَا يُرَادُ بِكُمْ، أَيْ: آذَنْتُكُمْ عَلَى وَجْهٍ نَسْتَوِي نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِي الْعِلْمِ بِهِ)[1].

وقال ابن كثير: (أَيْ: أَعْلَمْتُكُمْ أَنِّي حَرْب لَكُمْ، كَمَا أَنَّكُمْ حَرْبٌ لِي، بَرِيءٌ مِنْكُمْ كَمَا أَنَّكُمْ بُرآء مِنِّي، كَقَوْلِهِ: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ} [يُونُس: ٤١]، وَقَالَ: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ}[الْأَنْفَالِ: ٥٨]، لِيَكُنْ عِلْمُكَ وَعِلْمُهُمْ بِنَبْذِ الْعُهُودِ عَلَى السَّوَاءِ، وَهَكَذَا هَاهُنَا، {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ} أَيْ: أَعْلَمْتُكُمْ بِبَرَاءَتِي مِنْكُمْ، وَبَرَاءَتِكُمْ مِنِّي؛ لِعِلْمِي بِذَلِكَ)[2].

وقال ابن عاشور: (أَيْ: أَنْذَرْتُكُمْ مُسْتَوِينَ فِي إِعْلَامِكُمْ بِهِ، لَا يَدَّعِي أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنَّهُ لَمْ يَبْلُغْهُ الْإِنْذَارُ، وَهَذَا إِعْذَارٌ لَهُمْ وَتَسْجِيلٌ عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ فِي خُطْبَتِهِ: "أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ"[3])[4].

قلت: هذا مثال حي لكمال الثقة بنصر الله ﷻ والتوكل عليه، مع ما فيه من تحدٍ للكافرين، أني وأنتم على علم بحربي لكم، فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ولن يجديكم ذلك نفعاً، متى يحق عليكم القول، والأمر لله ﷻ، غير أنها مدة لا مهادنة فيها ولا هوادة، وإن لم تتخللها حرب مباشرة، فيكفي شعوركم بها ورهبتكم منها، وهذا لا ينتصب إلا لمن كان عزيزاً بجناب الله ﷻ، موقناً بنصر الله ﷻ القادم؛ لقدم الوعد وإيثاق العهد، والله ﷻ لا يخلف وعده.

ولأن حالة الحرب والمجاهرة بالعداء والمنابذة بالسيف أصل وقاعدة، فإن حالة طارئة قد تنشأ لحاجة أو تلجئ إليها ضرورة، وذلك بتجنب شرع السيوف ونصب الرماح لهدنة أو أمان، فإذا اختل الميزان عاد الأمر إلى ما كان، كما...

ب- قال الله ﷻ: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ}[الأنفال:٥٨].

---

[1] معالم التنزيل للبغوي (٣/٣٥٩).

[2] تفسير القرآن لابن كثير (٥/٢٨٨).

[3] الجامع للبخاري (٢/١٧٦) برقم (١٧٤١)، والمسند لمسلم (٣/١٣٠٥) برقم (١٦٧٩) عن أبي بكرة ﷺ.

[4] التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/١٧٣).

قال الطبري: (يَقُولُ: فَنَاجِزْهُمْ بِالْحَرْبِ، وَأَعْلِمْهُمْ قَبْلَ حَرْبِكَ إِيَّاهُمْ أَنَّكَ قَدْ فَسَخْتَ الْعَهْدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ ظُهُورِ آثَارِ الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ مِنْهُمْ، حَتَّى تَصِيرَ أَنْتَ وَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ فِي الْعِلْمِ بِأَنَّكَ لَهُمْ مُحَارِبٌ، فَيَأْخُذُوا لِلْحَرْبِ آلَتَهَا، وَتَبْرَأَ مِنَ الْغَدْرِ)[1].

وقال الرازي: (قَوْلُهُ: {وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً} يَعْنِي مِنْ قَوْمٍ مُعَاهِدِينَ خِيَانَةً وَنَكْثًا بِأَمَارَاتٍ ظَاهِرَةٍ، {فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ} فَاطْرَحْ إِلَيْهِمُ الْعَهْدَ عَلَى طَرِيقٍ مُسْتَوٍ ظَاهِرٍ، وَذَلِكَ أَنْ تُظْهِرَ لَهُمْ نَبْذَ الْعَهْدِ وَتُخْبِرَهُمْ إِخْبَارًا مَكْشُوفًا بَيِّنًا أَنَّكَ قَطَعْتَ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَلَا تُبَادِرْهُمُ الْحَرْبَ وَهُمْ عَلَى تَوَهُّمِ بَقَاءِ الْعَهْدِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ خِيَانَةً مِنْكَ)[2].

وقال أبو حيان: (أَيِ: ارْمِهِ وَاطْرَحْهُ، وَفِي قَوْلِهِ {فَانْبِذْ} عَدَمُ اكْتِرَاثٍ بِهِ، كَقَوْلِهِ {فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ}[آل عمران:١٨٧]، {فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ}[القصص:٤٠/ الذاريات:٤٠]... وَكَأَنَّهُ لَا يَنْبِذُ وَلَا يَرْمِي إِلَّا الشَّيْءَ التَّافِهَ الَّذِي لَا يُبَالِي بِهِ، وَقُوَّةُ هَذَا اللَّفْظِ تَقْتَضِي حَرْبَهُمْ وَمُنَاجَزَتَهُمْ)[3].

قلت: لا يخلو المعاهَد من إحدى حالين يترتب عليهما تالياً:

أ- أن ينقض العهد نقضاً ظاهراً، فهذا لا حاجة لنبذ العهد معه؛ لأنه من نبذه ابتداءً، وهو مأخوذ بجريرة فعله، والآية في غير هذا، لأن من بانت خيانته، لم يُخف من غائلته، بعد أن ظهرت غدرته، فما عاد للعلم السواء من فائدة، أو للنبذ من مصلحة.

ب- أن تظهر من علامات الخيانة ما يلوح بنقض العهد، فضلاً عن علم متيقن بالخيانة، غير أنها لم تترجم بعد لأفعال، ولم تخرج من طور التقرير لطور التنفيذ، فهؤلاء ما عاد للمسلمين من مصلحة في عهدهم، واستدامة العهد حمق وغفلة، وأخذ للمسلمين على حين غرة بلا تحضر ولا أهبة، بل إن شئت فقل: هي الخيانة للمسلمين ممن ولي أمرهم، إن راعى في السياسة الشرعية الأحكام القضائية كالبينة والشهود والكتب والعقود[4]، وليس المعاهَد بداخل

---

[1] جامع البيان للطبري (٢٣٨/١١).

[2] التفسير الكبير للرازي (٤٩٧/١٥).

[3] البحر المحيط لأبي حيان (٣٤١/٥).

[4] قال ابن عاشور: (شُؤُونَ الْمُعَامَلَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ تَجْرِي عَلَى حَسَبِ الظُّنُونِ وَمَخَائِلِ الْأَحْوَالِ، وَلَا يُنْتَظَرُ تَحَقُّقُ وُقُوعِ الْأَمْرِ الْمَظْنُونِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَرَيَّثَ وُلَاةُ الْأُمُورِ فِي ذَلِكَ يَكُونُونَ قَدْ عَرَّضُوا الْأُمَّةَ لِلْخَطَرِ، أَوْ لِلتَّوَرُّطِ فِي غَفْلَةٍ وَضَيَاعٍ

في العهد إلا لمنفعة، وما يسبق العهد إلا حالة الحرب أو التربص، فإذا سنحت الفرصة، فهو أهل للنقض، علناً أو غدراً، والأخير هو الغالب، فإذا كان ذلك كذلك، لم يكن من شيمة المسلمين الخيانة والغدر، فالله ﷻ يبغضهما – خُلقاً- في الكافر، وهو لهما في المسلمين أبغض، فقضى ﷺ عدلاً وحكمة، ألا يتساوى الفريقان في الأمر، فمن الكفار الخيانة طبعاً وسجيةً، ومن المسلمين الوفاء خلقاً وتخلقاً، وقد حدَّث أبو سفيان يوم خصومته وفي شدة عداوته بشهادة الصدق في رسول الله ﷺ، إذ سأله هرقل فقال: (هَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ- أي: أبو سفيان-: لاَ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لاَ نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الكَلِمَةِ)، وقد أهمل هرقل التعقيب لعدم أهميته، ثم فسر علة السؤال فقال: (وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ، فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ)[1].

ومن سير المنهج:

أ- لما اتُهم اليهود بقتل عبد الله بن سهل ﷺ، قال رسول الله ﷺ: "إِمَّا أَنْ يَدُوا صَاحِبَكُمْ، وَإِمَّا أَنْ يُؤْذِنُوا بِحَرْبٍ"[2].

ب- ورد في السير أن رسول الله ﷺ كتب إلى أسقف نجران: "أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ وَأَدْعُوكُمْ إِلَى وِلَايَةِ اللهِ مِنْ وِلَايَةِ الْعِبَادِ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَالْجِزْيَةُ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَقَدْ آذَنْتُكُمْ بِحَرْبٍ، وَالسَّلَامُ"[3].

ج- في معركة اليرموك خرج جرجة القائد الروماني فقال: (يَا خَالِدُ، أَخْبِرْنِي إِلَامَ تَدْعُونِي؟ قَالَ: إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَالإِقْرَارِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. قَالَ: فَمَنْ لَمْ يُجِبْكُمْ؟

قَالَ: فَالْجِزْيَةُ وَنَمْنَعُهُمْ.

مَصْلَحَةٍ، وَلَا تُدَارُ سِيَاسَةُ الْأُمَّةِ بِمَا يُدَارُ بِهِ الْقَضَاءُ فِي الْحُقُوقِ؛ لِأَنَّ الْحُقُوقَ إِذَا فَاتَتْ كَانَتْ بَلِيَّتُهَا عَلَى وَاحِدٍ، وَأَمْكَنَ تَدَارُكُ فَائِتِهَا، وَمَصَالِحُ الْأُمَّةِ إِذَا فَاتَتْ تَمَكَّنَ مِنْهَا عَدُوُّهَا)[التحرير والتنوير (١٠/٥٢)].

[1] الجامع للبخاري (١/٨) برقم (٧)، والمسند لمسلم (٣/١٣٩٣) برقم (١٧٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

[2] الجامع للبخاري (٩/٧٥) برقم (٧١٩٢)، والمسند لمسلم (٣/١٢٩٤) برقم (١٦٦٩) عن سهل بن أبي حثمة ﷺ.

[3] دلائل النبوة للبيهقي (٥/٣٨٥).

قَالَ: فَإِنْ لَمْ يُعْطِهَا؟

قَالَ: نُؤْذِنْهُ بِحَرْبٍ، ثُمَّ نُقَاتِلُهُ)[1].

* ومن سيرة عمير بن سعد ﷺ القتالية: (قَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ! إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَدُوِّنَا مَدِيْنَةٌ يُقَالُ لَهَا: عَرَبُ السُّوْسِ، تُطْلِعُ عَدُوَّنَا عَلَى عَوْرَاتِنَا، وَيَفْعَلُوْنَ، وَيَفْعَلُوْنَ.

فَقَالَ عُمَرُ: خَيِّرْهُمْ بَيْنَ أَنْ يَنْتَقِلُوا مِنْ مَدِيْنَتِهِمْ وَنُعْطِيْهِمْ مَكَانَ كُلِّ شَاةٍ شَاتَيْنِ، وَمَكَانَ كُلِّ بَقَرَةٍ بَقَرَتَيْنِ، وَمَكَانَ كُلِّ شَيْءٍ شَيْئَيْنِ، فَإِنْ فَعَلُوا، فَأَعْطِهِمْ ذَلِكَ [وَخَرِّبْهَا]، وَإِنْ أَبَوْا، فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ، ثُمَّ أَجِّلْهُمْ سَنَةً.

فَقَالَ: اكْتُبْ لِي يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِيْنَ عَهْدَكَ بِذَلِكَ.

فَعَرَضَ عُمَيْرٌ عَلَيْهِم، فَأَبَوْا، فَأَجَّلَهُمْ سَنَةً، ثُمَّ نَابَذَهُمْ)[2].

---

[1] تاريخ الأمم والملوك للطبري (٢/٣٣٧).

[2] سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٥٦٠)، وما بين المعكوفتين في بغية الطلب لابن العديم (١/٣٣١).

العلامة الثانية عشر

"الذكر بسوء"

امتداد لاستعداء مع جفاء، كان الذكر بالسوء من صروف المعركة المستمرة بين الموحدين من ناحية، وبين الكافرين وأعداء الدين والمنافقين المذبذبين من ناحية أخرى، إذ إن أرباب المصالح الخاصة يستهويهم تحايد مواطن المواجهة المباشرة، مغلفين ذلك بأدلة منسوخة، أو قرائن ممسوخة، لا لشيء إلا لإخفاء الجبن، مقنعاً بحرص على الحياة، يموه بأضاليل وأباطيل أحياناً، وفي أحيان كثيرة مزيفاً أو مزيناً بمصالح الناس، وليس هذا من الملة الحنيفية في شيء، والتي إحدى علاماتها أن تذكر العدو والمخالف بعيبه، فتؤرق مضجعه، وتقصف جبهته، وتنتقصه وتسفهه وتفضح عوار منهجه، كما...

أ- قال الله ﷻ: {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ}[الأنبياء: ٥٧-٦٠].

قال الطبري: (يَذْكُرُهُمْ بِعَيْبٍ... عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ...: سَمِعْنَاهُ يَسُبُّهَا، وَيَعِيبُهَا، وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا، لَمْ نَسْمَعْ أَحَدًا يَقُولُ ذَلِكَ غَيْرَهُ)[1].

وقال البغوي: (يَعِيبُهُمْ وَيَسُبُّهُمْ)[2].

وقال الرازي: (كَأَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ قَدْ عَرَفُوا مِنْهُ وَسَمِعُوا مَا يَقُولُهُ فِي آلِهَتِهِمْ، فَغَلَبَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَنَّهُ الْفَاعِلُ)[3].

وقال أبو حيان: ({يَذْكُرُهُمْ} أَيْ: بِسُوءٍ)[4].

---

[1] جامع البيان للطبري (١٦/ ٢٩٧، ٢٩٨).
[2] معالم التنزيل للبغوي (٥/٣٢٤).
[3] التفسير الكبير للرازي (٢٢/١٥٥).
[4] البحر المحيط لأبي حيان (٧/٤٤٦).

وقال السعدي: (أَيْ: يَعِيبُهُمْ وَيَذُمُّهُمْ، وَمَنْ هَذَا شَأْنُهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي كَسَّرَهَا)[1].

قلت: لا يفعل هذا إلا من كان إلهه كاملاً، فهو إن عابهم بما هو نقيصة فيه وفي ربه، فسيذكرون عيب إلهه، فيستوي المعيبان، وليس أحدهما بأولى في الإبطال من الآخر؛ لذلك كان ذكرهم بعيبهم على أي الوجهين صحيح.

الأول: إن عاب الآلهة بما هو فيها، من أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، كما في قوله ﷺ: {فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ}[الأنبياء: ٦٣-٦٥].

الثاني: إن مدح ربه بصفاته وأفعاله، كما في قوله ﷺ: {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ}[الشعراء: ٧٥- ٨٢].

فلو لم تكن هذه من صفات الله ﷻ وأفعاله، لما صح سكوتهم عنها، وهو يذكرها في مقام المدح، وفي المقابل، لمَّا نزعها عن الآلهة المزعومة، وهم واثقون من انتفاءها عن آلهتهم، كانت ذماً مبطناً للآلهة المزعومة، وإن لم تُذكر، كمثل من يذكر عدل عمر ﷺ أمام أمير ظالم، أو من يذكر رقة الصديق ﷺ عند من غلظ قلبه واشتد، فساء فعله.

واعلم أيها الموحد أن ذكرك لمحاسن دينك وتوحيدك في ذاته انتقاص وعيب للمبتدعين والمشركين، ألم تر كم يحنقهم أن تتحدث عن التوحيد ونبذ الشرك والكفر بالطاغوت وتحكيم الشريعة؟ أم لم تر كم يغيظهم أن تذكر قوله ﷻ: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}[المائدة: ٤٤]، كما قال ابن عباس – رضي الله عنهما-: (كَانَتْ مُلُوكٌ بَعْدَ عِيسَى، بَدَّلُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، فَكَانَ مِنْهُمْ مُؤْمِنُونَ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، فَقِيلَ لِمُلُوكِهِمْ: مَا نَجِدُ شَتْمًا أَشَدَّ مِنْ شَتْمٍ يَشْتِمُونَنَا هَؤُلَاءِ، إِنَّهُمْ يَقْرَءُونَ: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا

[1] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/٥٢٦).

أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}[المائدة: ٤٤] هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ، مَعَ مَا يَعِيبُونَّا بِهِ مِنْ أَعْمَالِنَا فِي قِرَاءَتِهِمْ، فَادْعُهُمْ فَلْيَقْرَءُوا كَمَا نَقْرَأُ، وَلْيُؤْمِنُوا كَمَا آمَنَّا)[١].

بل إني لا أعلم للطواغيت وجندهم وأعوانهم وعملائهم – لا علمائهم- آية هي أغيظ لهم منها حين يقرؤها الموحد.

وسالف الذكر منهج موافق لقوله ﷻ: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ}[يونس: ٧١]، أي أن هذا أعظم ما يزعجهم، أن يحيى الموحدون، وأن يعيش الداعون فيذكّرون الناس بالإيمان والتوحيد، ونبذ الشرك والتنديد، فيكفي الموحد العاجز عن الهجرة أو الجهاد، أن يحافظ على حياته، وهو كفاية – بل زيادة- في إغاظة المرتدين.

٢- وقال الله ﷻ: {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ}[الأنبياء: ٣٦].

قال الطبري: (يَعْنِي بِقَوْلِهِ: {يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ} بِسُوءٍ، وَيَعِيبُهَا)[٢].

وقال الرازي: (الْمَعْنَى: أَنَّهُ يُبْطِلُ كَوْنَهَا مَعْبُودَةً وَيُقَبِّحُ عِبَادَتَهَا)[٣].

وقال ابن كثير: (يَعْنُونَ: أَهَذَا الَّذِي يَسُبُّ آلِهَتَكُمْ وَيُسَفِّهُ أَحْلَامَكُمْ)[٤].

وقال السعدي: (أَيْ: هَذَا الْمُحْتَقَرُ بِزَعْمِهِمُ، الَّذِي يَسُبُّ آلِهَتَكُمْ وَيَذُمُّهَا، وَيَقَعُ فِيهَا، أَيْ: فَلَا تُبَالُوا بِهِ، وَلَا تَحْتَفِلُوا بِهِ، هَذَا اسْتِهْزَاؤُهُمْ وَاحْتِقَارُهُمْ لَهُ، بِمَا هُوَ مِنْ كَمَالِهِ، فَإِنَّهُ الْأَكْمَلُ الْأَفْضَلُ الَّذِي مِنْ فَضَائِلِهِ وَمَكَارِمِهِ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ، وَذَمُّ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ وَتَنَقُّصُهُ،

---

[١] المجتبى للنسائي (٢٣١/٨) برقم (٥٤٠٠).

[٢] جامع البيان للطبري (٢٧٠/١٦).

[٣] التفسير الكبير للرازي (١٤٤/٢٢).

[٤] تفسير القرآن لابن كثير (٣٤٢/٥).

وَذِكْرُ مَحَلِّهِ وَمَكَانَتِهِ، وَلَكِنَّ مَحَلَّ الِازْدِرَاءِ وَالِاسْتِهْزَاءِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ، الَّذِينَ جَمَعُوا كُلَّ خُلُقٍ ذَمِيمٍ)[1].

قلت: تعرض الآية صورتين متقابلتين، صورة الكفار وهم يستهزئون بحامل دعوة التوحيد، بذكر أحد أفعاله، وكأنه إغفال لما هو دونه، أو لعظم وقعه في نفوس القوم، بحيث بات المؤرق الأعظم، فبدا صغيراً في أعينهم الشيء العظيم، ألا وهو ذكر الرحمن، وعظيماً الشيء الحقير، أي ذكر آلهتهم بعيبها ونقائصها، وإظهار عجزها وضعفها، فكانوا أن وجدوا في الهزء مفراً من المواجهة، وأضحوا في هزئهم يكيلون له عظيم المدح، وهي الصورة الأخرى، صورة الموحد، وهو يواجههم بذكر النقائص والمعائب، في آلهتهم وعباداتهم، يقيناً بكمال ربه، وصحة معتقده، وحُسن منهجه.

* ومن سير المنهج:

أ- ما رآه ورواه عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما-، قال: (حَضَرْتُهُمْ وَقَدْ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْمًا فِي الْحِجْرِ فَذَكَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ، سَفَّهَ أَحْلَامَنَا وَشَتَمَ آبَاءَنَا وَعَابَ دِينَنَا وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا وَسَبَّ آلِهَتَنَا، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، أَوْ كَمَا قَالُوا.

قَالَ: فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ، فَلَمَّا أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ مَا يَقُولُ، قَالَ: فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمْ الثَّانِيَةَ، غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ الثَّالِثَةَ، فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَقَالَ: "تَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ".

فَأَخَذَتْ الْقَوْمَ كَلِمَتُهُ، حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا كَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ، حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَصَاةً قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرْفَؤُهُ بِأَحْسَنِ مَا يَجِدُ مِنْ الْقَوْلِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: انْصَرِفْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، انْصَرِفْ رَاشِدًا، فَوَاللهِ مَا كُنْتَ جَهُولاً.

[1] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/٥٢٣).

قَالَ: فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْغَدُ، اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ، وَأَنَا مَعَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ، وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ، حَتَّى إِذَا بَادَأَكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَأَحَاطُوا بِهِ، يَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذَا وَكَذَا؟ لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُمْ عَنْهُ مِنْ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَدِينِهِمْ.

قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "نَعَمْ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ")[1].

ب- قال ابن إسحاق: (فَلَمَّا بَادَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ بِالْإِسْلَامِ وَصَدَعَ بَهْ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ، لَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ قَوْمُهُ، وَلَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ- فِيمَا بَلَغَنِي- حَتَّى ذَكَرَ آلِهَتَهُمْ وَعَابَهَا، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ أَعْظَمُوهُ وَنَاكَرُوهُ، وَأَجْمَعُوا خِلَافَهُ وَعَدَاوَتَهُ، إلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَهُمْ قَلِيلٌ مُسْتَخْفُونَ)[2].

ج- وقال: (ثُمَّ إنَّ قُرَيْشًا اشْتَدَّ أَمْرُهُمْ - لِلشَّقَاءِ الَّذِي أَصَابَهُمْ- فِي عَدَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَنْ أَسْلَمَ مَعَهُ مِنْهُمْ، فَأَغْرَوْا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ سُفَهَاءَهُمْ، فَكَذَّبُوهُ وَآذَوْهُ، وَرَمَوْهُ بِالشِّعْرِ وَالسِّحْرِ وَالْكِهَانَةِ وَالْجُنُونِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُظْهِرٌ لِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَسْتَخْفِي بِهِ، مُبَادٍ لَهُمْ بِمَا يَكْرَهُونَ مِنْ عَيْبِ دِينِهِمْ، وَاعْتِزَالِ أَوْثَانِهِمْ، وَفِرَاقِهِ إيَّاهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ)[3].

د- وقال ابن القيم: (دَخَلَ النَّاسُ فِي الدِّينِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، وَقُرَيْشٌ لَا تُنْكِرُ ذَلِكَ، حَتَّى بَادَأَهُمْ بِعَيْبِ دِينِهِمْ وَسَبِّ آلِهَتِهِمْ، وَأَنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، فَحِينَئِذٍ شَمَّرُوا لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ عَنْ سَاقِ الْعَدَاوَةِ)[4].

هـ- ومن ذلك هجاء المشركين، وهذا وإن لم يفعله رسول الله ﷺ، إلا أنه دعا إليه من يعرفه وبارك قوله، فكان تقريراً للفعل وتأييداً للفاعل، وقد عقد له البخاري باباً في جامعه الصحيح،

---

[1] إسناده حسن: المسند لأحمد (٦٠٩/١١) برقم (٧٠٣٦).

[2] السيرة النبوية لابن هشام (٢٦٤/١).

[3] المصدر السابق (٢٨٩/١).

[4] زاد المعاد لابن القيم (١٩/٣).

وأورد فيه حديث البراء ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِحَسَّانَ: " اهْجُهُمْ – أَوْ قَالَ: هَاجِهِمْ – وَجِبْرِيلُ مَعَكَ")[1].

وقال كعب بن مالك ﷺ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا تَرَى فِي الشِّعْرِ؟

قَالَ: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ، وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَكَأَنَّمَا تَنْضَحُونَهُمْ بِالنَّبْلِ")[2].

قال المناوي: (أراد بالجهاد باللسان هجو الكفر وأهله... ومقصود الحديث أن المؤمن شأنه ذلك، فلا ينبغي أن يقتصر على جهاد أعداء الله بالسنان، بل يضم إليه الجهاد باللسان)[3].

و– وقال ابن تيمية: (أخبر الله أن يوسف دعا أهل مصر، لكن بغير معاداة لمن لم يؤمن، ولا إظهار مناوأة بالذم والعيب والطعن لما هم عليه، كما كان نبينا أول ما أنزل عليه الوحي، وكانت قريش إذ ذاك تقره، ولا ينكر عليه، إلى أن أظهر عيب آلهتهم ودينهم، وعيب ما كان عليه آباؤهم، وسفه أحلامهم، فهنالك عادوه وآذوه، وكان ذلك جهاداً باللسان قبل أن يؤمر بجهاد اليد)[4].

ز– وفي قصة إسلام أبي ذر ﷺ (قَالَ فَبَيْنَا أَهْلِ مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ قَمْرَاءَ إِضْحِيَانٍ، إِذْ ضُرِبَ عَلَى أَسْمِخَتِهِمْ، فَمَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ أَحَدٌ. وَامْرَأَتَانِ مِنْهُمْ تَدْعُوَانِ إِسَافًا، وَنَائِلَةَ، قَالَ: فَأَتَتَا عَلَيَّ فِي طَوَافِهِمَا، فَقُلْتُ: أَنْكِحَا أَحَدَهُمَا الْأُخْرَى، قَالَ: فَمَا تَنَاهَتَا عَنْ قَوْلِهِمَا، قَالَ: فَأَتَتَا عَلَيَّ، فَقُلْتُ: هَنٌ مِثْلُ الْخَشَبَةِ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَكْنِي، فَانْطَلَقَتَا تُوَلْوِلَانِ)[5].

قال القرطبي: (أَرَادَ بِذِكْرِهِ هُنَا سَبَّ إِسَافَ وَنَائِلَةَ)[6].

ح– وقال محمد بن عبد الوهاب: (وأنت يا منْ منَّ الله عليه بالإسلام، وعرف أن ما من إله إلا الله، لا تظن أنك إذا قلت: هذا هو الحق، وأنا تارك ما سواه، لكن لا أتعرض للمشركين،

---

[1] الجامع للبخاري (٣٦/٨) برقم (٦١٥٣)، وهو في المسند لمسلم (١٩٣٣/٤) برقم (٢٤٨٦).

[2] التقاسيم والأنواع لابن حبان (٥٢٥/١٤) برقم (٦٥٦٧).

[3] فيض القدير للمناوي (٣٨٦/٢).

[4] النبوات لابن تيمية (٨٤٦/٢، ٨٤٧).

[5] المسند لمسلم (١٩١٩/٤) برقم (٢٤٧٣) عن أبي ذر ﷺ.

[6] المفهم للقرطبي (١٢٦/٢٠).

ولا أقول فيهم شيئاً، لا تظن أن ذلك يحصل لك به الدخول في الإسلام، بل لابد من بغضهم، وبغض من يحبهم، ومسبتهم، ومعاداتهم)[1].

---

[1] الدرر السنية (١٠٩/٢).

العلامة الثالثة عشر

"الشدة"

قال ابن عاشور: (الشِّدَّةُ... حَقِيقَتُهَا قُوَّةُ الْعَمَلِ الْمُؤْذِي... يُقَالُ: اشْتَدَّ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ، أَيْ: أَسَاءَ مُعَامَلَتَهُ)[1].

وصفة الشدة صفة مجردة، تُذكر في مقام المدح بقرينة، كما في مدح الله ﷻ للملائكة، فقال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم:٦].

قال الرازي: ({غِلَاظٌ شِدَادٌ} فِي أَجْرَامِهِمْ غِلْظَةٌ وَشِدَّةٌ، أَيْ: جَفَاءٌ وَقُوَّةٌ، أَوْ فِي أَفْعَالِهِمْ جَفَاءٌ وَخُشُونَةٌ، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونُوا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ فِي خَلْقِهِمْ، أَوْ فِي أَفْعَالِهِمْ، بِأَنْ يَكُونُوا أَشِدَّاءَ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ...

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} يَدُلُّ عَلَى اشْتِدَادِهِمْ لِمَكَانِ الْأَمْرِ، لَا تَأْخُذُهُمْ رَأْفَةٌ فِي تَنْفِيذِ أَوَامِرِ اللَّهِ – تَعَالَى–، وَالِانْتِقَامِ مِنْ أَعْدَائِهِ)[2].

وقال القرطبي: (يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ الزَّبَانِيَةَ غِلَاظَ الْقُلُوبِ لَا يَرْحَمُونَ إِذَا اسْتُرْحِمُوا، خُلِقُوا مِنَ الْغَضَبِ، وَحُبِّبَ إِلَيْهِمْ عَذَابُ الْخَلْقِ كَمَا حُبِّبَ لِبَنِي آدَمَ أَكْلُ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.

{شِدَادٌ} أَيْ: شِدَادُ الْأَبْدَانِ.

وَقِيلَ: غِلَاظُ الْأَقْوَالِ شِدَادُ الْأَفْعَالِ.

وَقِيلَ: غِلَاظٌ فِي أَخْذِهِمْ أَهْلَ النَّارِ شِدَادٌ عَلَيْهِمْ.

يُقَالُ: فُلَانٌ شَدِيدٌ عَلَى فُلَانٍ، أَيْ: قَوِيٌّ عَلَيْهِ يُعَذِّبُهُ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ)[3].

وهي صفة مدح في الموحدين، كما...

---

[1] التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٦٦/٢٨) باختصار.

[2] التفسير الكبير للرازي (٥٧٢/٣٠) باختصار.

[3] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٩٦/١٨).

أ- قال الله ﷻ: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ}[الفتح: ٢٩].

قال الطبري: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ، غَلِيظَةٌ عَلَيْهِمْ قُلُوبُهُمْ، قَلِيلَةٌ بِهِمْ رَحْمَتُهُمْ)[١].

وقال البغوي: (غِلَاظٌ عَلَيْهِمْ كَالْأَسَدِ عَلَى فَرِيسَتِهِ، لَا تَأْخُذُهُمْ فِيهِمْ رَأْفَةٌ)[٢].

وقال ابن كثير: (هَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ شَدِيدًا عَنِيفًا عَلَى الْكَفَّارِ... غَضُوبًا عَبُوسًا فِي وَجْهِ الْكَافِرِ)[٣].

وقال أبو السعود: (الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ لِمَنْ خَالَفَ دِينَهُمُ الشِّدَّةَ وَالصَّلَابَةَ)[٤].

وقال ابن عاشور: (أَشِدَّاءُ: جَمْعُ شَدِيدٍ، وَهُوَ الْمَوْصُوفُ بِالشِّدَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَهِيَ صَلَابَةُ الْمُعَامَلَةِ وَقَسَاوَتُهَا...

وَالشِّدَّةُ عَلَى الْكُفَّارِ: هِيَ الشِّدَّةُ فِي قِتَالِهِمْ وَإِظْهَارُ الْعَدَاوَةِ لَهُمْ، وَهَذَا وَصْفُ مَدْحٍ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ مَعَ النَّبِيءِ ﷺ كَانُوا هُمْ فِئَةَ الْحَقِّ وَنَشْرِ الْإِسْلَامِ، فَلَا يَلِيقُ بِهِمْ إِلَّا إِظْهَارُ الْغَضَبِ لِلَّهِ، وَالْحُبِّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضِ فِي اللَّهِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَصْحَابُ النَّبِيءِ ﷺ أَقْوَى الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا مِنْ أَجْلِ إشراق أَنْوَارِ النُّبُوءَةِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، فَلَا جَرَمَ أَنْ يَكُونُوا أَشَدَّ عَلَى الْكُفَّارِ، فَإِنَّ بَيْنَ نُفُوسِ الْفَرِيقَيْنِ تَمَامَ الْمُضَادَّةِ، وَمَا كَانَتْ كَرَاهِيَتُهُمْ لِلصُّلْحِ مَعَ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَرَغْبَتُهُمْ فِي قَتْلِ أَسْرَاهُمُ الَّذِينَ ثَقِفُوهُمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَعَفَا عَنْهُمُ النَّبِيءُ ﷺ إِلَّا مِنْ آثَارِ شِدَّتِهِمْ عَلَى الْكُفَّارِ... وَلِذَلِكَ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُحَاوَرَةً فِي إِبَاءِ الصُّلْحِ يَوْمَئِذٍ أَشَدَّ أَشِدَّائِهِمْ عَلَى الْكُفَّارِ، وَهُوَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ)[٥].

وقد روي (عَنِ الْحَسَنِ ﷺ: بَلَغَ مِنْ تَشَدُّدِهِمْ عَلَى الْكُفَّارِ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَرَّزُونَ مِنْ ثِيَابِهِمْ أَنْ تَلْزَقَ بِثِيَابِهِمْ، وَمِنْ أَبْدَانِهِمْ أَنْ تَمَسَّ أَبْدَانَهُمْ)[٦].

---

[١] جامع البيان للطبري (٢١/٣٢١).

[٢] معالم التنزيل للبغوي (٧/٣٢٣).

[٣] تفسير القرآن لابن كثير (٧/٣٦٠) باختصار.

[٤] إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٨/١١٤).

[٥] التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦/٢٠٤) باختصار.

[٦] الكشاف للزمخشري (٤/٣٤٦).

قلت: أما مس الثياب فكأنه إشارة لما ورد في السيرة، إذ قدم أبو سفيان ﷺ ليجدد عقد الحديبية (فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَوَتْهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ، مَا أَدْرِي أَرَغِبْتُ بِي عَنْ هَذَا الْفِرَاشِ أَمْ رَغِبْتُ بِهِ عَنِّي؟ قَالَتْ: بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنْتَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ نَجَسٌ، وَلَمْ أُحِبَّ أَنْ تَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)[1].

وأما مس البدن فكأنه مستقى مما في السيرة أيضاً، (لَمَّا قُتِلَ عَاصِمٌ أَرَادَتْ هُذَيْلٌ أَخْذَ رَأْسِهِ، لِيَبِيعُوهُ مِنْ سُلَافَةَ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ شُهَيْدٍ، وَكَانَتْ قَدْ نَذَرَتْ حِينَ أَصَابَ ابْنَيْهَا يَوْمَ أُحُدٍ: لَئِنْ قَدَرَتْ عَلَى رَأْسِ عَاصِمٍ لَتَشْرَبَنَّ فِي قِحْفِهِ الْخَمْرَ، فَمَنَعَتْهُ الدَّبْرُ، فَلَمَّا حَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمُ الدَّبْرُ قَالُوا: دَعُوهُ يُمْسِي فَتَذْهَبُ عَنْهُ، فَنَأْخُذُهُ. فَبَعَثَ اللَّهُ الْوَادِيَ، فَاحْتَمَلَ عَاصِمًا، فَذَهَبَ بِهِ. وَقَدْ كَانَ عَاصِمٌ قَدْ أَعْطَى اللَّهَ عَهْدًا أَنْ لَا يَمَسَّهُ مُشْرِكٌ، وَلَا يَمَسَّ مُشْرِكًا أَبَدًا، تَنَجُّسًا، فَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ: حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ الدَّبْرَ مَنَعَتْهُ: يَحْفَظُ اللَّهُ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ، كَانَ عَاصِمٌ نَذَرَ أَنْ لَا يَمَسَّهُ مُشْرِكٌ، وَلَا يَمَسَّ مُشْرِكًا أَبَدًا فِي حَيَاتِهِ، فَمَنَعَهُ اللَّهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ، كَمَا امْتَنَعَ مِنْهُ فِي حَيَاتِهِ)[2].

ب- وقال الله ﷻ: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} [محمد: ٤].

قال البغوي: ({فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} يَعْنِي فِي الْأَسْرِ، حَتَّى لَا يُفْلِتُوا مِنْكُمْ)[3].

وقال القرطبي: (أَمَّا الْوِثَاقُ... فَهُوَ اسْمُ الشَّيْءِ الَّذِي يُوثَقُ بِهِ كَالرِّبَاطِ، قَالَهُ الْقُشَيْرِيُّ)[4].

وقال ابن عاشور: (الشَّدُّ: قُوَّةُ الرَّبْطِ، وَقُوَّةُ الْإِمْسَاكِ.

وَالْوَثَاقُ... هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ الْأَسْرِ؛ لِأَنَّ الْأَسْرَ يَسْتَلْزِمُ الْوَضْعَ فِي الْقَيْدِ يُشَدُّ بِهِ الْأَسِيرُ)[5].

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام (٢/٣٩٦).

[2] المصدر السابق (٢/١٧١).

[3] معالم التنزيل للبغوي (٧/٢٧٨).

[4] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦/٢٢٦) باختصار.

[5] التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦/٨٠) باختصار.

قلت: وتطبيقاً لهذا المنهج في الشدة على الكافرين، كان رسول الله ﷺ في قتاله مع الكفار، وبذا شهد عليه أصحابه ﷺ، فهذا البراء ﷺ يصف حالاً رآه في معركة حنين، ثم يقول: (فَمَا رُئِيَ مِنَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ أَشَدُّ مِنْهُ)[1].

والشدة تناسب القتال عند كل ذي لب وبصر؛ لذلك تعلقت بها لزوماً، كما قال الله ﷻ: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا}[الإسراء: ٤، ٥].

قال الطبري: (ذَوِي بَطْشٍ فِي الْحُرُوبِ شَدِيدٍ)[2].

وقال أبو حيان: (أَيْ: قِتَالٍ وَحَرْبٍ شَدِيدٍ لِقُوَّتِهِمْ وَنَجْدَتِهِمْ وَكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ)[3].

وقال ابن كثير: (أَيْ: قُوَّةٍ وَعُدَّةٍ وَسُلْطَةٍ شَدِيدَةٍ)[4].

وقال الشوكاني: (أَيْ: قُوَّةٍ فِي الْحُرُوبِ، وَبَطْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ)[5].

وقال ابن عاشور: (الْبَأْسُ: الشَّوْكَةُ وَالشِّدَّةُ فِي الْحَرْبِ، وَوَصَفَهُ بِالشَّدِيدِ لِقُوَّتِهِ فِي نَوْعِهِ)[6].

قلت: ونحن لسنا بحاجة لتتبع أسماء الموصوفين، ولا درجة إيمانهم؛ فالحدث يرصد حقيقة الحال، وهو الذي يعنينا، فإن المقاتلين أولي البأس الشديد في قتالهم وعدتهم وفعالهم هم من تتحقق منهم النكاية في العدو، لا اللكع الخنع الخدج؛ لذلك منَّ الله ﷻ على عباده بقوله: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}[الحديد: ٢٥]، ففي الحديد بأس شديد، لمن لم يهتدِ بالكتاب المجيد.

---

[1] الجامع للبخاري (٤/٦٧) برقم (٣٠٤٢).

[2] جامع البيان للطبري (١٤/٤٧٠).

[3] البحر المحيط لأبي حيان (٧/١٤).

[4] تفسير القرآن لابن كثير (٥/٤٧).

[5] فتح القدير للشوكاني (٣/٢٤٩).

[6] التحرير والتنوير لابن عاشور (١٥/٣١).

ولأن الدول والأمم تسعى سعي الحثيث لتحقيق هذا المتطلب القتالي، فقد ذكر من صفة الأقوام السالفة من حقق الأمر، فقال الله ﷻ في قوم ملكة سبأ: {قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ}[النمل:٣٣]، وقال في غيرهم من المعاصرين، فيما سيعرض لهم مستقبلاً: {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ}[الفتح:١٦].

فهذا تسجيل لحقيقة وقوة العدو، والتي لا يجب الاستهانة بها، أو التقليل من شأنها، فإذا كان هذا في الكافرين، فأولى به أن يكون في الموحدين.

* ومن مظاهر الشدة:

أ- ما في قول الله ﷻ: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ}[محمد:٤]، وقد أرشدت الموحدين لطريقتي الحسم في التعامل مع الكفار:

١- القتل: بفصل الرقاب عن الأجساد، وهي الطريقة المثلى لفل شوكتهم، وقطع دابرهم.

٢- الأسر: وهو فصل الكفار عن بعضهم البعض، وذلك لمنع تآلفهم، واجتماع قوتهم.

وكلاهما يحملان من معاني الشدة والقسوة ما يعلمه من هجر الأسِرة وخادن الرماح، ومصداقه حكم سعد ﷺ في بني قريظة، وقد ظنوا به رحمة بهم وشفقة – وهو الحليف سابقاً-، فإذا به يحكم فيهم بقتل المقاتلة وسبي الذرية، حكماً وافق فيه حكم الله ﷻ ومنهجه، وليس السبي ببعيد عن الأسر، فهو أسر مُفرّق لهم ومُمزق.

ب- وقال رسول الله ﷺ: (اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ[1]، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ)[2].

قال ابن حجر: (الْمُرَادُ اشْدُدْ عَلَيْهِمُ الْبَأْسَ وَالْعُقُوبَةَ وَالْأَخْذَ الشَّدِيدَ)[3].

وقال النووي: (أَيِ: اجْعَلْهَا سِنِينَ شِدَادًا ذَوَاتِ قَحْطٍ وَغَلَاءٍ)[1].

---

[1] قال ابن حجر في فتح (١١/١٩٤): (الْمُرَادُ بِمُضَرَ الْقَبِيلَةُ الْمَشْهُورَةُ الَّتِي مِنْهَا جَمِيعُ بُطُونِ قَيْسٍ وَقُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ، وَهُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ أَيْ كُفَّارَ مُضَرَ).

[2] الجامع للبخاري (٤/٤٤) برقم (٢٩٣٢)، والمسند لمسلم (١/٤٦٦) برقم (٦٧٥)، عن أبي هريرة ﷺ.

[3] فتح الباري لابن حجر (٦/١٠٦).

ج- ما رووه (عَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ، أَتَى عَلَى سَلْمَانَ، وَصُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا: وَاللهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللهِ مَأْخَذَهَا)[2].

فهذا أمير الحرب يتغيظ الموحدون حرقاً أن نجا من سيوفهم، فيتمنون رجعة لعلها تشفي ما في صدورهم، لا كمن رق ولان بمجرد الهدنة، فتسكع مع الكافرين، وترنح من سكرة الصلح، فباع الدم بالنبيذ، إذ الموحد شديد في حربه وسلمه، والطائفة المنصورة مدرسة رجال، يلهو فيها المنتسب بين الفرس والقوس لغاية الانتقال لا التموضع، مدرسة حقة لا روضة أطفال، لهوها بين دوارة وأرجوحة، تنتهي اللعبة حيث البداية دائماً، ولابد أن يعلم الكافر هذا، فلا صلح يؤدم بين المتعاديين، والعداوة لا تنقلب لضدها بغير سلم كامل، وهو دخول الكفار في الإسلام، لا وضع الحرب أوزارها، فهذه حالة عرضية، والأصل بقاء الأصل على حاله.

د- ما جاء في حديث الحديبية ومحاورة سهيل بن عمرو لرسول الله ﷺ، وفيه: (وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَعَهُ السَّيْفُ، وَعَلَيْهِ المِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)[3].

هـ- وفي غزوة بدر، (قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: ثُمَّ إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ حَفْنَةً مِنْ الْحَصْبَاءِ فَاسْتَقْبَلَ قُرَيْشًا بِهَا، ثُمَّ قَالَ: "شَاهَتْ الْوُجُوهُ"، ثُمَّ نَفَحَهُمْ بِهَا، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ: "شُدُّوا"، فَكَانَتْ الْهَزِيمَةُ، فَقَتَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ قُتِلَ مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ، وَأَسَرَ مَنْ أَسَرَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ.

فَلَمَّا وَضَعَ الْقَوْمُ أَيْدِيَهُمْ يَأْسِرُونَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْعَرِيشِ، وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ قَائِمٌ عَلَى بَابِ الْعَرِيشِ، الَّذِي فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مُتَوَشِّحَ السَّيْفِ، فِي نَفَرٍ مِنْ الْأَنْصَارِ يَحْرُسُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَخَافُونَ عَلَيْهِ كَرَّةَ الْعَدُوِّ، وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وَجْهِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ الْكَرَاهِيَةَ لِمَا يَصْنَعُ النَّاسَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَاَللَّهِ، لَكَأَنَّكَ يَا سَعْدُ تَكْرَهُ مَا يَصْنَعُ الْقَوْمَ".

---

[1] المنهاج للنووي (٥/١٧٧).

[2] المسند لمسلم (٤/١٩٤٧) برقم (٢٥٠٤).

[3] الجامع للبخاري (٣/١٩٣) برقم (٢٧٣١) عن المسور ومروان رضي الله عنهما.

قَالَ: أَجَلْ وَاَللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَانَتْ أَوَّلَ وَقْعَةٍ أَوْقَعَهَا اللَّهُ بِأَهْلِ الشِّرْكِ، فَكَانَ الْإِثْخَانُ فِي الْقَتْلِ بِأَهْلِ الشِّرْكِ أَحَبَّ إلَيَّ مِنْ اسْتِبْقَاءِ الرِّجَالِ)[١].

و- وقال ابن كثير: (اسْتَدْعَى خَالِدٌ مَالِكَ بْنَ نُوَيْرَةَ فَأَنَّبَهُ عَلَى مَا صَدَرَ مِنْهُ مِنْ مُتَابَعَةِ سَجَاحِ، وَعَلَى مَنْعِهِ الزَّكَاةَ، وَقَالَ: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهَا قَرِينَةُ الصَّلَاةِ؟

فَقَالَ مَالِكٌ: إِنَّ صَاحِبَكُمْ كَانَ يَزْعُمُ ذَلِكَ.

فَقَالَ: أَهْوَ صَاحِبُنَا وَلَيْسَ بِصَاحِبِكَ؟! يَا ضِرَارُ، اضْرِبْ عُنُقَهُ.

فَضَرَبَ عُنُقَهُ، وَأَمَرَ بِرَأْسِهِ فَجُعِلَ مَعَ حَجَرَيْنِ، وَطُبِخَ عَلَى الثَّلَاثَةِ قِدْرًا، فَأَكَلَ مِنْهَا خَالِدٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ لِيُرْهِبَ بِذَلِكَ الْأَعْرَابَ مِنَ الْمُرْتَدَّةِ وَغَيْرِهِمْ)[٢].

---

[١] السيرة النبوية لابن هشام (١/٦٢٨) باختصار.

[٢] البداية والنهاية لابن كثير (٩/٤٦١، ٤٦٢).

العلامة الرابعة عشر

"الصغار"

الصغار: الدنو في الرتبة، والانحطاط في المكانة، قال الراغب: (الصَّاغِرُ: الرَّاضِي بِالْمَنْزِلَةِ الدَّنِيَّةِ)[1].

وهذا الصغار يناسب الذلة، لذلك اقترنا في تهديد سليمان ﷺ لمن يأبى النزول تحت حكم الله ﷻ، وهو وإن كان فعلاً من النبي الكريم، فهو من أمر الله ﷻ وحكمه، كما...

أ – قال الله ﷻ: {ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ} [النمل: ٣٧].

قال ابن عاشور: (الصَّاغِرُ: الذَّلِيلُ)[2].

قلت: وهو مما ينبغي على مجاهدي التوحيد تحقيقه وتطبيقه؛ لكي يكونوا في حربهم أو تلويحهم بها بلا هوادة أو تهاون، ولا يستكينوا أو يلينوا في خطاب الأعداء، ثم ليعلنوها حرباً لا شفقة فيها، بفرض الذل والصغار على الكافرين، من بعد أن يخرجوهم من ديارهم، أو من عزهم وسلطانهم؛ ليكونوا أرقاء أذلاء مهانون، كما هو جدير بكل كافر عصي.

مع زيادة تستقى من تهديد سليمان ﷺ، فقوله هذا بعد الهدية والإمداد، رسالة لكل من سار على الدرب، أن من رضي بمبدأ المفاوضة أو المساومة، فقد رضي بالتنازل علم ذلك أم جهل، وأن من عمل بالجهاد معاملة التجار في السلع، أو الكانزين في الذهب والفضة، فقد أضاع الفريضة، وأن من أغناه الله ﷻ بجنده، فليس بحاجة لمال الكافر وهداياه.

وقد أمرنا الله ﷻ بفرض الصغار على الكافرين بعد قتالهم ونزع ما بأيديهم، كما...

---

[1] المفردات للراغب الأصفهاني (٤٨٥/١).

[2] التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦٩/١٩).

ب- قال الله ﷻ: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[بالتوبة: ٢٩].

قال الشافعي: (سَمِعْت عَدَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُونَ: "الصَّغَارُ أَنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِمْ حُكْمُ الْإِسْلَامِ"، وَمَا أَشْبَهَ مَا قَالُوا بِمَا قَالُوا؛ لِامْتِنَاعِهِمْ مِنْ الْإِسْلَامِ، فَإِذَا جَرَى عَلَيْهِمْ حُكْمُهُ، فَقَدْ أُصْغِرُوا بِمَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ مِنْهُ)[1].

وقال الطبري: (مَعْنَاهُ: وَهُمْ أَذِلَّاءُ مَقْهُورُونَ، يُقَالُ لِلذَّلِيلِ الْحَقِيرِ: صَاغِرٌ)[2].

وقال النحاس: (أَكْثَرُ أَهْلِ اللُّغَةِ عَلَى أَنَ الْمَعْنَى: عَنْ قَهْرٍ وَذِلَّةٍ)[3].

وقال ابن كثير: ({وَهُمْ صَاغِرُونَ} أَيْ: ذَلِيلُونَ حَقِيرُونَ مُهَانُونَ؛ فَلِهَذَا لَا يَجُوزُ إِعْزَازُ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَلَا رَفْعُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، بَلْ هُمْ أَذِلَّاءٌ صَغَرَةٌ أَشْقِيَاءٌ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ، وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ"[4].

وَلِهَذَا اشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ تِلْكَ الشُّرُوطِ الْمَعْرُوفَةَ فِي إِذْلَالِهِمْ وَتَصْغِيرِهِمْ وَتَحْقِيرِهِمْ، وَذَلِكَ مِمَّا رَوَاهُ الْأَئِمَّةُ الْحُفَّاظُ، مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَنْمٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: كَتَبْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ حِينَ صَالَحَ نَصَارَى مِنْ أَهْلِ الشَّامِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ لِعَبْدِ اللَّهِ عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَصَارَى مَدِينَةِ كَذَا وَكَذَا، إِنَّكُمْ لَمَّا قَدِمْتُمْ عَلَيْنَا سَأَلْنَاكُمُ الْأَمَانَ لِأَنْفُسِنَا وَذَرَارِينَا وَأَمْوَالِنَا وَأَهْلِ مِلَّتِنَا، وَشَرَطْنَا لَكُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا، أَلَّا نُحْدِثَ فِي مَدِينَتِنَا وَلَا فِيمَا حَوْلَهَا دَيْرًا وَلَا كَنِيسَةً، وَلَا قَلَّايَةً وَلَا صَوْمَعَةَ رَاهِبٍ، وَلَا نُجَدِّدَ مَا خَرِبَ مِنْهَا، وَلَا نُحْيِيَ مِنْهَا مَا كَانَ خُطَطَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَلَّا نَمْنَعَ كَنَائِسَنَا أَنْ يَنْزِلَهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ، وَأَنْ نُوَسِّعَ أَبْوَابَهَا لِلْمَارَّةِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَأَنْ يَنْزِلَ مَنْ مَرَّ بِنَا مِنَ

---

[1] الأم للشافعي (٤/ ١٨٦).

[2] جامع البيان للطبري (١١/٤٠٧).

[3] معاني القرآن للنحاس (٣/١٩٩).

[4] المسند الصحيح لمسلم (٤/١٧٠٧) برقم (٢١٦٧).

الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ نُطْعِمُهُمْ، وَلَا نَأْوِي فِي كَنَائِسِنَا وَلَا مَنَازِلِنَا جَاسُوسًا، وَلَا نَكْتُمَ غِشًّا لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَا نُعَلِّمَ أَوْلَادَنَا الْقُرْآنَ، وَلَا نُظْهِرَ شِرْكًا، وَلَا نَدْعُوَ إِلَيْهِ أَحَدًا، وَلَا نَمْنَعَ أَحَدًا مِنْ ذَوِي قَرَابَتِنَا الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ إِنْ أَرَادُوهُ، وَأَنْ نُوَقِّرَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ نَقُومَ لَهُمْ مِنْ مَجَالِسِنَا إِنْ أَرَادُوا الْجُلُوسَ، وَلَا نَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ مَلَابِسِهِمْ، فِي قَلَنْسُوَةٍ، وَلَا عِمَامَةٍ، وَلَا نَعْلَيْنِ، وَلَا فَرْقِ شَعْرٍ، وَلَا نَتَكَلَّمَ بِكَلَامِهِمْ، وَلَا نَكْتَنِيَ بِكُنَاهم، وَلَا نَرْكَبَ السُّرُوجَ، وَلَا نَتَقَلَّدَ السُّيُوفَ، وَلَا نَتَّخِذَ شَيْئًا مِنَ السِّلَاحِ، وَلَا نَحْمِلَهُ مَعَنَا، وَلَا نَنْقُشَ خَوَاتِيمَنَا بِالْعَرَبِيَّةِ، وَلَا نَبِيعَ الْخُمُورَ، وَأَنْ نَجُزَّ مَقَادِيمَ رُءُوسِنَا، وَأَنْ نَلْزَمَ زِيَّنَا حَيْثُمَا كُنَّا، وَأَنْ نَشُدَّ الزَّنَانِيرَ عَلَى أَوْسَاطِنَا، وَأَلَّا نُظْهِرَ الصَّلِيبَ عَلَى كَنَائِسِنَا، وَأَلَّا نُظْهِرَ صُلُبَنَا وَلَا كُتُبَنَا فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَسْوَاقِهِمْ، وَلَا نَضْرِبَ نَوَاقِيسَنَا فِي كَنَائِسِنَا إِلَّا ضَرْبًا خَفِيًّا، وَأَلَّا نَرْفَعَ أَصْوَاتَنَا بِالْقِرَاءَةِ فِي كَنَائِسِنَا فِي شَيْءٍ مِنْ حَضْرَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا نُخْرِجَ شَعَانِينَ وَلَا بَاعُوثًا، وَلَا نَرْفَعَ أَصْوَاتَنَا مَعَ مَوْتَانَا، وَلَا نُظْهِرَ النِّيرَانَ مَعَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا أَسْوَاقِهِمْ، وَلَا نُجَاوِرَهُمْ بِمَوْتَانَا، وَلَا نَتَّخِذَ مِنَ الرَّقِيقِ مَا جَرَى عَلَيْهِ سِهَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ نُرْشِدَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا نَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ.

قَالَ: فَلَمَّا أَتَيْتُ عُمَرَ بِالْكِتَابِ، زَادَ فِيهِ: وَلَا نَضْرِبُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، شَرَطْنَا لَكُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِنَا وَأَهْلِ مِلَّتِنَا، وَقَبِلْنَا عَلَيْهِ الْأَمَانَ)[1].

وقال الشربيني: (أَيْ: أَذِلَّاءَ مُنْقَادُونَ لِحُكْمِ الإِسْلَامِ)[2].

وقال ابن عاشور: (الْمَقْصُودُ مِنْهُ تَعْظِيمُ أَمْرِ الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَتَحْقِيرُ أَهْلِ الْكُفْرِ لِيَكُونَ ذَلِكَ تَرْغِيبًا لَهُمْ فِي الِانْخِلَاعِ عَنْ دِينِهِمُ الْبَاطِلِ، وَاتِّبَاعِهِمْ دِينَ الْإِسْلَامِ)[3].

قلت: يجب التفريق بين أمرين، من خلط بينهما، فقد اختلط عليه الأمر، أو أنه ضيَّع جانباً من الشريعة مهم، وهما:

الأول: أن الجزية في ذاتها صغار وإذلال لهم.

---

[1] تفسير القرآن لابن كثير (٤/١٣٣، ١٣٤)، والرواية في السنن الكبرى للبيهقي (٩/٣٣٩) برقم (١٨٧١٧).

[2] السراج المنير للشربيني (١/٤٧٥).

[3] التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠/ ١٦٧).

والثاني: أن طريقة أدائها يجب أن تناسب الصغار والذلة، قال ابن القيم: (مِنْ ضُرُوبِ الطَّاعَاتِ إِهَانَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ الَّتِي هُمْ إِلَيْهَا صَائِرُونَ، وَمِنْ حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى الْوَاجِبَةِ أَخْذُ جِزْيَةِ رُءُوسِهِمُ الَّتِي يُعْطُونَهَا عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ.

وَمِنَ الْأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ... أَلَّا يُسَامَحَ بِهَا أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَوْ كَانَ فِي قَوْمِهِ عَظِيمًا، وَأَلَّا يُقْبَلَ إِرْسَالُهُ بِهَا وَلَوْ كَانَ فِيهِمْ زَعِيمًا، وَأَلَّا يُحِيلَ بِهَا عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يُوَكِّلَ فِي إِخْرَاجِهَا عَنْهُ أَحَدًا مِنَ الْمُوَحِّدِينَ، وَأَنْ تُؤْخَذَ مِنْهُ عَلَى وَجْهِ الذِّلَّةِ وَالصَّغَارِ إِعْزَازًا لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَإِذْلَالًا لِطَائِفَةِ الْكُفَّارِ)[1].

ثم يعمم عليهم حكم الصغار، لا أنه يرفع عنهم بدفعها، قال ابن القيم: (لَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ يَكُونُوا صَاغِرِينَ حَالَ تَنَاوُلِ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ فَقَطْ، وَيُفَارِقُهُمُ الصَّغَارُ فِيمَا عَدَا هَذَا الْوَقْتَ، هَذَا بَاطِلٌ قَطْعًا)[2].

ج- وقال الله ﷻ: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ}[الأعراف:١١٧-١١٩].

قال البغوي: (ذَلِيلِينَ مَقْهُورِينَ)[3].

وقال البيضاوي: (أَيْ صَارُوا أَذِلَّاءَ مَبْهُوتِينَ، أَوْ رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ أَذِلَّاءَ مَقْهُورِينَ)[4].

وقال السعدي: (أَيْ: حَقِيرِينَ)[5].

قلت: هذا وإن كان خبراً من الله ﷻ للذي وقع على فرعون وقومه، أثراً لانقلاب العصا ثعباناً، فإن فيه تنبيهاً وتعليماً للموحد، أن إيقاع الحق وإزهاق الباطل، لابد وأن يتبعه غلبةً للكافرين وصغاراً لهم، فمنك أيها الموحد إقامة المنهج، وعلى الله ﷻ النتائج.

---

[1] أحكام أهل الذمة لابن القيم (٤٨٩/١) باختصار.

[2] المصدر السابق (١٣٧٧/٣).

[3] معالم التنزيل للبغوي (٢٦٦/٣).

[4] أنوار التنزيل للبيضاوي (٢٨/٣).

[5] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٢٩٩).

وإذا كانت الآيات السابقة تتناول المنهج القتالي في فرض الصغار على الكافرين، فهذه الآية تضيف إليه المنهج البياني، كمؤثر فاعل في إيقاع الصغار على المعاندين، وأن له فائدة لا تقل عن السيف وقعاً وأثراً.

العلامة الخامسة عشر

"العداوة"

قال الراغب: (العَدُوُّ: التجاوز ومنافاة الالتئام، فتارة يعتبر بالقلب، فيقال له: العداوة والمعاداة... يقال: رجل عدو، وقوم عدو، قال تعالى: {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}[طه: ١٢٣]... والعدو ضربان: أحدهما: بقصد من المعادي نحو: {فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ}[النساء: ٩٢]، {جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ}[الفرقان: ٣١]...
والثاني: لا بقصده، بل تعرض له حالة يتأذى بها كما يتأذى مما يكون من العِدَى، نحو قوله: {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ}[الشعراء: ٧٧])[١].
وقال إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن: (معنى العداوة: أن تكون في عدوة، والضد في عدوة أخرى)[٢].
أي: أن تكون في جانب والكافر في جانب مخالف، كما قال الله ﷻ في وصف الصفين: {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى}[الأنفال:٤]، وهذا حالهم حين المصافة في القتال، كما هي حقيقة حالهم مع الكفار.
وقال الجوهري: (العَدُوُّ: ضدُّ الوَلِيِّ)[٣]، وهو من باب التعريف بالضد.

ويرشح من هذا أن العداوة حالة قلبية تنافي المحبة والموالاة والقرب، فتترك أثرها على البدن والجوارح، فيصبح كلا الطرفين في عدوة من الآخر، أي: في بُعد وتنابذ وتنافر، ومن هنا وقعت موالاة المؤمنين موقعها، لما فيها من ألفة ومودة، مما يستحيل معها إلا معاداة الكافرين، هذا هو منهج الموحدين، ومن حاول الجمع بين الأضداد فهو قطعاً من المنافقين، ممن ظاهرهم مع المؤمنين وباطنهم مع الكافرين؛ أو هو من الضالين عن سبيل المؤمنين؛

---

[١] المفردات للراغب الأصفهاني (٥٣٣/١) باختصار.
[٢] الدرر السنية (٣٠٥/٨) باختصار.
[٣] الصحاح للجوهري (٢٤١٩/٦).

لذلك جعل الله ﷻ علامة الملة ائتلاف الموحدين، كإبراهيم عليه السلام ومن معه، في مقابل عداوة الكافرين، كما قال الله ﷻ: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}[الممتحنة: ٤].

قال الطبري: (يَقُولُ – جَلَّ ثَنَاؤُهُ– مُخْبِرًا عَنْ قِيلِ أَنْبِيَائِهِ لِقَوْمِهِمُ الْكَفَرَةِ:... ظَهَرَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا عَلَى كُفْرِكُمْ بِاللَّهِ، وَعِبَادَتِكُمْ مَا سِوَاهُ، وَلَا صُلْحَ بَيْنَنَا وَلَا هَوَادَةَ، {حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} يَقُولُ: حَتَّى تُصَدِّقُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، فَتُوَحِّدُوهُ، وَتُفْرِدُوهُ بِالْعِبَادَةِ)[1].

وقال الجصاص: (أَمَرَ اللَّهُ النَّاسَ بِالتَّأَسِّي بِهِمْ فِي إظْهَارِ مُعَادَاةِ الْكُفَّارِ وَقَطْعِ الْمُوَالَاةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ... فَهَذَا حُكْمٌ قَدْ تَعَبَّدَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ)[2].

وقال القرطبي: (أَيْ: هَذَا دَأْبُنَا مَعَكُمْ مَا دُمْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ، {حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} فَحِينَئِذٍ تَنْقَلِبُ الْمُعَادَاةُ مُوَالَاةً)[3].

وقال النسفي: ({الْعَدَاوَةُ} بِالْأَفْعَالِ {وَالْبَغْضَاءُ} بِالْقُلُوبِ)[4].

وقال ابن تيمية: (أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَأَسَّوْا بِإِبْرَاهِيمَ وَمَنْ مَعَهُ، حَيْثُ أَبْدَوْا الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ لِمَنْ أَشْرَكَ حَتَّى يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ حَالِ مَنْ لَا يَسْتَحْسِنُ حَسَنَةً وَلَا يَسْتَقْبِحُ سَيِّئَةً؟)[5].

وقال ابن كثير: (يَعْنِي: وَقَدْ شُرِّعَتِ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ مِنَ الْآنِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، مَا دُمْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ)[6].

---

[1] جامع البيان للطبري (٢٢/٥٦٦) باختصار.
[2] أحكام القرآن للجصاص (٥/٣٢٦) باختصار.
[3] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨/٥٦).
[4] مدارك التنزيل للنسفي (٣/٤٦٨).
[5] مجموع فتاوى ابن تيمية (٨/٣٦١).
[6] تفسير القرآن لابن كثير (٨/ ٨٧).

وقال ابن عاشور: (﴿وَبَدَا﴾ مَعْنَاهُ: ظَهَرَ وَنَشَأَ، أَيْ: أَحْدَثْنَا مَعَكُمُ الْعَدَاوَةَ ظَاهِرَةً لَا مُوَارَبَةَ فِيهَا، أَيْ لَيْسَتْ عَدَاوَةٌ فِي الْقَلْبِ خَاصَّةً، بَلْ هِيَ عَدَاوَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَانِيَةٌ بِالْقَوْلِ وَالْقَلْبِ.

وَهُوَ أَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُهُ أَمْثَالُهُمْ مِنْ دَرَجَاتِ تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ، وَهُوَ التَّغْيِيرُ بِاللِّسَانِ إِذْ لَيْسُوا بِمُسْتَطِيعِينَ تَغْيِيرِ مَا عَلَيْهِ قَوْمُهُمْ بِالْيَدِ لِقِلَّتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ بَيْنَ قَوْمِهِمْ.

والْعَدَاوَةُ: الْمُعَامَلَةُ بِالسُّوءِ وَالِاعْتِدَاءِ.

والْبَغْضَاءُ: نَفْرَةُ النَّفْسِ، وَالْكَرَاهِيَةُ وَقَدْ تُطْلَقُ إِحْدَاهُمَا فِي مَوْضِعِ الْأُخْرَى إِذَا افْتَرَقَتَا، فَذِكْرُهُمَا مَعًا هُنَا مَقْصُودٌ بِهِ حُصُولُ الْحَالَتَيْنِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَالَةُ الْمُعَامَلَةِ بِالْعُدْوَانِ، وَحَالَةُ النُّفْرَةِ وَالْكَرَاهِيَةِ، أَيْ: نُسِيءُ مُعَامَلَتَكُمْ وَنُضْمِرُ لَكُمُ الْكَرَاهِيَةَ حَتَّى تؤمنوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ دُونَ إِشْرَاكٍ.

وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ هَذَا لِقَوْمِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوهُ مَقَالَ الصَّادِقِ فِي قَوْلِهِ، فَالِائْتِسَاءِ بِهِمْ فِي ذَلِكَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ بِمَا يُتَرْجِمُ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِمَّا فِي النُّفُوسِ، فَالْمُؤْتَسَى بِهِ أَنَّهُمْ كَاشَفُوا قَوْمَهُمْ بِالْمُنَافَرَةِ، وَصَرَّحُوا لَهُمْ بِالْبَغْضَاءِ لِأَجْلِ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَلِمَ يُصَانِعُوهُمْ وَيَغُضُّوا عَنْ كُفْرِهِمْ لِاكْتِسَابِ مَوَدَّتِهِمْ)[1].

وقال السعدي: (صَرَّحُوا بِعَدَاوَتِهِمْ غَايَةَ التَّصْرِيحِ، فَقَالُوا: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا﴾ أَيْ: ظَهَرَ وَبَانَ ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ أَي: الْبُغْضُ بِالْقُلُوبِ، وَزَوَالُ مَوَدَّتِهَا، وَالْعَدَاوَةِ بِالْأَبْدَانِ، وَلَيْسَ لِتِلْكَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَقْتٌ وَلَا حَدٌّ، بَلْ ذَلِكَ ﴿أَبَدًا﴾ مَا دُمْتُمْ مُسْتَمِرِّينَ عَلَى كُفْرِكُمْ ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ أَيِ :فَإِذَا آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، زَالَتِ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ، وَانْقَلَبَتْ مَوَدَّةً وَوِلَايَةً)[2].

وقال إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن: (معنى: ﴿وَبَدَا﴾ ظهر، وقرن بين العداوة والبغضاء إشارة إلى المباعدة والمفارقة، بالباطن والظاهر معاً، وأكد العداوة وأيدها بقوله: ﴿أَبَداً﴾، معبراً

---

[1] التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨/١٤٤، ١٤٥).

[2] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/ ٨٥٤).

بالظرف الزماني المستقبل المستمر، إلى غاية وهي الإيمان، وأتى بحتى الغائية، الدالة على مغايرة ما قبلها لما بعدها، المعنى: إن لم تؤمنوا فالعداوة باقية)[١].

قلت: مفيد جداً أن نستحضر سيرة أهل العزائم ممن صرحوا بمعتقدهم لقومهم، فقالوا بالتوحيد واجتنبوا الشرك، وأبانوا منهجهم في التعامل مع المخالفين، وهي درجة تفوق درجة السكوت، المفسَر عند كل طرف بما يرفع عنه الملامة، فالمنكِر – أو من يجب عليه ذلك– يقول: قد سقط عني التكليف بالعجز، وما يسعني إلا الأخذ بالرخصة، وأضعف الإيمان خير من عدمه.

والمنكَر عليه – أو من هو محله– يقول لأتباعه، بل وللمخالفين له المصرحين بعداوته: لو كنا على باطل لأنكر علينا فلان، أو لما سكت عنا علان.

لذلك فَر الموحد من هذه الإلزامات بالجمع بين البغضاء القلبية والعداوة اللسانية، فحقق درجتي النهي عن المنكر، لما عجز عن جهادهم باليد، فكان ذلك من أبلغ الأداء، وهي مسألة مقدرة بأشخاص وأزمان وأمكنة، والتفاوت فيها واضح، وليس المتقدم فيها كالمتباطئ، ولا الطليعة كالمؤخرة.

* ومن سير المنهج ما قاله ابن القيم: (أَقَامَ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ ثَلَاثَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مُسْتَخْفِيًا، ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}[الحجر: ٩٤]. فَأَعْلَنَ ﷺ بِالدَّعْوَةِ وَجَاهَرَ قَوْمَهُ بِالْعَدَاوَةِ، وَاشْتَدَّ الْأَذَى عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ لَهُمْ بِالْهِجْرَتَيْنِ)[٢].

* ومن منهج الاعتقاد:

أ– قال ابن القيم: (لَا تَصِحُّ الْمُوَالَاةُ إِلَّا بِالْمُعَادَاةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ إِمَامِ الْحُنَفَاءِ الْمُحِبِّينَ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ}[الشُّعَرَاءِ: ٧٥ – ٧٧].

---

[١] الدرر السنية (١٢/٤٠٨، ٤٠٩).

[٢] زاد المعاد لابن القيم (١/٨٤).

فَلَمْ يَصِحَّ لِخَلِيلِ اللَّهِ هَذِهِ الْمُوَالَاةُ وَالْخُلَّةُ، إِلَّا بِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْمُعَادَاةِ، فَإِنَّهُ لَا وَلَاءَ إِلَّا بِالْبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ)[1].

ب- وقال محمد بن عبد الوهاب: (الإنسان لا يستقيم له إسلام، ولو وحد الله وترك الشرك، إلا بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغضاء)[2].

ج- وقال سليمان بن سحمان: (الله – سبحانه- أوجب على العبد الهجرة من ديار المشركين، والبعد عنهم، وعدم مساكنتهم ومجامعتهم، وأوجب عليه معاداتهم، ومباداتهم بالعداوة والبغضاء، والتصريح لهم بذلك... [وذكر الآية ثم قال:] فهذه هي ملة إبراهيم، التي قال الله فيها {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ}[البقرة: ١٣٠].

فعلى المسلم أن يعادي أعداء الله، ويظهر عداوتهم، ويتباعد عنهم كل التباعد، وأن لا يواليهم، ولا يعاشرهم، ولا يخالطهم)[3].

د- وقال إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن: (انظر إلى هذا البيان الذي ليس بعده بيان، حيث قال: {وَبَدَا بَيْنَنَا} أي: ظهر؛ هذا هو إظهار الدين، فلا بد من التصريح بالعداوة، وتكفيرهم جهاراً، والمفارقة بالبدن...

وقلب المؤمن لا يخلو من عداوة الكافر، وإنما النزاع في إظهار العداوة)[4].

---

[1] الداء والدواء لابن القيم (١٩٥).

[2] الدرر السنية (٨/١١٣).

[3] المصدر السابق (٨/٤٦٣، ٤٦٤) باختصار.

[4] المصدر السابق (٨/٣٠٥) باختصار.

العلامة السادسة عشر

"العزة"

قال الجوهري: (العِزَّةُ: وَهِيَ القُوَّةُ وَالغَلَبَةُ)[1].

وقال الراغب: (العزة: حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب... قال تعالى: {أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً}[النساء: ١٣٩]... {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}[المنافقون: ٨]، {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ}[الصافات: ١٨٠]، فقد يمدح بالعزة تارة كما ترى، ويذم بها تارة كعزة الكفار، قال: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}[ص: ٢].

ووجه ذلك أن العزة التي لله ولرسوله وللمؤمنين هي الدائمة الباقية، التي هي العزة الحقيقية، والعزة التي هي للكافرين هي التعزز، وهو في الحقيقة ذل... وعلى هذا قوله: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا}[مريم: ٨١]، أي: ليتمنعوا به من العذاب، وقوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً}[فاطر: ١٠]، معناه: من كان يريد أن يَعِزَّ يحتاج أن يكتسب منه – تعالى– العزة فإنها له، وقد تستعار العزة للحمية والأنفة المذمومة، وذلك في قوله: {أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ}[البقرة:٢٠٦])[2].

والموحد ما دام موحداً فهو عزيز بذاته، وبما أفاض الله ﷻ عليه من نعمه، ومتعزز بعزة الله ﷻ، والكافر ذليل؛ لصغار نفسه، وهوان معبوده، ومنه يظهر أن التعزز حالة ذاتية ومكتسبة، كما هو التصبر والتحلم، فليحرص الموحد عليه، فإنه مما يحبه الله ﷻ ويرضاه، كما قال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[المائدة: ٥٤].

---

[1] الصحاح للجوهري (٣/٨٨٦).

[2] المفردات للراغب الأصفهاني (١/٥٦٣) باختصار.

قال الطبري: (يَعْنِي بِقَوْلِهِ: {أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} أَشِدَّاءُ عَلَيْهِمْ غُلَظَاءُ بِهِمْ، مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: قَدْ عَزَّنِي فُلَانٌ: إِذَا أَظْهَرَ الْعِزَّةَ مِنْ نَفْسِهِ لَهُ، وَأَبْدَى لَهُ الْجَفْوَةَ وَالْغِلْظَةَ.

عَنْ عَلِيٍّ ، فِي قَوْلِهِ... {أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}: أَهْلُ غِلْظَةٍ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ فِي دِينِهِمْ)[١].

وقال السمعاني: (قَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٌ: "أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤَمِّنِينَ غُلَظَاءٍ عَلَى الكَافِرِينَ"، وَهِيَ مَعْنَى القِرَاءَةِ المَعْرُوفَةِ)[٢]، قال السمين الحلبي: (وَهُوَ تَفْسِيرٌ)[٣].

وقال البغوي: (أَيْ: أَشِدَّاءَ غِلَاظٍ عَلَى الْكُفَّارِ يُعَادُونَهُمْ وَيُغَالِبُونَهُمْ... قَالَ عَطَاءٌ: أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ: كَالْوَلَدِ لِوَالِدِهِ وَالْعَبْدِ لِسَيِّدِهِ، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ: كَالسَّبُعِ عَلَى فَرِيسَتِهِ)[٤].

وقال الرازي: (أَيْ: يُظْهِرُونَ الْغِلْظَةَ وَالتَّرَفُّعَ عَلَى الْكَافِرِينَ.

وَقِيلَ: يُعَازُّونَهُمْ، أَيْ: يُغَالِبُونَهُمْ... كَأَنَّهُمْ مُشَدِّدُونَ عَلَيْهِمْ بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ)[٥].

وقال القرطبي: (يَغْلُظُونَ عَلَى الْكَافِرِينَ وَيُعَادُونَهُمْ)[٦].

وقال ابن رجب: (يَعْنِي أَنَّهُمْ يُعَامِلُونَ الْكَافِرِينَ بِالْعِزَّةِ وَالشِّدَّةِ عَلَيْهِمْ، وَالْإِغْلَاظِ لَهُمْ)[٧].

وقال السعدي: (الْغِلْظَةُ الشَّدِيدَةُ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ مِمَّا يُقَرِّبُ الْعَبْدَ إِلَى اللَّهِ، وَيُوَافِقُ الْعَبْدُ رَبَّهُ فِي سَخَطِهِ عَلَيْهِمْ)[٨].

وقال الشنقيطي: (أَخْبَرَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُمْ إِنِ ارْتَدَّ بَعْضُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي عِوَضًا عَنْ ذَلِكَ الْمُرْتَدِّ بِقَوْمٍ مِنْ صِفَاتِهِمُ الذُّلُّ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَالتَّوَاضُعُ لَهُمْ، وَلِينُ الْجَانِبِ، وَالْقَسْوَةُ وَالشِّدَّةُ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَبِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ فَأَمَرَهُ بِلِينِ الْجَانِبِ لِلْمُؤْمِنِينَ، بِقَوْلِهِ: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ}[الحجر:٨٨]، وَقَوْلِهِ:

---

[١] جامع البيان للطبري (٨/٥٢٧) باختصار.

[٢] تفسير القرآن للسمعاني (٢/٤٧).

[٣] الدر المصون للسمين الحلبي (٤/٣١٠)، وانظر اللباب لابن عادل (٧/٣٩٣).

[٤] معالم التنزيل للبغوي (٣/٧٢).

[٥] التفسير الكبير للرازي (١٢/٣٨١) باختصار.

[٦] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/٢٢٠).

[٧] جامع العلوم والحكم لابن رجب (٣٣٩).

[٨] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/٢٣٥).

{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}[الشعراء:٢١٥]، وَأَمَرَهُ بِالْقَسْوَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ بِقَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[التوبة:٧٣/ التحريم:٩]... وَصَرَّحَ بِأَنَّ ذَلِكَ الْمَذْكُورَ مِنَ اللِّينِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَالشِّدَّةِ عَلَى الْكَافِرِينَ، مِنْ صِفَاتِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ﷺ، بِقَوْلِهِ: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}[الفتح:٢٩])[1].

قلت: من كمال التوحيد أن تظهر معالم الاعتقاد القلبي على الجوارح؛ لتكتمل بذلك دائرة الإيمان، ولما كانت الموالاة والمعاداة قلبية، كان لابد لتصح دعواها أن تظهر آثارها، وذلك بالتذلل للمؤمنين والتعزز على الكافرين، ومنه تخلص فوائد، منها:

الأولى: أن التعزز على الكافرين مما يوحي إليهم أن لا مطمع بلين الجانب عند المؤمنين، بل هو إذلال وهوان وصغار ما داموا على الكفر أبداً.

الثانية: أنه مما يقوي شوكة الموحدين، ويبث العزم في نفوسهم، ويصبرهم على بلواهم في حالة كانت الدارة عليهم أو لهم، كما قال ﷺ: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}[آل عمران:١٤٦].

قال الطبري: (يَعْنِي: وَمَا ذَلُّوا فَيَتَخَشَّعُوا لِعَدُوِّهِمْ بِالدُّخُولِ فِي دِينِهِمْ، وَمُدَاهَنَتِهِمْ فِيهِ، خِيفَةً مِنْهُمْ، وَلَكِنْ مَضَوْا قُدُمًا عَلَى بَصَائِرِهِمْ وَمِنْهَاجِ نَبِيِّهِمْ، صَبْرًا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَأَمْرِ نَبِيِّهِمْ، وَطَاعَةِ اللَّهِ، وَاتِّبَاعًا لَتَنْزِيلِهِ وَوَحْيِهِ.

{وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}[آل عمران: ١٤٦] يَقُولُ: وَاللَّهُ يُحِبُّ هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالَهُمْ مِنَ الصَّابِرِينَ لِأَمْرِهِ وَطَاعَتِهِ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، فِي جِهَادِ عَدُوِّهِ، لَا مَنْ فَشِلَ فَفَرَّ عَنْ عَدُوِّهِ، وَلَا مَنِ انْقَلَبَ عَلَى عَقِبَيْهِ فَذَلَّ لِعَدُوِّهِ لِأَنْ قُتِلَ نَبِيُّهُ أَوْ مَاتَ، وَلَا مَنْ دَخَلَهُ وَهَنٌ عَنْ عَدُوِّهِ وَضَعْفٍ لِفَقْدِ نَبِيِّهِ)[2].

وقال أبو حيان: (قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: مَا قَعَدُوا عَنِ الْجِهَادِ فِي دِينِهِمْ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: مَا ذَلُّوا.

وَقَالَ عَطَاءٌ: مَا تَضَرَّعُوا.

---

[1] أضواء البيان للشنقيطي (٤١٥/١) باختصار.

[2] جامع البيان للطبري (١١٧/٦).

وَقَالَ مُقَاتِلٌ: مَا اسْتَسْلَمُوا.

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: مَا جَبُنُوا.

وَقَالَ الْمُفَضَّلُ: مَا خَشَعُوا.

وَقَالَ قَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ: مَا ارْتَدُّوا عَنْ نُصْرَتِهِمْ دِينَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ قَاتَلُوا عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ نَبِيُّهُمْ حَتَّى لَحِقُوا بِرَبِّهِمْ.

وَكُلُّ هَذِهِ أَقْوَالٌ مُتَقَارِبَةٌ)[1].

وقال ابن القيم: (أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ جَمَاعَةً كَثِيرَةً مِنْ أَنْبِيَائِهِ قُتِلُوا وَقُتِلَ مَعَهُمْ أَتْبَاعٌ لَهُمْ كَثِيرُونَ فَمَا وَهَنَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَمَا وَهَنُوا عِنْدَ الْقَتْلِ، وَلَا ضَعُفُوا وَلَا اسْتَكَانُوا، بَلْ تَلَقَّوُا الشَّهَادَةَ بِالْقُوَّةِ وَالْعَزِيمَةِ وَالْإِقْدَامِ، فَلَمْ يُسْتَشْهَدُوا مُدْبِرِينَ مُسْتَكِينِينَ أَذِلَّةً، بَلِ اسْتُشْهِدُوا أَعِزَّةً كِرَامًا مُقْبِلِينَ غَيْرَ مُدْبِرِينَ)[2].

* ومن سير المنهج ما رواه الأئمة عن سعد بن معاذ ﷺ أنه (كَانَ صَدِيقًا لِأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَكَانَ أُمَيَّةُ إِذَا مَرَّ بِالْمَدِينَةِ نَزَلَ عَلَى سَعْدٍ، وَكَانَ سَعْدٌ إِذَا مَرَّ بِمَكَّةَ نَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المَدِينَةَ انْطَلَقَ سَعْدٌ مُعْتَمِرًا، فَنَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ بِمَكَّةَ، فَقَالَ لِأُمَيَّةَ: انْظُرْ لِي سَاعَةَ خَلْوَةٍ لَعَلِّي أَنْ أَطُوفَ بِالْبَيْتِ.

فَخَرَجَ بِهِ قَرِيبًا مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ، فَلَقِيَهُمَا أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا صَفْوَانَ، مَنْ هَذَا مَعَكَ؟

فَقَالَ: هَذَا سَعْدٌ.

فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: أَلَا أَرَاكَ تَطُوفُ بِمَكَّةَ آمِنًا، وَقَدْ أَوَيْتُمُ الصُّبَاةَ، وَزَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ تَنْصُرُونَهُمْ وَتُعِينُونَهُمْ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّكَ مَعَ أَبِي صَفْوَانَ مَا رَجَعْتَ إِلَى أَهْلِكَ سَالِمًا.

فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ – وَرَفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ–: أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ مَنَعْتَنِي هَذَا لَأَمْنَعَنَّكَ مَا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْكَ مِنْهُ، طَرِيقَكَ عَلَى المَدِينَةِ.

فَقَالَ لَهُ أُمَيَّةُ: لَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ يَا سَعْدُ عَلَى أَبِي الحَكَمِ، سَيِّدِ أَهْلِ الوَادِي.

---

[1] البحر المحيط لأبي حيان (٣/٣٧٢).

[2] زاد المعاد لابن القيم (٣/٢٠١، ٢٠٢).

فَقَالَ سَعْدٌ: دَعْنَا عَنْكَ يَا أُمَيَّةُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّهُمْ قَاتِلُوكَ")[1].

فانظر أيها الموحد لسعد ﷺ كيف أراد الطواف بالبيت في ساعة خلوة لا يراه المشركون فيها، فلما جد الجد دخلت أداة التحريك وعملت عملها، فنصبت القوام بالإسلام، ورفعت الرأس بالتوحيد، وأظهرت العزة على المشركين بمعاملتهم بمثل أعمالهم، إن سماحاً فسماح وإن منعاً فمنع، ثم تهديهم بالقتل، بشارة من رسول الله ﷺ.

* ومنه ما جاء في خبر مقتل خبيب ﷺ، حين أعجز الكافرين منطقه، وأرهبهم وهو مقيد في أسره، بعزة وهنت الجبال عن النوء بحملها، ولكنها – بغير غرابة– منهج الأعزة على الكافرين؛ لئلا يحسوا من الموحدين وهناً، أو يروا منهم ضعفاً، ففجر – باستهانته بما هو مهدد به– براكين الغيظ والحنق في نفوسهم، ثم أجرى الحق أنهاراً من حمم عليهم، حتى لو كان فيه ذهاب النفس وزهوق الروح، فليسمع الكافرين أواخر الكلم، فهو رشح الحديث وفيه بلاغة الختم، فكان أن (خَرَجُوا بِهِ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ، فَقَالَ: دَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ. فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: لَوْلَا أَنْ تَرَوْا مَا بِي جَزَعًا مِنَ الْمَوْتِ لَزِدْتُ...

ثُمَّ قَالَ: اللهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ)[2].

---

[1] الجامع للبخاري (٥/٧١) برقم (٣٩٥٠).

[2] إسناده صحيح: المسند (١٣/٤٥٦) برقم (٨٠٩٦)، وأصله في البخاري (٩/١٢٠) برقم (٧٤٠٢) باختصار.

العلامة السابعة عشر
"القتال"

قال الراغب: (المُقَاتَلَةُ: المُحَارَبَةُ وَتَحَرِّي القَتْلَ)[1]، وأهميته في الدلالة على الملة ليس في مجرد إزهاق الروح أو إسالة الدماء، فإنه قد يقع بين المؤمنين أنفسهم، ولا في القتل المجرد فإنه فعل ما هو دون الناس، كما أنكره الملائكة فقالوا: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}[البقرة: ٣٠].

ولأن الملة تستقى من المنهج النبوي لا غير، فلا خير من الحديث للبرهنة على شرف القتال أولاً، فقد سئل رسول الله ﷺ عن القتال والمقاتلين أي نوع هو في سبيل الله ﷻ؟ فأوجز وأبلغ وقال: "مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ"[2].

وهذا العلو علو راية أي راية الإسلام، وعلو المسلمين تبعاً، وهو ما نقصد طرق بابه، لذلك حذرنا الله ﷻ من علو الكافرين علينا، كما...

١- قال الله ﷻ: {كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ}[التوبة:٨].

٢- وقال الله ﷻ: {إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا}[الكهف: ٢٠].

٣- وفي السيرة قال رسول الله ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَظْهَرُوا عَلَيْنَا"[3].

٤- ومن أحداثها: (قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالشِّعْبِ... إِذْ عَلَتْ عَالِيَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ الْجَبَلَ... فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اللَّهمّ إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا".

فَقَاتَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَرَهْطٌ مَعَهُ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى أَهْبَطُوهُمْ مِنْ الْجَبَلِ.

---

[1] المفردات للراغب الأصفهاني (٦٥٥/١، ٦٥٦).

[2] الجامع للبخاري (١٤/١) برقم (٢٥)، والمسند الصحيح لمسلم (٥٣/١) برقم (٢٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

[3] دلائل النبوة للبيهقي (٢٧١/٣).

وَنَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلَى صَخْرَةٍ مِنْ الْجَبَلِ لِيَعْلُوَهَا)[1].

والقتال حكمه ظاهر والكلام فيه معروف، والعشرات بل المئات من الآيات والأحاديث شاهدة عليه، كما...

أ- قال الله ﷻ: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}[آل عمران: ١٤٦].

قال الرازي: (اعْلَمْ أَنَّهُ – تَعَالَى – مِنْ تَمَامِ تَأْدِيبِهِ قَالَ لِلْمُنْهَزِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ: إنَّ لَكُمْ بِالْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَأَتْبَاعِهِمْ أُسْوَةً حَسَنَةً، فَلَمَّا كَانَتْ طَرِيقَةُ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ الصَّبْرَ عَلَى الْجِهَادِ وَتَرْكَ الْفِرَارِ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِكُمْ هَذَا الْفِرَارُ وَالِانْهِزَامُ؟)[2].

وقال القرطبي: (مَعْنَى الْآيَةِ: تَشْجِيعُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْأَمْرُ بِالِاقْتِدَاءِ بِمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ خِيَارِ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ)[3].

وقال السعدي: (هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَحَثٌّ عَلَى الِاقْتِدَاءِ بِهِمْ، وَالْفِعْلِ كَفِعْلِهِمْ، وَأَنَّ هَذَا أَمْرٌ قَدْ كَانَ مُتَقَدِّمًا، لَمْ تَزَلْ سُنَّةُ اللَّهِ جَارِيَةً بِذَلِكَ)[4].

ب- وقال الله ﷻ: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}[البقرة: ١٩١-١٩٣].

ج- وقال الله ﷻ: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}[النساء: ٧٦].

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام (٨٦/٢) باختصار.

[2] التفسير الكبير للرازي (٣٨٠/٩).

[3] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٢٩/٤).

[4] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١٥١/١).

د- وقال الله ﷻ: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}[التوبة: ٢٩].

هـ- وقال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}[التوبة: ١٢٣].

و- وقال الله ﷻ: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ} [التوبة:١٤].

وغير ذلك من الآيات الحاثة على الجهاد، الآمرة به، والدافعة للقتال والمرغبة فيه، وأما الأحاديث فهي كثيرة جداً، منها...

أ- قال رسول الله ﷺ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ"[1].

ب- وقال رسول الله ﷺ: "أُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي، وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ"[2].

ج- وقال رسول الله ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنَّ رِجَالًا مِنَ المُؤْمِنِينَ لاَ تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَلاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ"[3].

د- وقال رسول الله ﷺ: "لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ"[4].

---

[1] الجامع للبخاري (١٤/١) برقم (٢٥)، والمسند الصحيح لمسلم (٥٣/١) برقم (٢٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

[2] المسند الصحيح لمسلم (٥٢/١) برقم (٢٢) عن أبي هريرة ﷺ.

[3] الجامع للبخاري بلفظه (١٧/٤) برقم (٢٧٩٧) عن أبي هريرة ﷺ.

[4] المسند الصحيح لمسلم (٤٢/١٠) برقم (٣٥٥٠) عن ابن عمرو رضي الله عنهما.

العلامة الثامنة عشر

"المفارقة"

قال الراغب: (الفرق يقال اعتباراً بالانفصال... فرقت بين الشيئين: فصلت بينهما سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر، أو بفصل تدركه البصيرة... والفراق والمفارقة تكون بالأبدان أكثر)[1].

وقال ابن منظور: (فارَقَ الْشَّيءَ مُفَارَقَةً وَفِرَاقاً: بَايَنَهُ)[2].

وقال أحمد عمر: (فَارَقَ فُلَانًا: ابْتَعَدَ عَنْهُ، بَاعَدَهُ، انْفَصَلَ عَنْهُ وَتَرَكَهُ)[3].

وهذا من ظاهر اللغة، وبه جاءت لغة القرآن، كما قال الله ﷻ: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ}[الطلاق:٢].

قال البغوي: (أَيِ: اتْرُكُوهُنَّ)[4]، وهو من الانفصال بعد الاتصال، كما في قول الله ﷻ حكاية عن العبد الصالح: {قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ}[الكهف: ٧٨]، (أي: هذا فراق اتصالنا) كما قال الزجاج[5].

وعلى أصل الكلمة حامت المعاني الشرعية في أيما آية، توظيفاً وتفهيماً، ومع وضوحها وسطوع دلائلها، إلا أن ربوع الشريعة أبت إلا تشنيف الأسماع بالبرهان الشرعي، داعيةً ومبينةً أن مفارقة القوم الكافرين من سير الأنبياء والصالحين، كما...

أ- قال الله ﷻ حكايةً عن موسى عليه السلام: {قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}[المائدة:٢٥].

قال أبو عبيدة: (أَيْ: بَاعِدْ وَافْصِلْ وَمَيِّزْ)[1].

---

[1] المفردات للأصفهاني (٦٢٣، ٦٣٣) باختصار.

[2] لسان العرب لابن منظور (٣٠٠/١٠).

[3] معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد عمر (١٥١).

[4] معالم التنزيل للبغوي (١٥٠/٨).

[5] معاني القرآن للزجاج (٣٠٤/٣).

وقال الطبري: (افْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ بِقَضَاءٍ مِنْكَ تَقْضِيهِ فِينَا وَفِيهِمْ فَتُبَعِّدُهُمْ مِنَّا، مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: فَرَقْتُ بَيْنَ هَذَيْنِ الشَّيْئَيْنِ، بِمَعْنَى: فَصَلْتُ بَيْنَهُمَا)[2].

وقال الرازي: (يَعْنِي: فَافْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ بِأَنْ تَحْكُمَ لَنَا بِمَا نَسْتَحِقُّ وَتَحْكُمَ عَلَيْهِمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ، وَهُوَ فِي مَعْنَى الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ خَلِّصْنَا مِنْ صُحْبَتِهِمْ)[3].

وقال القرطبي: (يُقَالُ: بِأَيِ وَجْهٍ سَأَلَهُ الْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ؟

فَفِيهِ أَجْوِبَةٌ: الْأَوَّلُ- بِمَا يَدُلُّ عَلَى بُعْدِهِمْ عَنِ الْحَقِّ، وَذَهَابِهِمْ عَنِ الصَّوَابِ فِيمَا ارْتَكَبُوا مِنَ الْعِصْيَانِ، وَلِذَلِكَ أُلْقُوا فِي التِّيهِ.

الثَّانِي- بِطَلَبِ التَّمْيِيزِ، أَيْ: مَيِّزْنَا عَنْ جَمَاعَتِهِمْ وَجُمْلَتِهِمْ، وَلَا تُلْحِقْنَا بِهِمْ فِي الْعِقَابِ)[4].

وقال أبو حيان: (ظَاهِرُهُ أَنَّهُ دَعَا بِأَنْ يُفَرِّقَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُمْ بِأَنْ يَفْقِدَ وُجُوهَهُمْ وَلَا يُشَاهِدَ صُوَرَهُمْ، إِذَا كَانُوا عَاصِينَ لَهُ مُخَالِفِينَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِذَلِكَ نَبَّهَ عَلَى الْعِلَّةِ الْمُوجِبَةِ لِلتَّفْرِقَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفُسَّقِ، فَالْمُطِيعُ لَا يُرِيدُ صُحْبَةَ الْفَاسِقِ وَلَا يُؤْثِرُهَا لِئَلَّا يُصِيبَهُ بِالصُّحْبَةِ مَا يُصِيبُهُ، {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً}[الأنفال:٢٥])[5].

قلت: وهذا الدعاء من النبي الكريم عليه السلام في الفاسق الملي، وهو من عصاه، وخرج عن أمره، فكيف الحال في الكافر الأصلي؟ أليس هو أولى من أولئك الفسقة بالمباعدة والمفارقة؟

ب- جاء صحيحاً أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ: تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ... حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ، أَوْ فَاجِرٍ، أَتَاهُمْ رَبُّ العَالَمِينَ فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا، فَيُقَالُ: مَاذَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَفْقَرِ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ)[6].

---

[1] مجاز القرآن لأبي عبيدة (١/١٦٠).

[2] جامع البيان للطبري (٨/٣٠٥).

[3] التفسير الكبير للرازي (١١/٣٣٥).

[4] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/١٢٨).

[5] البحر المحيط لأبي حيان (٤/٢٢٢).

[6] الجامع للبخاري (٦/٤٤) برقم (٤٥٨١)، والمسند لمسلم (١/١٦٧) برقم (١٨٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قلت: هذا يوم تتبع فيه كل أمة ما كانت تتبع في الدنيا، كما في رواية مفسرة، وفيها يقول رسول الله ﷺ: "يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ القَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ... فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتْبَعُونَهُ)[1].

فهذا من بركات صدق إيمانهم بربهم، واتباعهم لما أنزل إليهم، والذي كان من علاماته الفارقة مفارقة الكافرين، عباد الشمس والقمر والطواغيت وتابعيهم.

والمؤمن في هذا الموضع يذكر خير أعماله وأحسنها، فلما افتخر عباد الله ﷻ بمفارقة الناس على حاجة وفقر إليهم، كان هذا دليلاً على إخلاص العبودية لله ﷻ، والتجرد له، والتبرؤ من سواه.

ولأن المفارقة على نوعين:

أ- مفارقة روحية، بمباينة الكافرين في رسومهم وطقوسهم، واعتزالهم في عباداتهم الشركية، وطرقهم البدعية، وسياستهم الجاهلية، ونظمهم القانونية الوضعية.

ب- مفارقة جسدية بالهجر والهجرة والاعتزال.

لذلك جاءت سير المنهج لتدل على ذلك، فمن الأول: (قَالَ لَبِيدٌ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلُ.

قَالَ عُثْمَانُ: صَدَقْتَ.

قَالَ لَبِيدٌ: وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ.

قَالَ عُثْمَانُ: كَذَبْتَ، نَعِيمُ الْجَنَّةِ لَا يَزُولُ.

قَالَ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَاَللَّهِ مَا كَانَ يُؤْذَى جَلِيسُكُمْ، فَمَتَى حَدَثَ هَذَا فِيكُمْ؟

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ: إنَّ هَذَا سَفِيهٌ فِي سُفَهَاءَ مَعَهُ، قَدْ فَارَقُوا دِينَنَا)[2].

---

[1] الجامع للبخاري (١٢٨/٩) برقم (٧٤٣٧)، والمسند لمسلم (١٦٣/١) برقم (١٨٢) عن أبي هريرة ﷺ.

[2] السيرة النبوية لابن هشام (٣٧٠/١).

فلبيد هذا شاعر معتبر القول رفيع الذات عند قومه وفي قريش، جاء ليفاخر بفحولته الشعرية عند البيت، فلما قال مقولته تلك، صدقه عثمان بن مظعون ﷺ في بعض قوله، وكذبه في بعضه، معلناً المفارقة له ولقريش في دينهم أساساً، ثم في عاداتهم وتقاليدهم وأوضاعهم الجاهلية، لذلك استنكر لبيد الرد، إذ لم تدرج عادة العرب على مثل هذا، ولم يفطن إلى أن الموحد يضع عادات الجاهلية تحت قدميه منذ لحظة إعلانه الإسلام، كما قال رسول الله ﷺ: "أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ"[1].

ومن الثاني – أي: المفارقة الجسدية– ما جاء في حديث بيعة العقبة، وفيه قول أسعد بن زرارة ﷺ لقومه مبيناً لهم تبعات حمل هذا الدين، قال: (رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الْإِبِلِ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ، وَأَنَّ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جَبِينَةً، فَبَيِّنُوا ذَلِكَ، فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ.

قَالُوا: أَمِطْ عَنَّا يَا أَسْعَدُ، فَوَاللهِ لَا نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا، وَلَا نَسْلُبُهَا أَبَدًا.

قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا، وَشَرَطَ، وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ)[2].

ومما جمع بين الاثنين – أي: المفارقة الروحية والبدنية– ما قرره رسولا قريش للنجاشي حول المهاجرين إليه، حين قالا: (أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ؛ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَعَلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ)[3].

تذكرة: ليعلم الموحد أن تحقيقه للملة، مما ينزل بالكافرين العذاب من السماء، كما قال الله ﷻ: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا

[1] المسند الصحيح لمسلم (٨٨٦/٢) برقم (١٢١٨) عن جابر ﷺ.
[2] المسند لأحمد (٣٤٦/٢٢) برقم (١٤٤٥٦) عن جابر ﷺ.
[3] المسند لأحمد (٢٦٤/٣) برقم (١٧٤٠).

رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفتح:٢٥].

فهذه الآية تسجل حالة المخالطة بين المؤمنين والكافرين، وهي لم تتطرق لحكم هذه المخالطة، فهذا يؤخذ من آيات أخرى، بل الآية لبيان أن استحقاق الكفار للعذاب، منع دون تحققه وجود المؤمنين والمؤمنات، والتقدير أن العذاب الدنيوي قد ارتفع عن الكافرين لوجود المخالطين لهم، كما قال الله ﷻ:{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}[الأنفال: ٣٣].

فعلى المؤمن أن يربأ بنفسه أن يكون وجوده مانعاً لإيقاع العذاب على الكفار، ولسنا نعلم مسلماً باقٍ له إسلامه يرضى بمثل هذا.

وفي الآية حقيقة أخرى، فإن الكافر مهان ذليل حقير صاغر عند ربه، والمؤمن على العكس من هذا عزيز كريم مصان الدم، فالآية فيها (تَنْبِيهٌ عَلَى مُرَاعَاةِ الْكَافِرِ فِي حُرْمَةِ الْمُؤْمِنِ إذَا لَمْ تُمْكِنْ إذَايَةُ الْكَافِرِ إلَّا بِإِذَايَةِ الْمُؤْمِنِ)[1]، كما قال ابن العربي.

وعليه فإن على الموحد شق الطرق وإيجاد السبل، وبذل الجهد والطاقة لمفارقة الكافرين ومباعدتهم والتباين عنهم، وفي ذلك إيقاع للعذاب عليهم بيد الله ﷻ أو بأيدينا.

قال الطبري: (قَوْلُهُ: {لَوْ تَزَيَّلُوا}، يَقُولُ: لَوْ تَمَيَّزَ الَّذِينَ فِي مُشْرِكِي مَكَّةَ مِنَ الرِّجَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَالنِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ الَّذِينَ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ مِنْهُمْ، فَفَارَقُوهُمْ وَخَرَجُوا مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ {لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}، يَقُولُ: لَقَتَلْنَا مَنْ بَقِيَ فِيهَا بِالسَّيْفِ، أَوْ لَأَهْلَكْنَاهُمْ بِبَعْضِ مَا يُؤْلِمُهُمْ مِنْ عَذَابِنَا الْعَاجِلِ)[2].

---

[1] أحكام القرآن لابن العربي (١٣٨/٤)

[2] جامع البيان للطبري (٣٠٦/٢١)

العلامة التاسعة عشر

"الهجر"

قال الجوهري: (الهَجْرُ: ضِدَّ الوَصْلِ)[1].

وقال الأصفهاني: (الهجر والهجران: مفارقة الإنسان غيره، إما بالبدن، أو باللسان، أو بالقلب، قال تعالى: {وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ}[النساء:٣٤] كناية عن عدم قربهن، وقوله تعالى: {إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا}[الفرقان:٣٠] فهذا هجر بالقلب، أو بالقلب واللسان... وقوله تعالى: {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}[المدثر:٥]، فحث على المفارقة بالوجوه كلها)[2].

قلت: الهجر على نوعين:

الأول- هجر بعد وصل واتصال، بما يستوجب القطيعة، وهو يتعلق بالمسلم والكافر، فقد يوصل الكافر لقرابته، من غير موالاة، ثم يُهجر، وقد يُهجر المسلم مؤقتاً بمعصيته، من غير معاداة، وأحكامه معروفة فقهاً، وفي مباحث الاعتقاد، ومحله هنا إذا كان مجرداً لله ﷻ خالصاً، فإنه ممدوح، ودلالته على الملة الحنيفية ظاهرة، خصوصاً إذا تعلقت بالمعنى اللغوي للحنف، أي: الميل عن الباطل.

الثاني- هجر من غير سابقة وصل، كمن يهجر الكفر والمعصية من غير مفارقة ابتدائية، وعلى هذا تحمل المعاني الشرعية الآتية، وهي أظهر من القسم الأول في الدلالة على الملة الحنيفية، لما فيها من استقامة على السبيل دون ميل، وهو المعنى الآخر للحنف، كما فسره أئمة اللغة، وفي تقرير هذا المعنى...

أ- قال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}[المدثر: ١-٥]، فرسول الله ﷺ ما قارف الرجز ولا قاربه يوماً حتى يهجره أو يؤمر بهجره، وحمله على وجهين:

---

[1] الصحاح للجوهري (٨٥١/٢).

[2] المفردات للراغب الأصفهاني (٤٦٤/٢) باختصار.

١- أمر بمعنى الزجر، أي: إياك ومقاربة الرجز.

٢- اثبت على الممدوح، واحذر الميل عنه.

قال الرازي: (كَلَامٌ جَامِعٌ فِي مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ: اهْجُرِ الْجَفَاءَ وَالسَّفَهَ وَكُلَّ شَيْءٍ قَبِيحٍ، وَلَا تَتَخَلَّقْ بِأَخْلَاقِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُسْتَعْمِلِينَ لِلرُّجْزِ)[1].

وقال أبو حيان: (الْمَعْنَى فِي الْأَمْرِ: اثْبُتْ وَدُمْ عَلَى هَجْرِهِ؛ لِأَنَّهُ ﷺ كَانَ بَرِيئًا مِنْهُ)[2].

وقال ابن عاشور: (الْهَجْرُ: تَرْكُ الْمُخَالَطَةِ وَعَدَمُ الِاقْتِرَابِ مِنَ الشَّيْءِ، وَالْهَجْرُ هُنَا كِنَايَةٌ عَنْ تَرْكِ التَّلَبُّسِ بِالْأَحْوَالِ الْخَاصَّةِ بِأَنْوَاعِ الرُّجْزِ لِكُلِّ نَوْعٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ فِي عُرْفِ النَّاسِ)[3].

وقال السعدي: (يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالرِّجْزِ الْأَصْنَامُ وَالْأَوْثَانُ، الَّتِي عُبِدَتْ مَعَ اللَّهِ، فَأَمَرَهُ بِتَرْكِهَا، وَالْبَرَاءَةَ مِنْهَا، وَمِمَّا نُسِبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالرِّجْزِ أَعْمَالُ الشَّرِّ كُلُّهَا وَأَقْوَالُهُ، فَيَكُونُ أَمْرًا لَهُ بِتَرْكِ الذُّنُوبِ، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا، فَيَدْخُلُ فِي هَذَا الشِّرْكُ فَمَا دُونَهُ)[4].

وقال محمد بن عبد الوهاب: (أول ما فرض الله عليك، وأول ما فرض على نبيه، أن ينذر عنه: الإشراك بالله، وأول ما فرض عليك توحيده.

فأما الإشراك ففي قوله: {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}[المدثر:٥]، وأما التوحيد ففي قوله: {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ}[المدثر:٣]، إذا عرفت أن هذا رأس أول الفرائض، فاحرص على معرفة التوحيد)[5].

قلت: لأن الهجر ترك ومفارقة، فإن في هجر الرجز – وهو كل قبيح- دليل صحة وسلامة المعتقد، إذ ما الطاعة إلا فعل محبوب الرب ﷻ، وما المعصية إلا مخالفة أمره، فحق حينها أن يكون ترك كل معصية وقبيحة مما يحبه الله ﷻ ويرضاه، فكيف لو كان آمراً به على وجه التنصيص والتخصيص، أليس هذا مدعاة لمزيد الرعاية والعناية؟

---

[1] التفسير الكبير للرازي (٣٠/٦٩٩).

[2] البحر المحيط لأبي حيان (١٠/٣٢٦).

[3] التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٩/٢٩٨).

[4] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/٨٩٥).

[5] الدرر السنية (١/١٦٤).

ب– وقال الله ﷻ: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا}[المزمل: ١٠].

قال الطبري: (الْهَجْرُ الْجَمِيلُ: هُوَ الْهَجْرُ فِي ذَاتِ اللَّهِ)[1].

وقال الماوردي: (فِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: اصْفَحْ عَنْهُمْ، وَقُلْ سَلَامٌ، قَالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ.

الثَّانِي: أَنْ يُعْرِضَ عَنْ سَفَهِهِمْ وَيُرِيَهُمْ صِغَرَ عَدَاوَتِهِمْ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ الْهَجْرُ الْخَالِي مِنْ ذَمٍّ وَإِسَاءَةٍ.

وَهَذَا الْهَجْرُ الْجَمِيلُ قَبْلَ الْإِذْنِ فِي السَّيْفِ)[2].

وقال الرازي: (الْهَجْرُ الْجَمِيلُ أَنْ يُجَانِبَهُمْ بِقَلْبِهِ وَهَوَاهُ، وَيُخَالِفَهُمْ فِي الْأَفْعَالِ مَعَ الْمُدَارَاةِ وَالْإِغْضَاءِ وَتَرْكِ الْمُكَافَأَةِ، وَنَظِيرُهُ: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ}[النِّسَاءِ: ٦٣]، {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ}[الأعراف: ١٩٩]، {فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا}[النَّجْمِ: ٢٩])[3].

وقال القرطبي: ({وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا} أَيْ: لَا تَتَعَرَّضْ لَهُمْ، وَلَا تَشْتَغِلْ بِمُكَافَأَتِهِمْ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَرْكَ الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ، ثُمَّ أُمِرَ بَعْدُ بِقِتَالِهِمْ وَقَتْلِهِمْ، فَنَسَخَتْ آيَةُ الْقِتَالِ مَا كَانَ قَبْلَهَا مِنَ التَّرْكِ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ)[4].

قلت: لما كان الأمر الأول منازلة بالقول والحجة قبل منازلة السيف، كان الرسول ﷺ بعد إذايته منهم، على حالين:

الأول– أن يتصدر لمواجهتهم باليد، وهذا ما لم يؤمر به إلى الساعة.

الثاني– أن يتصبر على قولهم مكتفياً بالحجة القولية، مع تحقيق أسباب المباعدة والمفارقة، وهو الترك والمهاجرة، لحين تبدل الأمر، ونزول تشريع القتال، وهذا الذي كان.

قال إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن: (الهجر المشروع قد قام الدليل عليه، وأشار جلّ من السلف إليه، وهو مراتب، وله أحوال وتفاصيل، على القلب واللسان والجوارح، قال الله

---

[1] جامع البيان للطبري (٢٣/٣٨٠).

[2] النكت والعيون للماوردي (٦/١٢٩).

[3] التفسير الكبير للرازي (٣٠/٦٨٩).

[4] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٩/٤٥).

تعالى عن الخليل عليه السلام: {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي}[مريم: ٤٨]، وقال تعالى عن أصحاب الكهف: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ}[الكهف: ١٦].

وأصل الهجر: الترك والفراق والبغض، وشرعاً: ترك ما نهى الله عنه، ومجانبته والبعد عنه. وهو عام في الأفعال والأشخاص، وهو في المشركين، ومن لاذ بهم، واستحسن ما هم عليه، وخدمهم، وازدراء أهل الإسلام أعظم؛ لأن قبح الشيء من قبح متعلقه، وهذه الجملة فيها أقسام، ولها تفاصيل.

منها: هجر الكفار والمشركين، والقرآن من أوله إلى آخره ينادي على ذلك، ومصلحته: تمييز أولياء الله من أعدائه.

وقريب من هذا: هجر أهل البدع والأهواء، وقد نص الإمام أحمد وغيره من السلف، على البعد عنهم، ومجانبتهم، وترك الصلاة عليهم، وقال: أهل البدع إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم، فتجب مفارقتهم بالقلب، واللسان، والبدن، إلا من داع إلى الدين مجاهد عليه بالحجة، مع أمن الفتنة، قال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ} الآية [النساء: ١٤٠]...

قال بعض المحققين: ويكفي العاقل قوله تعالى، بعد نهيه عن موالاة المشركين: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} الآية [آل عمران: ٣٠])[١].

والهجر نوعان:

أ- هجرٌ للفعل، وهو المقصود من الآية الأولى، وأعظمه هجر الكفر والشرك والبدعة، ومنه هجر المعاصي والذنوب، والأسباب المفضية إليها.

ب- هجرٌ للفاعلين، وهو المراد من الآية الأخرى، ويتناول صنفين من الناس:

١- الكافر والمشرك والمنافق والمبتدع بدعة كبرى، فهؤلاء يهجرون هجر ترك، بالبعد عنهم، وعن دارهم، وعدم مساكنتهم أو مجاورتهم أو المقام معهم أو مجالستهم.

---

[١] الدرر السنية (٨/٣٠٣، ٣٠٤) باختصار.

٢- من أصاب لمماً أو ذنباً، من عصاة المسلمين، فهؤلاء يهجرون هجر تعزير، كما هجر رسول الله ﷺ الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو معه.

العلامة العشرون

"الهجرة"

وهي من المعاني المكملة للهجر سالف الذكر، غير أنها تختص هنا بمفارقة البدن، قال ابن عباد: (الهِجْرَةُ: سُمِّيَتْ؛ لأنَّ المُهاجِرِيْنَ هَجَرُوا دُوْرَهُمْ وَعَشَائِرَهُمْ فِي اللهِ ﷻ)[1].

وقال ابن سيده: (المُهَاجَرَةُ بِالعُمُومِ: الخُرُوجُ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ، وَأَصْلُ هَذِهِ الكَلِمَةِ: البُعْدُ)[2]، ومن هنا برز المعلم التوحيدي، إذ لا يجتمع كافر وموحد لا في دنيا ولا في آخرة، لذلك وجب على الموحد مفارقة الكافرين والهجرة عنهم، كما...

أ- قال الله ﷻ عن إبراهيم عليه السلام: {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[العنكبوت: ٢٦].

قال الماوردي: (يَعْنِي: مُهَاجِرٌ عَنِ الظَّالِمِينَ)[3].

وقال ابن الجوزي: (هَاجَرَ مِنْ سَوَادِ الْعِرَاقِ إِلَى الشَّامِ، وَهَجَرَ قَوْمَهُ الْمُشْرِكِينَ)[4].

وقال الرازي: (لَمَّا بَالَغَ إِبْرَاهِيمُ فِي الْإِرْشَادِ وَلَمْ يَهْتَدِ قَوْمُهُ، وَحَصَلَ الْيَأْسُ الْكُلِّيُّ حَيْثُ رَأَى الْقَوْمُ الْآيَةَ الْكُبْرَى وَلَمْ يُؤْمِنُوا وَجَبَتِ الْمُهَاجَرَةُ؛ لِأَنَّ الْهَادِيَ إِذَا هَدَى قَوْمَهُ وَلَمْ يَنْتَفِعُوا فَبَقَاؤُهُ فِيهِمْ مَفْسَدَةٌ؛ لِأَنَّهُ إِنْ دَامَ عَلَى الْإِرْشَادِ كَانَ اشْتِغَالًا بِمَا لَا يُنْتَفَعُ بِهِ مَعَ عِلْمِهِ، فَيَصِيرُ كَمَنْ يَقُولُ لِلْحَجَرِ صَدِّقْ، وَهُوَ عَبَثٌ، أَوْ يَسْكُتُ، وَالسُّكُوتُ دَلِيلُ الرِّضَا، فَيُقَالُ: بِأَنَّهُ صَارَ مِنَّا وَرَضِيَ بِأَفْعَالِنَا، وَإِذَا لَمْ يَبْقَ لِلْإِقَامَةِ وَجْهٌ وَجَبَتِ الْمُهَاجَرَةُ)[5].

---

[1] المحيط لابن عباد (١/٢٨٣).
[2] المخصص لابن سيده (٣/٣٠٣).
[3] النكت والعيون للماوردي (٤/٢٨١).
[4] زاد المسير لابن الجوزي (٣/٤٠٥).
[5] التفسير الكبير للرازي (٢٥/ ٤٧).

وقال ابن كثير: (أَخْبَرَ عَنْهُ بِأَنَّهُ اخْتَارَ الْمُهَاجَرَةَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمُ، ابْتِغَاءَ إِظْهَارِ الدِّينِ، وَالتَّمَكُّنِ مِنْ ذَلِكَ)[1].

وقال ابن عاشور: (أَعْلَنَ أَنَّهُ مُهَاجِرٌ دِيَارَ قَوْمِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِمُفَارَقَةِ دِيَارَ أَهْلِ الْكُفْرِ، وَهَذِهِ أَوَّلُ هِجْرَةٍ لِأَجْلِ الدِّينِ؛ وَلِذَلِكَ جَعَلَهَا هِجْرَةً إِلَى رَبِّهِ)[2].

وقال السعدي: (أَيْ: هَاجِرٌ أَرْضَ السُّوءِ)[3].

قلت: بعد إذ لم يستجيبوا لدعوته، ولم يؤمنوا له، قال: إني مفارقكم ومتباعد عنكم، إذ لم تنتفعوا لا بوجودي ولا بمقامي معكم، وذلك ليعلم الموحد أن الهجرة ولو كانت إلى أرض ليس فيها سواه، خير له من المقام بين ظهراني الكافرين طرفة عين، وذلك واجب، فإنهم لما خالفوه وناصبوه العداء، وباعدوا بينه وبينهم، كان جزاءهم من جنس فعلهم، أن يتباعد عنهم الموحد بدناً كما تباعدوا عنه ديناً وإيماناً.

ب- وقال الله ﷻ: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ}[الصافات: ٩٩].

قال الطبري: (يَقُولُ: إِنِّي مُهَاجِرٌ مِنْ بَلْدَةِ قَوْمِي إِلَى اللَّهِ، أَيْ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَمُفَارِقُهُمْ، فَمُعْتَزِلُهُمْ لِعِبَادَةِ اللَّهِ)[4].

وقال البغوي: (الْمَعْنَى: أَهْجُرُ دَارَ الْكُفْرِ، وَأَذْهَبُ إِلَى مَرْضَاةِ رَبِّي)[5].

وقال الرازي: (دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي تَكْثُرُ فِيهِ الْأَعْدَاءُ تَجِبُ مُهَاجَرَتُهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ- مَعَ أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ- خَصَّهُ بِأَعْظَمِ أَنْوَاعِ النُّصْرَةِ، لَمَّا أَحَسَّ مِنْهُمْ بِالْعَدَاوَةِ الشَّدِيدَةِ هَاجَرَ مِنْ تِلْكَ الدِّيَارِ، فَلَأَنْ يَجِبَ ذَلِكَ عَلَى الْغَيْرِ كَانَ أَوْلَى)[6].

---

[1] تفسير القرآن لابن كثير (٦/٢٧٣).

[2] التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠/٢٣٨).

[3] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/٦٢٩).

[4] جامع البيان للطبري (١٩/٥٦٧).

[5] معالم التنزيل للبغوي (٧/٤٦).

[6] التفسير الكبير للرازي (٢٦/٣٤٤).

وقال القرطبي: (هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ فِي الْهِجْرَةِ وَالْعُزْلَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام، وَذَلِكَ حِينَ خَلَّصَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ، {قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي} أَيْ: مُهَاجِرٌ مِنْ بَلَدِ قَوْمِي وَمَوْلِدِي إِلَى حَيْثُ أَتَمَكَّنُ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّي)[١].

وقال أبو حيان: (لَمَّا سَلَّمَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، وَمِنَ النَّارِ الَّتِي أَلْقَوْهُ فِيهَا، عَزَمَ عَلَى مُفَارَقَتِهِمْ، وَعَبَّرَ بِالذَّهَابِ إِلَى رَبِّهِ عَنْ هِجْرَتِهِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ... لِيَتَمَكَّنَ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ وَيَتَضَرَّعَ لَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَلْقَى مَنْ يُشَوِّشُ عَلَيْهِ)[٢].

وقال ابن عاشور: (مَعْنَى ذاهِبٌ إِلى رَبِّي: مُهَاجِرٌ إِلَى حَيْثُ أَعْبُدُ رَبِّي وَحْدَهُ، وَلَا أَعْبُدُ آلِهَةً غَيْرَهُ، وَلَا أُفْتَنُ فِي عِبَادَتِهِ كَمَا فُتِنْتُ فِي بَلَدِهِمْ...

وَجُمْلَةُ {سَيَهْدِينِ} يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَالًا، وَهُوَ الْأَظْهَرُ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ إِعْلَامَ قَوْمِهِ بِأَنَّهُ وَاثِقٌ بِرَبِّهِ، وَأَنَّهُ لَا تَرَدُّدَ لَهُ فِي مُفَارَقَتِهِمْ)[٣].

وقال الألوسي: (كَأَنَّ الْمُرَادَ إِظْهَارُ الْيَأْسِ مِنْ إِيمَانِهِمْ وَكَرَاهَةِ الْبَقَاءِ مَعَهُمْ، أَيْ: إِنِّي مُفَارِقُكُمْ وَمُهَاجِرٌ مِنْكُمْ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ إِلَى مَا فِيهِ صَلَاحُ دِينِي، أَوْ إِلَى مَقْصِدِي)[٤].

وقال الشنقيطي: (فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْفِرَارَ بِالدِّينِ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى بَلَدٍ يَتَمَكَّنُ فِيهِ الْفَارُّ بِدِينِهِ مِنْ إِقَامَةِ دِينِهِ وَاجِبٌ.

وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْهِجْرَةِ وَجُوبُهُ بَاقٍ بِلَا خِلَافٍ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ)[٥].

ج- وقال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ

[١] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/٩٧).
[٢] البحر المحيط لأبي حيان (٩/١١٥).
[٣] التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٣/١٤٦، ١٤٧).
[٤] روح المعاني للألوسي (١٢/١٢١).
[٥] أضواء البيان للشنقيطي (٤/١٦٥).

مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} إلى قوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[الأنفال: ٧٢-٧٤].

قال الطبري: (يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: إِنَّ الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، {وَهَاجَرُوا} يَعْنِي: هَجَرُوا قَوْمَهُمْ وَعَشِيرَتَهُمْ وَدُورَهُمْ، يَعْنِي: تَرَكُوهُمْ وَخَرَجُوا عَنْهُمْ، وَهَجَرَهُمْ قَوْمُهُمْ وَعَشِيرَتُهُمْ)[1].

وقال ابن العربي: ({وَهَاجَرُوا}: هُمْ الَّذِينَ تَرَكُوا أَوْطَانَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ إيثَارًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فِي إعْلَاءِ دِينِهِ، وَإِظْهَارِ كَلِمَتِهِ، وَلُزُومِ طَاعَتِهِ، وَعُمُومِ دَعْوَتِهِ)[2].

وقال الرازي: (قَوْلُهُ: {وَهَاجَرُوا} يَعْنِي: فَارَقُوا الْأَوْطَانَ، وَتَرَكُوا الْأَقَارِبَ وَالْجِيرَانَ فِي طَلَبِ مَرْضَاةِ اللَّه، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ حَالَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ تَعَالَى: {أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ}[النِّسَاءِ: ٦٦]، جَعَلَ مُفَارَقَةَ الْأَوْطَانِ مُعَادِلَةً لِقَتْلِ النَّفْسِ، فَهَؤُلَاءِ فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى، تَرَكُوا الْأَدْيَانَ الْقَدِيمَةَ لِطَلَبِ مَرْضَاةِ اللَّه تَعَالَى، وَفِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ تَرَكُوا الْأَقَارِبَ وَالْخِلَّانَ وَالْأَوْطَانَ وَالْجِيرَانَ لِمَرْضَاةِ اللَّه تَعَالَى)[3].

وقال ابن عاشور: (الْمُهَاجِرُونَ امْتَازُوا بِالسَّبْقِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَتَكَبَّدُوا مُفَارَقَةَ الْوَطَنِ، وَالْأَنْصَارُ امْتَازُوا بِإِيوَائِهِمْ، وَبِمَجْمُوعِ الْعَمَلَيْنِ حَصَلَ إِظْهَارُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَقَدِ اشْتَرَكَ الْفَرِيقَانِ فِي أَنَّهُمْ آمَنُوا وَأَنَّهُمْ جَاهَدُوا، وَاخْتُصَّ الْمُهَاجِرُونَ بِأَنَّهُمْ هَاجَرُوا وَاخْتُصَّ الْأَنْصَارُ بِأَنَّهُمْ آوَوْا وَنَصَرُوا، وَكَانَ فَضْلُ الْمُهَاجِرِينَ أَقْوَى لِأَنَّهُمْ فَضَّلُوا الْإِسْلَامَ عَلَى وَطَنِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ، وَبَادَرَ إِلَيْهِ أَكْثَرُهُمْ، فَكَانُوا قُدْوَةً وَمِثَالًا صَالِحًا لِلنَّاسِ.

وَالْمُهَاجَرَةُ: هَجْرُ الْبِلَادِ، أَي: الْخُرُوجِ مِنْهَا وَتَرْكُهَا...

وَأَصْلُ الْهِجْرَةِ: التَّرْكُ، وَاشْتُقَّ مِنْهُ صِيغَةُ الْمُفَاعَلَةِ لِخُصُوصِ تَرْكِ الدَّارِ وَالْقَوْمِ؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ عِنْدَهُمْ كَانَ أَنَّهُمْ يَتْرُكُونَ قَوْمَهُمْ، وَيَتْرُكُهُمْ قَوْمُهُمْ إِذْ لَا يُفَارِقُ أَحَدٌ قَوْمَهُ إِلَّا لِسُوءِ مُعَاشَرَةٍ تَنْشَأُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ.

[1] جامع البيان للطبري (٢٨٩/١١).

[2] أحكام القرآن لابن العربي (٤٣٨/٢، ٤٣٩) باختصار.

[3] التفسير الكبير للرازي (٥١٥/١٥).

وَقَدْ كَانَتِ الْهِجْرَةُ مِنْ أَشْهَرِ أَحْوَالِ الْمُخَالِفِينَ لِقَوْمِهِمْ فِي الدِّينِ، فَقَدْ هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام، {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ}[الصافات: ٩٩]، وَهَاجَرَ لُوطٌ عليه السلام: {وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[1][العنكبوت: ٢٦]، وَهَاجَرَ مُوسَى عليه السلام بِقَوْمِهِ، وَهَاجَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَهَاجَرَ الْمُسْلِمُونَ بِإِذْنِهِ إِلَى الْحَبَشَةِ، ثُمَّ إِلَى الْمَدِينَةِ يَثْرِبَ، وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بِالْمَدِينَةِ غَلَبَ عَلَيْهِمْ وَصْفُ الْمُهَاجِرِينَ وَأَصْبَحَتِ الْهِجْرَةُ صِفَةَ مَدْحٍ فِي الدِّينِ، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيءُ ﷺ فِي مَقَامِ التَّفْضِيلِ: "لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ"[2]، وَقَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ: "وَيْحَكَ إِنَّ شَأْنَهَا شَدِيدٌ"[3]، وَقَالَ: "لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ"[4])[5].

قلت: تعرض الآيات للمكون الأساسي للمجتمع المسلم، وهو من أولئك الصنفين الذي اختارا الله عز وجل على ما – ومن– سواه:

الأول– الذين هاجروا عن أوطانهم، وهجروا أقوامهم.

الثاني– الذين آووا ونصروا، وقطعوا بذلك أوصار الجاهلية وحبائلها، لتمتد وتتجدل مع حبائل الذين هاجروا إليهم، كما قال أبو الهيثم بن التيهان رضي الله عنه في بيعة العقبة: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ – أي: اليهود– حِبَالًا وَإِنَّا قَاطِعُوهَا – يَعْنِي: الْعُهُودَ –، فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ، أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟

فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: "بَلْ الدَّمَ الدَّمَ، وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ")[6].

د– وقال الله جل جلاله: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}[التوبة: ٢٠].

---

[1] ذهب بعض السلف، إلى أن القائل هو إبراهيم عليه السلام، وذهب بعضهم إلى أنه لوط عليه السلام، والآية تحتمل الأمرين، كما قال ابن كثير في تفسير القرآن (٦/٢٧٣).

[2] الجامع للبخاري (٥/٣١) برقم (٣٧٧٩)، والمسند لمسلم (٢/٧٣٥) برقم (١٠٦١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[3] الجامع للبخاري (٢/١١٧) برقم (١٤٥٢)، والمسند لمسلم (٣/١٤٨٨) برقم (١٨٦٥) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

[4] الجامع للبخاري (٤/١٥) برقم (٢٧٨٣)، والمسند لمسلم (٣/١٤٨٨) برقم (١٨٦٤) عن عائشة رضي الله عنها.

[5] التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠/ ٨٤) باختصار.

[6] إسناده حسن: المسند لأحمد (٢٥/٨٩) برقم (١٥٧٩٨).

قلت: تُرغب الآية – وكل ما في معناها من آيات– للمنزلة التي أعدها الله ﷻ لمن اختار مفارقة قومه؛ ليجاور ربه، ماذا لهم في الدنيا، وما يدخر لهم ربهم ﷻ عنده.

و– وقال الله ﷻ: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[الحشر: ٨].

قال ابن العربي: (الْهِجْرَةُ، وَهِيَ تَنْقَسِمُ إلَى سِتَّةِ أَقْسَامٍ:

الْأَوَّلُ: الْخُرُوجُ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إلَى دَارِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَتْ فَرْضًا فِي أَيَّامِ النَّبِيِّ ﷺ... وَهَذِهِ الْهِجْرَةُ بَاقِيَةٌ مَفْرُوضَةٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ... فَمَنْ أَسْلَمَ فِي دَارِ الْحَرْبِ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُرُوجُ إلَى دَارِ الْإِسْلَامِ، فَإِنْ بَقِيَ فَقَدْ عَصَى، وَيُخْتَلَفُ فِي حَالِهِ.

الثَّانِي: الْخُرُوجُ مِنْ أَرْضِ الْبِدْعَةِ، قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ: سَمِعْت مَالِكًا يَقُولُ: لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُقِيمَ بِبَلَدٍ سُبَّ فِيهَا السَّلَفُ.

وَهَذَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ الْمُنْكَرَ إذَا لَمْ يُقْدَرْ عَلَى تَغْيِيرِهِ نُزِلَ عَنْهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[الأنعام: ٦٨]...

الثَّالِثُ: الْخُرُوجُ عَنْ أَرْضٍ غَلَبَ عَلَيْهَا الْحَرَامُ، فَإِنَّ طَلَبَ الْحَلَالِ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ.

الرَّابِعُ: الْفِرَارُ مِنْ الْإِذَايَةِ فِي الْبَدَنِ، وَذَلِكَ فَضْلٌ مِنْ اللَّهِ ﷻ أَرْخَصَ فِيهِ، فَإِذَا خَشِيَ الْمَرْءُ عَلَى نَفْسِهِ فِي مَوْضِعٍ فَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ – سُبْحَانَهُ– لَهُ فِي الْخُرُوجِ عَنْهُ، وَالْفِرَارِ بِنَفْسِهِ؛ لِيُخَلِّصَهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَحْذُورِ، وَأَوَّلُ مَنْ حَفِظْنَاهُ فِيهِ الْخَلِيلُ إبْرَاهِيمُ عليه السلام لَمَّا خَافَ مِنْ قَوْمِهِ قَالَ: {إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي}[العنكبوت: ٢٦]، وَقَالَ: {إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الصافات: ٩٩]، وَمُوسَى قَالَ اللَّهُ – سُبْحَانَهُ– فِيهِ: {فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[القصص: ٢١])[1].

ز– وقال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

[1] أحكام القرآن لابن العربي (١/٦١١، ٦١٢) باختصار.

وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا}[النساء: ٩٧-٩٩].

قلت: هذه الآيات تتناول الموقف السلبي، وهو ترك الهجرة لمن قدر عليها، واحتج بالضعف والعجز، والذي ينبغي أن يكون الباعث الأساسي، فمن الجهل احتجاجهم على القعود بما هو من موجبات الهجرة، كما قال الله ﷻ: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[النحل: ٤١]، فبين الدافع للهجرة وترتيب حدوثه، فكيف يصح الاعتذار بما هو حجة عليهم؟

لذلك حكمت الآيات على القادرين منهم، بما حكمت به عليهم، من ظلم النفس وتقريع الملائكة، واستحقاق عذاب الله ﷻ، والناس مع الهجرة على صورتين:

الأولى- متمكن من الهجرة، وهو على قسمين:

أ- قادر على إظهار دينه والدعوة إليه، دون الجهاد، فهذا محل النظر من العلماء، وفيه فقط وقع الخلاف قديماً وحديثاً.

ب- عاجز عن إظهار دينه والدعوة إليه، فهذا لا خلاف على وجوب الهجرة عليه، ويأثم إن امتنع عن ذلك.

الثانية: عاجز عن الهجرة، وهو مأمور بالهجرة متى أمكنه ذلك، ولا يأثم لعذره بالعجز، وأما مسألة إظهار الدين فهي قضية مستقلة عن فرض الهجرة والجهاد، لا تجيز للقادر على أدائها المكوث بين ظهراني الكافرين.

الجزء الثالث

المتممات

بعد أن استقر عندنا بالمؤكدات الشرعية العلامات الدالة على الملة الحنيفية، وهي الأفعال التكليفية الإيجابية، جاء أوان إنفاذ الوعد بالجزء المتمم، وهو المتعلق بالأفعال السلبية، أو التروك، فإن قيل: وما الفرق بينهما؟

قلت: أما المؤكدات فهي الفعل الإيجابي، وهو ما اكتسبه الإنسان بإرادة مصاحبة للفعل، أما المتممات فهي الفعل السلبي، وتوصيفها الظاهري أنها تروك لا أفعال، ومع ذلك فهي أفعال عند التحقيق، تُبنى عليها الأحكام الشرعية كالأولى على السواء، مثل:

- حكم تارك التوحيد؟
- حكم تارك الأركان كالصلاة والزكاة ؟
- حكم تارك الجهاد؟
- حكم تارك الهجرة من دار الكفر؟

وهكذا في أسئلة مبثوثة، ومسائل مبحوثة.

ففي الأسماء يُقال: "فاعل التوحيد"، فهذا فعل إيجابي، وأما ترك الشرك فهو فعل سلبي، ولا يدل أحدهما على الآخر، فليس فاعل النكاح الشرعي بدال على ترك الزنا، ولا ترك الربا يستلزم الربح الحلال، وهكذا هو الإيمان، كما قال تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}[يوسف: ١٠٦]، فأثبت لهم إيماناً مع شركهم، أي: أنهم آمنوا في جانب، ولكنهم ما تركوا الشرك في جوانب أخرى.

وتعلق التروك بالملة ظاهر جداً، كما في قوله ﷻ حكاية عن إبراهيم عليه السلام: {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ}[الشعراء: ٧٥-٧٧]، فهذا مما يشير إلى أنهم كانوا يعبدون الله ﷻ، ولكنها عبادة مع آلهة أخرى، فأعلن إبراهيم عليه السلام عداوته للآلهة جميعاً إلا رب العالمين، أي: أعلن تركه لعبادة الآلهة إلا الله ﷻ، وهو ما كان تابعاً ولا مؤمناً بها يوماً، غير أن مخالطة القوم قد تورث ظناً، أو أن السكوت قبل المبعث يوهم شكاً، فكان في الإعلان نقضاً لبنيان الظنون والشكوك.

ومثله قوله ﷻ عن أصحاب الكهف: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ}[الكهف: ١٦]، فاستثناء الله ﷻ من الاعتزال دليل على مشاركتهم لقومهم - من قبل- في الإيمان

بالله ﷻ، لكنه إيمان مشوب بالشراكة مع آلهة أخرى، فكان لابد من الأمرين، الفعل الإيجابي وهو الإيمان بالله ﷻ، والفعل السلبي أي: الترك.

وهذا ما نجده بادياً جلياً في قوله ﷻ حكاية عن سليل العائلة الكريمة والملة الشريفة النبي يوسف ﷺ، قال: {إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} [يوسف: ٣٧، ٣٨].

فنبي الله ﷺ ما كان في الملة الكافرة لطرفة عين، وما قاربها ولو بمقدار ذرة، وما ينبغي له، إذ هو منزه عما دون الكفر، معصوم من مخالطته، فيكون تركه بالبراءة والانخلاع والاجتناب والاعتزال للملة الكافرة وأهلها، هذا قبل – ومع– اتباعه لملة آبائه، أصحاب الملة الحنيفية، فكان تركه ﷺ للملة الكافرة من صميم الملة الحنيفية، وهي دليل – بلا لبس– على حتمية الترك، وهو ترك ملازم للتوحيد، وبثبوت ضده ينحسم القول، فكما ثبت ترك الكفر للدلالة على التوحيد، فقد وقع الإثم على تارك الهجرة مع القدرة، وقد مرت آنفاً، مما يستلزم النظر لمسألة الترك بحقها الواجب، بل وصل الحال لحد تكفير التارك، كما في قول الله ﷻ: {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة: ٨٥].

قال ابن القيم: (سمى الله ﷻ من عمل ببعض كتابه وترك العمل ببعضه مؤمناً بما عمل به، وكافراً بما ترك العمل به – وأورد الآية ثم قال:– فكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق، كافرين بما تركوه منه)[1].

وفي الترتيب القرآني مزيد فائدة، ألا تجده قدَّم الترك على الفعل؟

---

[1] الصلاة وحكم تاركها لابن القيم (٧٣).

فهذا مما يدل على وجوب الترك قبل الفعل؛ لأنه علامة التوحيد، كمثل دلالة قوله ﷻ: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[البقرة: ٢٥٦]، على تقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ﷻ.

وللاستدلال الأصولي، قال السبكي: (وقعت على ثلاثة أدلة تدل على أن الكف فعل لم أر أحداً عثر عليها.

أحدها: قوله – تعالى-: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا}[الفرقان: ٣٠]... المعنى: تناولوه متروكاً، أي: فعلوا تركه)[1].

قال الشنقيطي: (هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي زَعَمَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ دَلَّتْ عَلَيْهِ، وَهُوَ كَوْنُ الْكَفِّ فِعْلًا دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَتَانِ كَرِيمَتَانِ مِنْ سُورَةِ "الْمَائِدَةِ"، دَلَالَةً وَاضِحَةً لَا لَبْسَ فِيهَا، وَلَا نِزَاعَ...

أَمَّا الْأُولَى مِنْهُمَا، فَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}[المائدة:٦٣]، فَتَرْكُ الرَّبَّانِيِّينَ وَالْأَحْبَارِ نَهْيَهُمْ عَنْ قَوْلِ الْإِثْمِ وَأَكْلِ السُّحْتِ سَمَّاهُ اللَّهُ – جَلَّ وَعَلَا– فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ صُنْعًا فِي قَوْلِهِ: {لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}، أَيْ: وَهُوَ تَرْكُهُمُ النَّهْيَ الْمَذْكُورَ، وَالصُّنْعُ أَخَصُّ مِنْ مُطْلَقِ الْفِعْلِ، فَصَرَاحَةُ دَلَالَةِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّ التَّرْكَ فِعْلٌ فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ، كَمَا تَرَى.

وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَةُ، فَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}[المائدة:٧٩]، فَقَدْ سَمَّى – جَلَّ وَعَلَا– فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، تَرْكَهُمُ التَّنَاهِيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فِعْلًا، وَأَنْشَأَ لَهُ الذَّمَّ بِلَفْظَةِ "بِئْسَ" الَّتِي هِيَ فِعْلٌ جَامِدٌ لِإِنْشَاءِ الذَّمِّ، فِي قَوْلِهِ: {لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}[المائدة:٧٩] أَيْ: وَهُوَ تَرْكُهُمُ التَّنَاهِيَ، عَنْ كُلِّ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، وَصَرَاحَةُ دَلَالَةِ هَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا عَلَى مَا ذُكِرَ وَاضِحَةٌ، كَمَا تَرَى.

وَقَدْ دَلَّتْ أَحَادِيثُ نَبَوِيَّةٌ عَلَى ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ ﷺ: "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ"[2]، فَقَدْ سَمَّى ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ تَرْكَ أَذَى الْمُسْلِمِينَ إِسْلَامًا.

---

[1] طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١/١٠٠) وما بعدها، باختصار.

[2] الجامع للبخاري (١/١١) برقم (١٠) عن ابن عمرو رضي الله عنهما، والمسند لمسلم (١/٦٥) برقم (٤٥) عن جابر رضي الله عنه.

وَمِمَّا يَدُلُّ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى أَنَّ التَّرْكَ فِعْلٌ قَوْلُ بَعْضِ الصَّحَابَةِ فِي وَقْتِ بِنَائِهِ ﷺ لِمَسْجِدِهِ بِالْمَدِينَةِ: "لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ ... لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضَلِّلُ"[1].

فَسَمَّى قُعُودَهُمْ عَنِ الْعَمَلِ، وَتَرْكَهُمْ لَهُ عَمَلًا مُضَلِّلًا.

وَقَدْ أَشَارَ صَاحِبُ "مَرَاقِي السُّعُودِ"[2]، إِلَى أَنَّ الْكَفَّ فِعْلٌ عَلَى الْمَذْهَبِ، أَيْ: وَهُوَ الْحَقُّ)[3].

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام (٤٩٦/١)، قلت: وهو ثالث أدلة السبكي لتقرير كلامه، انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١/١٠٠-١٠٢).

[2] مراقي السعود لعبد الله الشنقيطي (٥)، ولفظه: (والترك فعل في صحيح المذهب).

[3] أضواء البيان للشنقيطي (٤٨/٦، ٤٩) باختصار.

العلامة الأولى
"ترك اتخاذهم أولياء"

قال الراغب: (الولاء والتوالي: أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد.

والولاية: النصرة)[1].

والأدلة الشرعية في المسألة على قسمين:

الأول– ما يثبت الولاء للمؤمنين، كما...

أ– قال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}[الأنفال:٧٢].

ب– وقال الله ﷻ: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}[التوبة:٧١].

الثاني– ما ينهى عن موالاة الكافرين، وهو موضع حديثنا، كما...

أ– قال الله ﷻ: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}[آل عمران:٢٣].

قال الطبري: (هَذَا نَهْيٌ مِنَ اللَّهِ عَجَّلَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا الْكُفَّارَ أَعْوَانًا وَأَنْصَارًا وَظُهُورًا... فَإِنَّهُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ {فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ} يَعْنِي بِذَلِكَ: فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ، وَبَرِئَ اللَّهُ مِنْهُ بِارْتِدَادِهِ عَنْ دِينِهِ، وَدُخُولِهِ فِي الْكُفْرِ)[2].

وقال ابن العربي: (هَذَا عُمُومٌ فِي أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَتَّخِذُ الْكَافِرَ وَلِيًّا فِي نَصْرِهِ عَلَى عَدُوِّهِ، وَلَا فِي أَمَانَةٍ وَلَا بِطَانَةٍ)[1].

---

[1] المفردات للراغب الأصفهاني (٨٨٥/١).

[2] جامع البيان للطبري (٣١٥/٥) باختصار.

وقال البيضاوي: (نُهُوا عَنْ مُوَالَاتِهِمْ لِقَرَابَةٍ وَصَدَاقَةٍ جَاهِلِيَّةٍ وَنَحْوِهِمَا، حَتَّى لَا يَكُونَ حُبُّهُمْ وَبُغْضُهُمْ إِلَّا فِي اللَّهِ، أَوْ عَنِ الِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ فِي الْغَزْوِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ)[٢].

وقال أبو حيان: (ظَاهِرُ الْآيَةِ تَقْتَضِي النَّهْيَ عَنْ مُوَالَاتِهِمْ إِلَّا مَا فَسَحَ لَنَا فِيهِ مِنَ اتِّخَاذِهِمْ عَبِيدًا، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِمُ اسْتِعَانَةَ الْعَزِيزِ بِالذَّلِيلِ، وَالْأَرْفَعِ بِالْأَوْضَعِ، وَالنِّكَاحِ فِيهِمْ، فَهَذَا كُلُّهُ ضَرْبٌ مِنَ الْمُوَالَاةِ أُذِنَ لَنَا فِيهِ، وَلَسْنَا مَمْنُوعِينَ مِنْهُ، فَالنَّهْيُ لَيْسَ عَلَى عُمُومِهِ...

{وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ} ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى اتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي تَرْكِ الْمُوَالَاةِ، إِذْ نَفَى عَنْ مُتَوَلِّيهِمْ أَنْ يَكُونَ فِي شَيْءٍ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الْكَلَامِ مُضَافٌ مَحْذُوفٌ أَيْ: فَلَيْسَ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ فِي شَيْءٍ.

وَقِيلَ: مِنْ دِينِهِ.

وَقِيلَ: مِنْ عِبَادَتِهِ.

وَقِيلَ: مِنْ حِزْبِهِ)[٣].

قلت: في الآية نهي مطلق معلق بالبراءة ممن اتخذ الكافرين أولياء، فظاهرهم أو ناصرهم أو أعانهم، لما يدل ذلك على قربٍ من الكافرين، وبعدٍ عن المؤمنين، وهو غير ما أمر الله ﷻ به، ولا يفعل هذا إلا من اختلط بقلبه الميل لأعداء الله ﷻ، أو الاستغناء عن أولياء الله ﷻ، فكيف يكون بعدها من أولياء الله ﷻ وحزبه؟!

ب- وقال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا}[النساء: ١٤٤].

(قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُتْبَةَ: لِيَتَّقِ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا وَهُوَ لَا يَشْعُرُ)[٤].

---

[١] أحكام القرآن لابن العربي (٣٥١/١).

[٢] أنوار التنزيل للبيضاوي (١٢/٢).

[٣] البحر المحيط لأبي حيان (٩٢/٣) باختصار.

[٤] تفسير ابن أبي حاتم (١١٥٦/٤) برقم (٦٥١١)، وقد نقله عبد بن حميد عن حذيفة ﷺ، كما في الدر المنثور للسيوطي (١٠٠/٣).

وقال الطبري: (مَنْ يَتَوَلَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى دُونَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، يَقُولُ: فَإِنَّ مَنْ تَوَلَّاهُمْ وَنَصَرَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ دِينِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ، فَإِنَّهُ لَا يَتَوَلَّى مُتَوَلٍّ أَحَدًا إِلَّا وَهُوَ بِهِ وَبِدِينِهِ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ رَاضٍ، وَإِذَا رَضِيَهُ وَرَضِيَ دِينَهُ فَقَدْ عَادَى مَا خَالَفَهُ وَسَخِطَهُ، وَصَارَ حُكْمُهُ حُكْمَهُ)[1].

وقال الجصاص: (اقْتَضَتْ الْآيَةُ النَّهْيَ عَنْ الِاسْتِنْصَارِ بِالْكُفَّارِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ وَالرُّكُونِ إلَيْهِمْ وَالثِّقَةِ بِهِمْ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَسْتَحِقُّ الْوِلَايَةَ عَلَى الْمُسْلِمِ بِوَجْهٍ... وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا تَجُوزُ الِاسْتِعَانَةُ بِأَهْلِ الذِّمَّةِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا التَّصَرُّفُ وَالْوِلَايَةُ)[2].

وقال ابن حزم: (صَحَّ أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ – تَعَالَى–: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}، إنَّمَا هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ، بِأَنَّهُ كَافِرٌ مِنْ جُمْلَةِ الْكُفَّارِ، وَهَذَا حَقٌّ لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ اثْنَانِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ)[3].

وقال ابن كثير: (يَنْهَى – تَعَالَى– عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، يَعْنِي مُصَاحَبَتَهُمْ وَمُصَادَقَتَهُمْ وَمُنَاصَحَتَهُمْ وَإِسْرَارَ الْمَوَدَّةِ إِلَيْهِمْ، وَإِفْشَاءَ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَاطِنَةِ إِلَيْهِمْ)[4].

قلت: كما هو الفرق بين الإيمان والكفر، فكذلك يجب أن يكون البون بين حاملي الصفتين، مساحة شاسعة لا التقاء فيها ولا تجاور ولا توادد ولا تناصر، بل هي معاداة كاملة، وبراءة تامة، بهذا يصح للمؤمن أن يسمي نفسه مؤمناً، أما إذا أخل بإحداها أو خرق بعضها، فثمة ثلمة في إيمانه بحسب قربه من أعداء الله ﷻ.

ج– وقال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[المائدة: ٥١].

---

[1] جامع البيان للطبري (٥٠٨/٨).

[2] أحكام القرآن للجصاص (٢٨٠/٣) باختصار.

[3] المحلى لابن حزم (٣٣/١٢).

[4] تفسير القرآن لابن كثير (٤٤١/٢).

قال الجصاص: (فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلْمُسْلِمِ لَا فِي التَّصَرُّفِ وَلَا فِي النُّصْرَةِ، وَيَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الْبَرَاءَةِ مِنْ الْكُفَّارِ وَالْعَدَاوَةِ لَهُمْ؛ لِأَنَّ الْوِلَايَةَ ضِدُّ الْعَدَاوَةِ، فَإِذَا أُمِرْنَا بِمُعَادَاةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِكُفْرِهِمْ، فَغَيْرُهُمْ مِنْ الْكُفَّارِ بِمَنْزِلَتِهِمْ)[1].

وقال الرازي: (مَعْنَى لَا تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ: أَيْ: لَا تَعْتَمِدُوا عَلَى الِاسْتِنْصَارِ بِهِمْ، وَلَا تَتَوَدَّدُوا إِلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ كَأَنَّهُ مِثْلُهُمْ.

وَهَذَا تَغْلِيظٌ مِنَ اللَّهِ وَتَشْدِيدٌ فِي وُجُوبِ مُجَانَبَةِ الْمُخَالِفِ فِي الدِّينِ)[2].

وقال ابن كثير: (يَنْهَى – تَعَالَى– عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَالَاةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، الَّذِينَ هُمْ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ – قَاتَلَهُمُ اللَّهُ–، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، ثُمَّ تَهَدَّدَ وَتَوَعَّدَ مَنْ يَتَعَاطَى ذَلِكَ فَقَالَ: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ})[3].

قلت: بهذا الحسم والوضوح تصرح الآية، أن متولي الكافرين منهم حكماً كما هو منهم وصفاً، وما دام رضي بتوليهم، أو ظهر منه ما يدل على ولايته، فلا يغضبه أن ينزل الحكم عليه؛ لأنه استحقاق بنص لا اجتهاد فيه، قال القرطبي: (بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ حُكْمَهُ كَحُكْمِهِمْ)[4].

د– وقال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[المائدة: ٥٧].

هـ– وقال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[التوبة: ٢٣].

قال ابن العربي: (نَفَى اللَّهُ الْمُوَالَاةَ بِالْكُفْرِ بَيْنَ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ خَاصَّةً، وَلَا قُرْبَى أَقْرَبُ مِنْهَا، كَمَا نَفَاهَا بَيْنَ النَّاسِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، بِقَوْلِهِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ

[1] أحكام القرآن للجصاص (٤/٩٩).

[2] التفسير الكبير للرازي (١٢/٣٧٥).

[3] تفسير القرآن لابن كثير (٣/١٣٢).

[4] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦/٢١٧).

وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}[المائدة: ٥١]؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ الْقُرْبَ قُرْبُ الْأَدْيَانِ لَا قُرْبُ الدِّيَارِ وَالْأَبْدَانِ)[1].

وقال الرازي: (لَمَّا أَمَرَ – أي: الله ﷻ– الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّبَرِّي عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَبَالَغَ فِي إِيجَابِهِ، قَالُوا: كَيْفَ تُمْكِنُ هَذِهِ الْمُقَاطَعَةُ التَّامَّةُ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ وَأَخِيهِ؟

فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّ الِانْقِطَاعَ عَنِ الْآبَاءِ وَالْأَوْلَادِ وَالْإِخْوَانِ وَاجِبٌ بِسَبَبِ الْكُفْرِ...

{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ مُشْرِكًا مِثْلَهُمْ؛ لِأَنَّهُ رَضِيَ بِشِرْكِهِمْ، وَالرِّضَا بِالْكُفْرِ كُفْرٌ، كَمَا أَنَّ الرِّضَا بِالْفِسْقِ فِسْقٌ)[2].

قلت: إذا قُطعت أسباب التعلق بالآباء والأخوة، وهي جديرة بالوصل للحاجة والانتماء، فما حجة من تقارب مع من دونهما، ممن لا يكاد يجتمع في النسب إلا من جهة آدم عليه السلام؟

إن ذاك إلا لمرض في القلب أو هوى في النفس يوشك أن يورد صاحبه المهلك معهم.

و– وقال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}[الممتحنة: ١].

قلت: مجموع الآيات بعد ترسيخها لحقيقة العلاقة بين المؤمنين والكافرين، تذكر تفاصيل الصف الآخر، فمنهم اليهود والنصارى، ومنهم الآباء والإخوان والأقرباء والعشيرة، ومنهم من ذكر بأوصافهم الدالة عليهم، كعداوتهم لله ﷻ، أو عداوتهم لأوليائه، أو من يتخذ الموحدين هزواً، والتوحيد لعباً، فهؤلاء جميعاً ومن هم على أضرابهم، حذرت الآيات من اتخاذهم أولياء، وأعلنت حكماً بالتبرؤ منهم، إذ إنهم ليسوا من حزب الله ﷻ ولا من عباده المؤمنين.

---

[1] أحكام القرآن لابن العربي (٤٦٢/٢).

[2] التفسير الكبير للرازي (١٦/١٦، ١٧) باختصار

العلامة الثانية

ترك اتخاذهم بطانة

قال الراغب: (البِطَانَةُ: خِلَافُ الظِّهَارَةِ، وَبَطَّنْتُ ثَوْبِي بِآخَرٍ: جَعَلْتُهُ تَحْتَهُ... وَتُسْتَعَارُ البِطَانَةُ لِمَنْ تَخْتَصُّهُ بِالِاطِّلَاعِ عَلَى بَاطِنِ أَمْرِك، قَالَ ﷻ: {لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ}[آل عمران: ١١٨]، أَيْ: مُخْتَصًّا بِكُمْ يَسْتَبْطِنُ أُمُورَكُمْ، وَذَلِكَ اِسْتِعَارَةٌ مِنْ بِطَانَةِ الثَّوْبِ)[1].

قلت: الباطن كل ما خالف الظاهر، وذلك لالتصاق ما يستبطن بالجسد، فجاء النهي الشرعي إشارة إلى أن الموحد لا يصح له استبطان الكافرين، وهو المأمور أساساً بهجرهم، والهجرة عنهم ومفارقتهم، وكذلك هو منهي عن مقاربتهم أو مجاورتهم أو مساكنتهم، كما مر من قبل، فكيف يتخذهم بطانة بعد ذلك؟!

وسيأتي النهي عن مظاهرة الكافرين، وبالنهيين تكتمل دائرة البناء، بترك اتخاذ الكافرين بطانة لحفظ السر أو النصح، وترك اتخاذهم ظهرياً مساندين أو معاونين، فإلى النهي عن استبطانهم والتي جاءت الآيات حاسمة له، كما...

أ- قال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}[آل عمران: ١١٨].

قال الطبري: (يَقُولُ: لَا تَتَّخِذُوا أَوْلِيَاءَ وَأَصْدِقَاءَ لِأَنْفُسِكُمْ ... مِنْ دُونِ أَهْلِ دِينِكُمْ وَمِلَّتِكُمْ، يَعْنِي مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّمَا جَعَلَ الْبِطَانَةَ مَثَلًا لِخَلِيلِ الرَّجُلِ، فَشَبَّهَهُ بِمَا وَلِيَ بَطْنَهُ مِنْ ثِيَابِهِ؛ لِحُلُولِهِ مِنْهُ فِي اطِّلَاعِهِ عَلَى أَسْرَارِهِ، وَمَا يَطْوِيهِ عَنْ أَبَاعِدِهِ وَكَثِيرٍ مِنْ أَقَارِبِهِ، مَحَلَّ مَا وَلِيَ جَسَدَهُ مِنْ ثِيَابَهُ، فَنَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنَ الْكُفَّارِ بِهِ أَخِلَّاءَ وَأَصْفِيَاءَ)[2].

---

[1] المفردات للراغب الأصفهاني (١/١٣٠، ١٣١) باختصار.

[2] جامع البيان للطبري (٥/٧٠٧، ٧٠٨) باختصار.

وقال الجصاص: (فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا تَجُوزُ الِاسْتِعَانَةُ بِأَهْلِ الذِّمَّةِ فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ الْعِمَالَاتِ وَالْكَتَبَةِ... عَنْ أَبِي دُهْقَانَةَ قَالَ: قُلْت لِعُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَنَّ هَاهُنَا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْحِيرَةِ لَمْ نَرَ رَجُلًا أَحْفَظَ مِنْهُ، وَلَا أَخَطَّ مِنْهُ بِقَلَمٍ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ نَتَّخِذَهُ كَاتِبًا، قَالَ: قَدْ اتَّخَذْتُ إذًا بِطَانَةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَرَوَى هِلَالُ الطَّائِيُّ عَنْ وَسْقٍ الرُّومِيِّ قَالَ: كُنْت مَمْلُوكًا لِعُمَرَ، فَكَانَ يَقُولُ لِي: أَسْلِمْ، فَإِنَّك إنْ أَسْلَمْتَ اسْتَعَنْتُ بِكَ عَلَى أَمَانَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ أَسْتَعِينَ عَلَى أَمَانَتِهِمْ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، فَأَبَيْتُ، فَقَالَ: لَا إكْرَاهَ فِي الدِّينِ)[1].

وقال الرازي: (اخْتَلَفُوا فِي أَنَّ الَّذِينَ نَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُخَالَطَتِهِمْ مَنْ هُمْ؟ عَلَى أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ هُمُ الْيَهُودُ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يُشَاوِرُونَهُمْ فِي أُمُورِهِمْ وَيُؤَانِسُونَهُمْ، لِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الرَّضَاعِ وَالْحِلْفِ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ وَإِنْ خَالَفُوهُمْ فِي الدِّينِ، فَهُمْ يَنْصَحُونَ لَهُمْ فِي أَسْبَابِ الْمَعَاشِ...

الثَّانِي: أَنَّهُمْ هُمُ الْمُنَافِقُونَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَغْتَرُّونَ بِظَاهِرِ أَقْوَالِ الْمُنَافِقِينَ وَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ صَادِقُونَ فَيُفْشُونَ إِلَيْهِمُ الْأَسْرَارَ وَيُطْلِعُونَهُمْ عَلَى الْأَحْوَالِ الْخَفِيَّةِ...

الثَّالِثُ: الْمُرَادُ بِهِ جَمِيعُ أَصْنَافِ الْكُفَّارِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ}، فَمَنَعَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَيَكُونُ ذَلِكَ نَهْيًا عَنْ جَمِيعِ الْكُفَّارِ)[2].

وقال القرطبي: (نَهَى اللَّهُ ﷻ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنَ الْكُفَّارِ وَالْيَهُودِ وَأَهْلِ الْأَهْوَاءِ دُخَلَاءَ وَوُلَجَاءَ، يُفَاوِضُونَهُمْ فِي الْآرَاءِ، وَيُسْنِدُونَ إِلَيْهِمْ أُمُورَهُمْ...

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى الْمَعْنَى الَّذِي لِأَجْلِهِ نَهَى عَنِ الْمُوَاصَلَةِ، فَقَالَ: {لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا} يَقُولُ: فَسَادًا، يَعْنِي: لَا يَتْرُكُونَ الْجَهْدَ فِي فَسَادِكُمْ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ وَإِنْ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الظَّاهِرِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَتْرُكُونَ الْجَهْدَ فِي الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ...

وَجَاءَ عُمَرَ كِتَابٌ فَقَالَ لِأَبِي مُوسَى: أَيْنَ كَاتِبُكَ يَقْرَأُ هَذَا الْكِتَابَ عَلَى النَّاسِ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ.

---

[1] أحكام القرآن للجصاص (٢/٣٢٤) باختصار.

[2] التفسير الكبير للرازي (٨/٣٣٩) باختصار.

فَقَالَ: لِمَ! أَجُنُبٌ هُوَ؟

قَالَ: إِنَّهُ نَصْرَانِيٌّ.

فَانْتَهَرَهُ، وَقَالَ: لَا تُدْنِهِمْ وَقَدْ أَقْصَاهُمُ اللَّهُ، وَلَا تُكْرِمْهُمْ وَقَدْ أَهَانَهُمُ اللَّهُ، وَلَا تَأْمَنْهُمْ وَقَدْ خَوَّنَهُمُ اللَّهُ...

قُلْتُ: وَقَدِ انْقَلَبَتِ الْأَحْوَالُ فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ بِاتِّخَاذِ أَهْلِ الْكِتَابِ كَتَبَةً وَأُمَنَاءَ، وَتَسَوَّدُوا بِذَلِكَ عِنْدَ الْجَهَلَةِ الْأَغْبِيَاءِ، مِنَ الْوُلَاةِ وَالْأُمَرَاءِ)[1].

قلت: حين يكون مُخبرنا عن باطن الكافرين هو الله ﷻ، فإنا لا نملك حينها إلا أن نوقن بصدق قيله، حتى لو ظهر من أقوالهم أو أفعالهم ما يدل على خلاف ذلك، فإنا نكذبهم في ظاهرهم، بل نكذب أنفسنا إن نحن صدقناهم، لذلك لابد للموحد أن ينخلع من ذاته وكينونته، ليذوب في صبغة الله ﷻ، وبهذا يتحقق منهج التوحيد، وتترسخ معالم الملة، حين يتباعد الموحد عن الكافرين ذاتاً ومنهجاً وسماعاً واستنصاحاً، فإنهم كاذبون ولو صدقونا، خائنون ولو ناصحونا، ومخادعون وإن سالمونا.

والعقل المرشد للتقارب أو التحالف أو التناصر أو التعاون معهم مُضلل، والفهم المؤيد لذلك مزور، والرأي المساند لذلك محرف، والسياسة المبنية على ذلك وهم وخداع، حتى ولو لاقت الملايين من المصفقين والأتباع، فالله ﷻ أصدق منهم، وهو حين أخبرنا عن مخبرهم، فهو من جهة يعلم بخلقه، ومن جهة أخرى يدلنا على عدوه وعدونا لنحذره، فكيف يصح حينئذٍ أن نعلنها جهاداً في سبيله، وابتغاء مرضاته، ونحن وعدوه تحت راية واحدة، وفي خندق واحد؟! أيستقيم هذا عن ذي لب؟!

ب- وقال الله ﷻ: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا}[الإسراء: ٧٣-٧٥].

قال البغوي: ({لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا} أَيْ: وَالَوْكَ وَصَافَوْكَ)[2].

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/١٧٨، ١٧٩) باختصار.

[2] معالم التنزيل للبغوي (٥/١١١).

وقال السعدي: ({لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا} أَيْ: حَبِيبًا صَفِيًّا، أَعِزَّ عَلَيْهِمْ مِنْ أَحْبَابِهِمْ، لِمَا جَبَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الْآدَابِ، الْمُحَبَّبَةِ لِلْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَالصَّدِيقِ وَالْعَدُوِّ، وَلَكِنْ لِتَعْلَمَ أَنَّهُمْ لَمْ يُعَادُوكَ وَيُنَابِذُوكَ الْعَدَاوَةَ، إِلَّا لِلْحَقِّ الَّذِي جِئْتَ بِهِ لَا لِذَاتِكَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}[الأنعام:٣٣])[١].

قلت: تضيء الآية جانباً مظلماً من عقيدة الكفار، وهو أنهم أولاً لا يعادون الموحدين لذواتهم، فإنهم يعرفون طهرهم وشرفهم، وسمو مكانتهم، ورفعة أخلاقهم، ولكن العداء من أجل ما يحملوه من التوحيد، فليفهم هذا كل موحد.

وهم ثانياً حين ييأسوا من مواجهة الموحد، فتفشل السبل المباشرة من قتل أو حبس أو إخراج أو تشريد، تراهم – بوحي الشيطان– يميلون بمنهجهم –كما هي قلوبهم– لنحو آخر، وهو الالتفاف من خلف الهدف عبر حرف مسار الموحد، وإمالة الداعية عن الصراط المستقيم، وذلك بمكر وخداع؛ ليصرفوه نحو الهدف الواحد، والقضايا المشتركة، ونقاط الالتقاء، ومراكز التجمع، ومحاور التعاون، وهم بذلك يخادعون الموحد لا ليقتربوا منه، بل ليقربوه إليهم عبر إغراقه في لججهم الباطلة، فتسكن نفسه إليهم ظناً منه أنهم قد أرهقتم الحرب، أو أثقلهم العداء، فوجدوا في السكون منفساً للصلح، ومنفذاً للسلم المنشود.

هذه خديعة حاسرة الرأس عارية البدن، ومع كشف الآية لهذا التضليل فإن دلالاتها لا تقتصر على هذا المعنى فقط، فمصاحباً له رد كل رأي يأتينا من الكفار، ولو كان في ثوب النصح بادياً، فإنهم ليسوا بمأمونين في نصحهم لنسمع منهم أو نميل لقولهم أو نركن لسياستهم، من أجل ذلك جاء التثبيت من الله ﷻ لنبيه ﷺ؛ لئلا يتخذهم ناصحين ولا راسمين لسياسته الدعوية، ولا يطيعهم في بعض أمره أو أمرهم، وكيف يصح منه ذلك، وقد جاء النهي عن طاعتهم في سورة حملت اسمه، فقال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ

---

[١] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/٤٦٣)

مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ}[محمد: ٢٥، ٢٦].

العلامة الثالثة

"ترك الصلاة على ميتهم أو الاستغفار له"

وهذه العلامة تتناول من كان كفره كفراً أصلياً، أو كان كفره كفر ردة، وذلك إبطالاً لما شاع وانتشر وذِيع واشتهر، من احتمال توبته قبل موته، أو أنه لا يجوز على الميت إلا الدعاء بالرحمة، أو أن الله ﷻ أعلم بحاله، أو أن له أعمالاً يعدونها صالحة كالمقاومة، فهذا باطل، ومناقض لمنهج التوحيد الذي أمرنا الله ﷻ به، كما قال ﷻ: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}[التوبة: ١١٣، ١١٤].

قال الطبري: (يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: مَا كَانَ يَنْبَغِي لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا، يَقُولُ: أَنْ يَدْعُوا بِالْمَغْفِرَةِ لِلْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ أُولِي قُرْبَى، ذَوِي قَرَابَةٍ لَهُمْ، {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} يَقُولُ: مِنْ بَعْدِ مَا مَاتُوا عَلَى شِرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ قَضَى أَنْ لَا يَغْفِرَ لِمُشْرِكٍ، فَلَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يَفْعَلَ مَا قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ)[١].

وقال الرازي: (الْعِلَّةُ الْمَانِعَةُ مِنْ هَذَا الِاسْتِغْفَارِ هُوَ تَبَيُّنُ كَوْنِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَهَذِهِ الْعِلَّةُ لَا تَخْتَلِفُ بِأَنْ يَكُونُوا مِنَ الْأَقَارِبِ أَوْ مَنِ الْأَبَاعِدِ...

[وفي الآية:] إِيجَابُ الِانْقِطَاعِ عَنِ الْكُفَّارِ أَحْيَائِهِمْ وَأَمْوَاتِهِمْ، ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ غَيْرُ مُخْتَصٍّ بِدِينِ مُحَمَّدٍ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–، بَلِ الْمُبَالَغَةُ فِي تَقْرِيرِ وُجُوبِ الِانْقِطَاعِ كَانَتْ مَشْرُوعَةً أَيْضًا فِي دِينِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام)[٢].

---

[١] جامع البيان للطبري (١٢/١٩).

[٢] التفسير الكبير للرازي (١٦/١٥٨، ١٥٩) باختصار، وما بين المعقوفتين زيادة لضرورة الوصل.

وقال القرطبي: (هَذِهِ الْآيَةُ تَضَمَّنَتْ قَطْعَ مُوَالَاةِ الْكُفَّارِ حَيِّهِمْ وَمَيِّتِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ، فَطَلَبُ الْغُفْرَانِ لِلْمُشْرِكِ مِمَّا لَا يَجُوزُ)[١].

وقال أبو حيان: (دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي إِظْهَارِ الْبَرَاءَةِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمَنْعِ مِنْ مُوَاصَلَتِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِي غَايَةِ الْقُرْبِ...

وَمِنْ هَذَا قَوْلُ أَبِي هُرَيْرَةَ: رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا اسْتَغْفَرَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ وَلِأُمِّهِ، قِيلَ لَهُ: وَلِأَبِيهِ؟

قَالَ: لَا، لِأَنَّ أَبِي مَاتَ كَافِرًا)[٢].

قلت: ذهب الجمهور إلى أن المقصود بالاستغفار هو الدعاء بالمغفرة للمشركين، وذهب عطاء بن أبي رباح – رحمه الله– إلى أنها الصلاة[٣]، فكأنه يقول: "ما كان للنبي والذين آمنوا أن يصلوا على المشركين"، وتُحيط الآية بصنفين:

الأول– المشرك من هذه الأمة.

الثاني– المنافق، وهو الكافر الزنديق، كما قال الله ﷻ: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} إلى قوله ﷻ: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}[التوبة: ٨٠–٨٤].

قال الجصاص: (فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى مَعَانٍ، أَحَدُهَا: فِعْلُ الصَّلَاةِ عَلَى مَوْتَى الْمُسْلِمِينَ، وَحَظْرُهَا عَلَى مَوْتَى الْكُفَّارِ)[٤].

وقال ابن العربي: (هَذَا عُمُومٌ فِي الَّذِي نَزَلَتْ الْآيَةُ بِسَبَبِهِ، وَفِي كُلِّ مُنَافِقٍ مِثْلِهِ)[٥].

وقال ابن تيمية: (الصَّلَاةُ لَا تَجُوزُ عَلَى مَنْ عُلِمَ نِفَاقُهُ بِنَصِّ الْقُرْآنِ)[٦].

---

[١] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٨/٢٧٣) باختصار.

[٢] البحر المحيط لأبي حيان (٥/ ٥١٢، ٥١٣) باختصار.

[٣] جامع البيان للطبري (١٢/١٩) وما بعدها.

[٤] أحكام القرآن للجصاص (٤/٣٥١).

[٥] أحكام القرآن لابن العربي (٢/٥٦٠).

[٦] مجموع فتاوى ابن تيمية (٧/٢١٦).

وقال الشوكاني: (فِيهِ بَيَانٌ لِعَدَمِ الْمَغْفِرَةِ مِنَ اللَّهِ – سُبْحَانَهُ– لِلْمُنَافِقِينَ، وَإِنْ أَكْثَرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لَوْ زَادَ عَلَى السَّبْعِينَ لَكَانَ ذَلِكَ مَقْبُولًا، كَمَا فِي سَائِرِ مَفَاهِيمِ الْأَعْدَادِ، بَلِ الْمُرَادُ بِهَذَا: الْمُبَالَغَةُ فِي عَدَمِ الْقَبُولِ)[١].

[١] فتح القدير للشوكاني (٢/٤٤١).

العلامة الرابعة

ترك التحاكم إليهم

التحاكم: هو التقاضي، ويكون غالباً في متنازع فيه بين خصمين، فيلجآن لمن يفصل بينهما، وقد جاءت الشريعة في مجملها وتفاصيل أدلتها آمرة بتحكيم شخص الرسول ﷺ حياً، وبالكتاب والسنة بالنقل الصحيح وعلى الفهم الصحيح بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وهذا حكم مستقل مستقر، ويجب على المسلمين لزوماً الانقياد لحكم الله ﷻ ورسوله ﷺ، والأدلة مستفيضة في هذا المضمار.

ولأن الحكم حكمان: حكم الله ﷻ، وحكم الجاهلية، كان من علامات الملة، ترك التحاكم للكفار، كعلامة على المفارقة الحكمية، كما هي المفارقة المنهجية، ولأن في ترك التحاكم إليهم دليل على عدم الرضا بحكمهم، وخروج عن سلطانهم المتمثل في فرض حكمهم على المتنازعين، كما قال الله ﷻ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء:٦٠].

قال الطبري: ({يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا} فِي خُصُومَتِهِمْ {إِلَى الطَّاغُوتِ} يَعْنِي: إِلَى مَنْ يُعَظِّمُونَهُ، وَيَصْدُرُونَ عَنْ قَوْلِهِ، وَيَرْضَوْنَ بِحُكْمِهِ مِنْ دُونِ حُكْمِ اللَّهِ، {وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ} يَقُولُ: وَقَدْ أَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُكَذِّبُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ الطَّاغُوتُ الَّذِي يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ، فَتَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ الشَّيْطَانِ، {وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا})[1].

وقال أبو حيان: (ذَكَرَ أَنَّهُ يَعْجَبُ بَعْدَ وُرُودِ هَذَا الْأَمْرِ[2]، مِنْ حَالِ مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ، وَيُرِيدُ أَنْ يَتَحَاكَمَ إِلَى الطَّاغُوتِ، وَيَتْرُكَ الرَّسُولَ)[1].

---

[1] جامع البيان للطبري (١٨٨/٧، ١٨٩).

[2] يقصد قوله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[النساء: ٥٩].

وقال ابن كثير: (هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ عَلَى مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُرِيدُ التَّحَاكُمَ فِي فَصْلِ الْخُصُومَاتِ إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، كَمَا ذُكِرَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّهَا فِي رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ تَخَاصَمَا، فَجَعَلَ الْيَهُودِيُّ يَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ مُحَمَّدٌ، وَذَاكَ يَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ.

وَقِيلَ: فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، مِمَّنْ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ، أَرَادُوا أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى حُكَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ.

وَالْآيَةُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَإِنَّهَا ذَامَّةٌ لِمَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَحَاكَمُوا إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ الْبَاطِلِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالطَّاغُوتِ هَاهُنَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ)[2].

وقال الشوكاني: (قَوْلُهُ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ} فِيهِ تَعْجِيبٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ حَالِ هَؤُلَاءِ، الَّذِينَ ادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – وَهُوَ الْقُرْآنُ–، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى مَنْ قَبْلِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَجَاؤُوا بِمَا يَنْقُضُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الدَّعْوَى، وَيُبْطِلُهَا مِنْ أَصْلِهَا، وَيُوَضِّحُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَصْلًا، وَهُوَ إِرَادَتُهُمُ التَّحَاكُمُ إِلَى الطَّاغُوتِ، وَقَدْ أُمِرُوا فِيمَا أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَعَلَى مَنْ قَبْلَهُ، أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ)[3].

وقال السعدي: (يُعَجِّبُ تَعَالَى عِبَادَهُ مِنْ حَالَةِ الْمُنَافِقِينَ، {الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ} مُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَبِمَا قَبْلَهُ، وَمَعَ هَذَا {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ}، وَهُوَ كُلُّ مَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ شَرْعِ اللَّهِ فَهُوَ طَاغُوتٌ.

وَالْحَالُ أَنَّهُمْ {قد أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ} فَكَيْفَ يَجْتَمِعُ هَذَا وَالْإِيمَانُ؟

---

[1] البحر المحيط لأبي حيان (٦٨٨/٣).

[2] تفسير القرآن لابن كثير (٣٤٦/٢).

[3] فتح القدير للشوكاني (٥٥٧/١).

فَإِنَّ الْإِيمَانَ يَقْتَضِي الِانْقِيَادَ لِشَرْعِ اللَّهِ وَتَحْكِيمِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، وَاخْتَارَ حُكْمَ الطَّاغُوتِ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَهُوَ كَاذِبٌ فِي ذَلِكَ)[1].

وقال الشنقيطي: (وَقَدْ عَجِبَ نَبِيُّهُ ﷺ بَعْدَ قَوْلِهِ: {فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ}[النساء:٥٩]، مِنَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ مَعَ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْمُحَاكَمَةَ إِلَى مَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِصِفَاتِ مَنْ لَهُ الْحُكْمُ، الْمُعَبَّرِ عَنْهُ فِي الْآيَةِ بِالطَّاغُوتِ، وَكُلُّ تَحَاكُمٍ إِلَى غَيْرِ شَرْعِ اللَّهِ فَهُوَ تَحَاكُمٌ إِلَى الطَّاغُوتِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ – تَعَالَى–...)[2]، وذكر الآية.

قلت: لتلازم الباطن مع الظاهر، كان في ذهاب الذاهب للكفار متحاكماً إلى دينهم أو سياستهم أو قوانينهم، دليلاً ظاهراً على قربه منهم ذاتاً، وإيمانه بقضائهم، وتسليمه لسلطانهم الأعلى، واعترافه بعدلهم أو حسن حكمهم، وكل هذا من نواقض التوحيد، وعكسه صحيح، إذ في ترك التحاكم إليهم – ولو في عدم وجود الحكم الإسلامي– أكبر الدلالة على ميزتين:

الأولى– أن الموحد لا يسلم بالواقع إذا فسد، وإيمانه بمنهجه صح، بما أبعده عن مجامعه الكفرة في قوانينهم.

الثانية– أنه آثر الآخرة على الدنيا، حتى لو كان في تركه التحاكم إليهم، فوات حقه في الدنيا.

---

[1] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (١/١٨٤).

[2] أضواء البيان للشنقيطي (٧/٥٠).

العلامة الخامسة

"ترك الركون إليهم"

قال الجوهري: (رَكِنَ إِلَيهِ... أَيْ: مَالَ إِلَيْهِ وَسَكَنَ)[1].

والنفس لا تميل إلا لمن اجتمعت معه في الصفة، كما في الحديث: "الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ"[2]، فإذا مالت نفس الموحد للموحدين، كانت علامة الود والمحبة، وهي ظاهرة في الدلالة على الموالاة، مما ينتج عنه طبيعياً ظهور ثمار البراءة والمعاداة والنفرة من الكافرين ذاتاً ومنهجاً، وهو كل ما كان وينبغي أن يكون من علامات الملة التي سبق إيرادها مشفوعة بالأدلة، ومع ذلك وتأكيداً لهذا المؤكد، نهى الله ﷻ عباده الموحدين عن الركون للكافرين، كما...

أ- قال الله ﷻ: {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ} [هود: ١١٣].

قال الطبري: (لَا تَمِيلُوا أَيُّهَا النَّاسُ إِلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ، فَتَقْبَلُوا مِنْهُمْ وَتَرْضَوْا أَعْمَالَهُمْ، فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ بِفِعْلِكُمْ ذَلِكَ)[3].

وقال الجصاص: (الرُّكُونُ إِلَى الشَّيْءِ هُوَ السُّكُونُ إِلَيْهِ بِالْأُنْسِ وَالْمَحَبَّةِ)[4].

وقال الرازي: (قَالَ الْمُحَقِّقُونَ: الرُّكُونُ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ هُوَ الرِّضَا بِمَا عَلَيْهِ الظَّلَمَةُ مِنَ الظُّلْمِ، وَتَحْسِينُ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ وَتَزْيِينُهَا عِنْدَهُمْ وَعِنْدَ غَيْرِهِمْ، وَمُشَارَكَتُهُمْ فِي شَيْءٍ)[5].

وقال أبو حيان: (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَى الرُّكُونِ: الْمَيْلُ.

---

[1] الصحاح للجوهري (٥/٢١٢٦) باختصار.

[2] الجامع للبخاري (٤/١٣٣) برقم (٣٣٣٦) عن عائشة رضي الله عنها، والمسند لمسلم (٤/٢٠٣١) برقم (٢٦٣٨) عن أبي هريرة ﷺ.

[3] جامع البيان للطبري (١٢/٥٥٩).

[4] أحكام القرآن للجصاص (٤/٣٧٩).

[5] التفسير الكبير للرازي (١٨/٤٠٧).

وَقَالَ السُّدِّيُّ، وَابْنُ زَيْدٍ: لَا تُدَاهِنُوا الظَّلَمَةَ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: لَا تَلْحَقُوا بِهِمْ.

وَقَالَ سُفْيَانُ: لَا تَدْنُوَا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا.

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: لَا تَرْضَوْا أَعْمَالَهُمْ.

وَقِيلَ: لَا تُجَالِسُوهُمْ...

وَالنَّهْيُ مُتَنَاوِلٌ لِلِانْحِطَاطِ فِي هَوَاهُمْ، وَالِانْقِطَاعَ إِلَيْهِمْ، وَمُصَاحَبَتَهُمْ، وَمُجَالَسَتَهُمْ، وَزِيَارَتَهُمْ، وَمُدَاهَنَتَهُمْ، وَالرِّضَا بِأَعْمَالِهِمْ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِمْ، وَالتَّزَيِّيَ بِزِيِّهِمْ، وَمَدَّ الْعَيْنِ إِلَى زَهْرَتِهِمْ، وَذِكْرَهُمْ بِمَا فِيهِ تَعْظِيمٌ لَهُمْ...

وَقَوْلُهُ: {إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا}، أَيِ: الَّذِينَ وُجِدَ مِنْهُمُ الظُّلْمُ، وَلَمْ يَقُلِ الظَّالِمِينَ، قَالَهُ: الزَّمَخْشَرِيُّ...

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: فِي جَهَنَّمَ وَادٍ لَا يَسْكُنُهُ إِلَّا الْقُرَّاءُ الزَّائِرُونَ الْمُلُوكَ.

وَسُئِلَ سُفْيَانُ عَنْ ظَالِمٍ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ فِي بَرِّيَّةٍ هَلْ يُسْقَى شَرْبَةَ مَاءٍ؟

فَقَالَ: لَا.

فَقِيلَ لَهُ: يَمُوتُ.

فَقَالَ: دَعْهُ يَمُوتُ)[1].

وقال القرطبي: (الرُّكُونُ حَقِيقَةُ الِاسْتِنَادُ وَالِاعْتِمَادُ وَالسُّكُونُ إِلَى الشَّيْءِ وَالرِّضَا بِهِ... قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا} قِيلَ: أَهْلُ الشِّرْكِ، وَقِيلَ: عَامَّةٌ فِيهِمْ وَفِي الْعُصَاةِ... وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ، وَأَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى هِجْرَانِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَغَيْرِهِمْ، فَإِنَّ صُحْبَتَهُمْ كُفْرٌ أَوْ مَعْصِيَةٌ، إِذِ الصُّحْبَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا عَنْ مَوَدَّةٍ، وَقَدْ قَالَ حَكِيمٌ:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي)[2].

وقال ابن كثير: (أَيْ: لَا تَسْتَعِينُوا بِالظَّلَمَةِ، فَتَكُونُوا كَأَنَّكُمْ قَدْ رَضِيتُمْ بِبَاقِي صَنِيعِهِمْ)[3].

---

[1] البحر المحيط لأبي حيان (٦/٢٢٠، ٢٢١) باختصار.

[2] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩/١٠٨) باختصار.

[3] تفسير القرآن لابن كثير (٤/٣٥٤).

ب- وقال الله ﷻ: {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا}[الإسراء: ٧٤، ٧٥].

قال الطبري: (عَنْ قَتَادَةَ... ذُكِرَ لَنَا أَنَّ قُرَيْشًا خَلَوْا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ إِلَى الصُّبْحِ يُكَلِّمُونَهُ وَيُفَخِّمُونَهُ وَيُسَوِّدُونَهُ وَيُقَارِبُونَهُ، وَكَانَ فِي قَوْلِهِمْ أَنْ قَالُوا: إِنَّكَ تَأْتِي بِشَيْءٍ لَا يَأْتِي بِهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وَأَنْتَ سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا، فَمَا زَالُوا يُكَلِّمُونَهُ حَتَّى كَادَ أَنْ يُقَارِفَهُمْ ثُمَّ مَنَعَهُ اللَّهُ وَعَصَمَهُ مِنْ ذَلِكَ)[1].

وقال الرازي: (قَالَ الْقَفَّالُ - رَحِمَهُ اللَّهُ-:... مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَسْعَوْنَ فِي إِبْطَالِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَقْصَى مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، فَتَارَةً كَانُوا يَقُولُونَ: إِنْ عَبَدْتَ آلِهَتَنَا عَبَدْنَا إِلَهَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}[الْكَافِرُونَ: ١، ٢]، وَقَوْلَهُ: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}[الْقَلَمِ: ٩]، وَعَرَضُوا عَلَيْهِ الْأَمْوَالَ الْكَثِيرَةَ وَالنِّسْوَانَ الْجَمِيلَةَ؛ لِيَتْرُكَ ادِّعَاءَ النُّبُوَّةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ}[طه: ١٣١]، وَدَعَوْهُ إِلَى طَرْدِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ نَفْسِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ}[الْأَنْعَامِ: ٥٢]، فَيَجُوزُ أَنَّ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ فِي هَذَا الْبَابِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَصَدُوا أَنْ يَفْتِنُوهُ عَنْ دِينِهِ وَأَنْ يُزِيلُوهُ عَنْ مَنْهَجِهِ، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ يُثَبِّتُهُ عَلَى الدِّينِ الْقَوِيمِ وَالْمَنْهَجِ الْمُسْتَقِيمِ)[2].

وقال القرطبي: (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعْصُومًا، وَلَكِنْ هَذَا تَعْرِيفٌ لِلْأُمَّةِ؛ لِئَلَّا يَرْكَنَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فِي شَيءٍ مِنْ أَحْكَامِ اللهِ - تَعَالَى- وَشَرَائِعِهِ)[3].

وقال ابن عاشور: (الْمَعْنَى... وَلَوْلَا أَنْ عَصَمْنَاكَ مِنَ الْخَطَأِ فِي الِاجْتِهَادِ، وَأَرَيْنَاكَ أَنَّ مَصْلَحَةَ الشِّدَّةِ فِي الدِّينِ وَالتَّنْوِيهِ بِأَتْبَاعِهِ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ ضُعَفَاءِ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَا تُعَارِضُهَا مَصْلَحَةُ تَأْلِيفِ قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ رَاضِينَ بِالْغَضَاضَةِ مِنْ أَنْفُسِهِمِ اسْتِئْلَافًا لِلْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّ إِظْهَارَ الْهَوَادَةِ فِي أَمْرِ الدِّينِ تُطْمِعُ الْمُشْرِكِينَ فِي التَّرَقِّي إِلَى سُؤَالِ مَا هُوَ أَبْعَدُ مَدًى مِمَّا

[1] جامع البيان للطبري (١٣/١٥).
[2] التفسير الكبير للرازي (٨٣/٢١) باختصار.
[3] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٠٠/١٠).

سَأَلُوهُ، فَمَصْلَحَةُ مُلَازَمَةِ مَوْقِفِ الْحَزْمِ مَعَهُمْ أَرْجَحُ مِنْ مَصْلَحَةِ مُلَايَنَتِهِمْ وَمُوَافَقَتِهِمْ، أَيْ: فَلَا فَائِدَةَ مِنْ ذَلِكَ.

وَلَوْلَا ذَلِكَ كُلُّهُ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ قَلِيلًا، أَيْ: تَمِيلُ إِلَيْهِمْ، أَيْ: تَوَعَّدْتَهُمْ بِالْإِجَابَةِ إِلَى بَعْضِ مَا سَأَلُوكَ، اسْتِنَادًا لِدَلِيلِ مَصْلَحَةٍ مَرْجُوحَةٍ وَاضِحَةٍ، وَغَفْلَةً عَنْ مَصْلَحَةٍ رَاجِحَةٍ خَفِيَّةٍ، اغْتِرَارًا بِخِفَّةِ بَعْضِ مَا سَأَلُوهُ فِي جَانِبِ عِظَمِ مَا وَعَدُوا بِهِ مِنْ إِيمَانِهِمْ)[1].

قلت: مع ما في الآية من فضل من الله ﷻ على رسوله ﷺ، إلا أنها تحمل تهديداً مباشراً تنخلع منه القلوب، فإذا كان قليل الركون مما يستوجب هذا العذاب الشديد، فكيف بكثيره؟! بل كيف بمن اتخذهم أولياء وبطانة ووزراء، يركن إليهم ولمنهجهم ولسياستهم؟!

من أجل ذلك، جاء التحذير الأكيد والوعيد الشديد؛ لئلا يركن الموحد للمخالفين الحائدين عن الجادة، المحادين للدين القويم والمنهج الرشيد، الذين يتمنون أن نكفر ونضل ونرتد ونخسر وننهزم ونتفرق، بهذا وغيره أنبأنا القرآن، فهل يرجى في من هذه دفينة صدره ومكمن مكره نصحاً للمسلمين، أو رشداً للمؤمنين؟

إن دون هذا غرق في لجج الضلالة، وميل وجنوح نحو الغواية، وانزلاق وانحدار نحو مجاري الأهواء، وتيه وضياع في فيافي الآراء.

[1] التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٥/١٥) باختصار.

العلامة السادسة

"ترك القعود معهم"

ويُقصد به ترك المجالسة والمؤانسة والمسامرة مع الكافرين، فإنها دليل الميل، كما...

أ- قال الله ﷻ: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا}[النساء: ١٤٠].

قال الطبري: (يَعْنِي: فَأَنْتُمْ إِنْ لَمْ تَقُومُوا عَنْهُمْ فِي تِلْكَ الْحَالِ مَثَلُهُمْ فِي فِعْلِهِمْ؛ لِأَنَّكُمْ قَدْ عَصَيْتُمُ اللَّهَ بِجُلُوسِكُمْ مَعَهُمْ، وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا، كَمَا عَصَوْهُ بِاسْتِهْزَائِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، فَقَدْ أَتَيْتُمْ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ نَحْوَ الَّذِي أَتَوْهُ مِنْهَا، فَأَنْتُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ فِي رُكُوبِكُمْ مَعْصِيَةَ اللَّهِ، وَإِتْيَانِكُمْ مَا نَهَاكُمُ اللَّهُ عَنْهُ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الدَّلَالَةُ الْوَاضِحَةُ عَلَى النَّهْيِ عَنْ مُجَالَسَةِ أَهْلِ الْبَاطِلِ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ، مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ وَالْفَسَقَةِ عِنْدَ خَوْضِهِمْ فِي بَاطِلِهِمْ.

وَبِنَحْوِ ذَلِكَ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأُمَّةِ الْمَاضِيَةِ يَقُولُونَ تَأَوُّلًا مِنْهُمْ هَذِهِ الْآيَةَ، إِنَّهُ مُرَادٌ بِهَا النَّهْيُ عَنْ مُشَاهَدَةِ كُلِّ بَاطِلٍ عِنْدَ خَوْضِ أَهْلِهِ فِيهِ)[1].

وقال البغوي: (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: دَخَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ كُلُّ مُحْدِثٍ فِي الدِّينِ، وَكُلُّ مُبْتَدِعٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، {إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} أَيْ: إِنْ قَعَدْتُمْ عِنْدَهُمْ وَهُمْ يَخُوضُونَ وَيَسْتَهْزِئُونَ وَرَضِيتُمْ بِهِ، فَأَنْتُمْ كُفَّارٌ مِثْلُهُمْ)[2].

وقال ابن عطية: (فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ قَوِيٌّ عَلَى وُجُوبِ تَجَنُّبِ أَهْلِ الْبِدَعِ، وَأَهْلِ الْمَعَاصِي، وَأَلَّا يُجَالَسُوا)[3].

---

[1] جامع البيان للطبري (٦٠٢،٦٠٣/٧) باختصار.

[2] معالم التنزيل للبغوي (٣٠١/٢).

[3] المحرر الوجيز لابن عطية (١٢٥/٢).

وقال الرازي: (قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ رَضِيَ بِالْكُفْرِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ رَضِيَ بِمُنْكَرٍ يَرَاهُ وَخَالَطَ أَهْلَهُ، وَإِنْ لَمْ يُبَاشِرْ، كَانَ فِي الْإِثْمِ بِمَنْزِلَةِ الْمُبَاشِرِ)[١].

وقال القرطبي: (دَلَّ بِهَذَا عَلَى وُجُوبِ اجْتِنَابِ أَصْحَابِ الْمَعَاصِي، إِذَا ظَهَرَ مِنْهُمْ مُنْكَرٌ؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَجْتَنِبْهُمْ، فَقَدْ رَضِيَ فِعْلَهُمْ، وَالرِّضَا بِالْكُفْرِ كُفْرٌ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: {إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ}، فَكُلُّ مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسِ مَعْصِيَةٍ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ يَكُونُ مَعَهُمْ فِي الْوِزْرِ سَوَاءً، وَيَنْبَغِي أَنْ يُنْكِرَ عَلَيْهِمْ إِذَا تَكَلَّمُوا بِالْمَعْصِيَةِ وَعَمِلُوا بِهَا، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى النَّكِيرِ عَلَيْهِمْ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ عَنْهُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ﷺ أَنَّهُ أَخَذَ قَوْمًا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، فَقِيلَ لَهُ عَنْ أَحَدِ الْحَاضِرِينَ: إِنَّهُ صَائِمٌ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ الْأَدَبَ، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: {إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ}، أَيْ: إِنَّ الرِّضَا بِالْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ، وَلِهَذَا يُؤَاخَذُ الْفَاعِلُ وَالرَّاضِي بِعُقُوبَةِ الْمَعَاصِي حَتَّى يَهْلَكُوا بِأَجْمَعِهِمْ.

وَإِذَا ثَبَتَ تَجَنُّبُ أَصْحَابِ الْمَعَاصِي كَمَا بَيَّنَّا، فَتَجَنُّبُ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ أَوْلَى)[٢].

وقال أبو حيان: (حَكَمَ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ إِذَا قَعَدُوا مَعَهُمْ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهَا، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى الْإِنْكَارِ، مِثْلُهُمْ فِي الْكُفْرِ؛ لِأَنَّهُمْ يَكُونُونَ رَاضِينَ بِالْكُفْرِ، وَالرِّضَا بِالْكُفْرِ كُفْرٌ)[٣].

وقال ابن كثير: (أَيْ: إِذَا ارْتَكَبْتُمِ النَّهْيَ بَعْدَ وُصُولِهِ إِلَيْكُمْ، وَرَضِيتُمْ بِالْجُلُوسِ مَعَهُمْ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُكْفَرُ فِيهِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيُسْتَهْزَأُ وَيُنْتَقَصُ بِهَا، وَأَقْرَرْتُمُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ شَارَكْتُمُوهُمْ فِي الَّذِي هُمْ فِيهِ؛ فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ} أَيْ: فِي الْمَأْثَمِ)[٤].

وقال أبو السعود: (هَذَا يَقْتَضِي الِانْزِجَارَ عَنْ مُجَالَسَتِهِمْ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ الْقَبِيحَةِ، فَكَيْفَ بِمُوَالَاتِهِمْ وَالِاعْتِزَازِ بِهِمْ؟)[٥].

---

[١] التفسير الكبير للرازي (١١/٢٤٧).

[٢] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/٤١٨) باختصار.

[٣] البحر المحيط لأبي حيان (٤/١٠٣).

[٤] تفسير القرآن لابن كثير (٢/٤٣٥).

[٥] إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢/٢٤٤، ٢٤٥) باختصار.

وقال الشوكاني: (فِي هَذِهِ الْآيَةِ- بِاعْتِبَارِ عُمُومِ لَفْظِهَا الَّذِي هُوَ الْمُعْتَبَرُ دُونَ خُصُوصِ السَّبَبِ- دَلِيلٌ عَلَى اجْتِنَابِ كُلِّ مَوْقِفٍ يَخُوضُ فِيهِ أَهْلُهُ بِمَا يُفِيدُ التَّنَقُّصَ وَالِاسْتِهْزَاءَ لِلْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، كَمَا يَقَعُ كَثِيرًا مِنْ أُسَرَاءِ التَّقْلِيدِ، الَّذِينَ اسْتَبْدَلُوا آرَاءَ الرِّجَالِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَمْ يَبْقَ فِي أَيْدِيهِمْ سِوَى: قَالَ إِمَامُ مَذْهَبِنَا كَذَا، وَقَالَ فُلَانٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ: بِكَذَا، وَإِذَا سَمِعُوا مَنْ يَسْتَدِلُّ عَلَى تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ بِآيَةٍ قُرْآنِيَّةٍ أَوْ بِحَدِيثٍ نَبَوِيٍّ سَخِرُوا مِنْهُ، وَلَمْ يَرْفَعُوا إِلَى مَا قَالَهُ رَأْسًا، وَلَا بَالَوْا بِهِ بَالَةً، وَظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ جَاءَ بِأَمْرٍ فَظِيعٍ، وَخَطْبٍ شَنِيعٍ، وَخَالَفَ مَذْهَبَ إِمَامِهِمُ الَّذِي نَزَلُوهُ مَنْزِلَةَ مُعَلِّمِ الشَّرَائِعِ، بَلْ بَالَغُوا فِي ذَلِكَ حَتَّى جَعَلُوا رَأْيَهُ الْفَائِلَ، وَاجْتِهَادُهُ الَّذِي هُوَ عَنْ مَنْهَجِ الْحَقِّ مَائِلٌ، مُقَدَّمًا عَلَى اللَّهِ وَعَلَى كِتَابِهِ وَعَلَى رَسُولِهِ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، مَا صَنَعَتْ هَذِهِ الْمَذَاهِبُ بِأَهْلِهَا)[1].

وقال ابن عاشور: (فِي النَّهْيِ عَنِ الْقُعُودِ إِلَيْهِمْ حِكْمَةٌ... هِيَ وُجُوبُ إِظْهَارِ الْغَضَبِ لِلَّهِ مِنْ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: {تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ}[الممتحنة: ١]...

وَهَذَا الْحُكْمُ تَدْرِيجٌ فِي تَحْرِيمِ مُوَالَاةِ الْمُسْلِمِينَ لِلْكَافِرِينَ، جُعِلَ مَبْدَأُ ذَلِكَ أَنْ لَا يَحْضُرُوا مَجَالِسَ كُفْرِهِمْ؛ لِيَظْهَرَ التَّمَايُزُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ الْخُلَّصِ وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ، وَرُخِّصَ لَهُمُ الْقُعُودُ مَعَهُمْ إِذْ خَاضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِ حَدِيثِ الْكُفْرِ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ – تَعَالَى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[التَّوْبَة: ٢٣])[2].

وقال ابن تيمية: (إِذَا كَانَ هَذَا فِي الْمُجَالَسَةِ وَالْعِشْرَةِ الْعَارِضَةِ حِينَ فِعْلِهِمْ لِلْمُنْكَرِ، يَكُونُ مُجَالِسُهُمْ مِثْلًا لَهُمْ، فَكَيْفَ بِالْعَشْرَةِ الدَّائِمَةِ؟)[3].

وقال سليمان بن عبد الله: (ذكر – تعالى- أنه نزَّل على المؤمنين في الكتاب، أنهم إذا سمعوا آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، فلا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، وأن من جلس مع الكافرين بآيات الله، المستهزئين بها في حال كفرهم واستهزائهم، فهو مثلهم،

---

[1] فتح القدير للشوكاني (١/٦٠٧).

[2] التحرير والتنوير لابن عاشور (٥/٢٣٥، ٢٣٦) باختصار.

[3] مجموع فتاوى ابن تيمية (١٥/٣١٥).

ولم يفرق بين الخائف وغيره إلا المكره، وهذا وهم في بلد واحد في أول الإسلام، فكيف بمن كان في سعة الإسلام وعزه وبلاده، فدعا الكافرين بآيات الله المستهزئين بها إلى بلاده، واتخذهم أولياء وأصحاباً وجلساء، وسمع كفرهم واستهزاءهم وأقرهم، وطرد أهل التوحيد وأبعدهم؟!)[1].

قلت: هذه الآية من التحصينات العديدة التي تحفظ الموحد، وتعالج حالة طارئة، فإن الأصل في الموحد عدم مقاربة أو مجالسة أو مساكنة الكفار، وقد مرت دلائله، غير أن الآية تتناول جانب الاستضعاف، حين يضطر الموحد لمثل هذه المجالسة إما غصباً، وإما لحاجة دنيوية كتجارة أو سفارة، فيثار في مجلس الكفار ما فيه نقيصة أو إساءة لدين الإسلام، فأتت الآية لتنزع عن الموحد كل ألبسة المصالح، ولتجعل المنارة مصلحة التوحيد فقط، فلا يسع المسلم حينها إلا مفارقة المجلس، فإن تعذر بحجج أو موه بلجج، فهو منهم لرضاه بسماع الكفر والمنكر، وهو شريك في الإثم، سواءً بسواء.

ب- وقال الله ﷻ: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[الأنعام:٦٨].

قال الجصاص: (ذَلِكَ عُمُومٌ فِي النَّهْيِ عَنْ مُجَالَسَةِ سَائِرِ الظَّالِمِينَ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ وَأَهْلِ الْمِلَّةِ؛ لِوُقُوعِ الِاسْمِ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا، وَذَلِكَ إذَا كَانَ فِي تَقِيَّةٍ مِنْ تَغْيِيرِهِ بِيَدِهِ أَوْ بِلِسَانِهِ، بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَى الظَّالِمِينَ بِقُبْحِ مَا هُمْ عَلَيْهِ، فَغَيْرُ جَائِزٍ لِأَحَدٍ مُجَالَسَتُهُمْ مَعَ تَرْكِ النَّكِيرِ، سَوَاءٌ كَانُوا مُظْهِرِينَ فِي تِلْكَ الْحَالِ لِلظُّلْمِ وَالْقَبَائِحِ أَوْ غَيْرَ مُظْهِرِينَ لَهُ؛ لِأَنَّ النَّهْيَ عَامٌّ عَنْ مُجَالَسَةِ الظَّالِمِينَ؛ لِأَنَّ فِي مُجَالَسَتِهِمْ مُخْتَارًا مَعَ تَرْكِ النَّكِيرِ، دَلَالَةً عَلَى الرِّضَا بِفِعْلِهِمْ)[2].

قلت: لعموم الأحكام وعدم تخصيصها بالأسباب، أو بمن نزلت فيهم، فإن الآية تنهى عن مجالسة أو مقاربة كل من فعل الظلم كافراً كان أو مسلماً، وأعظم الظلم الشرك، لذلك كان الإعراض عنهم والنأي عن مجالستهم دليلاً في حده الأدنى على الإنكار، أما المقاربة

[1] الدرر السنية (١٢٧/٨).

[2] أحكام القرآن للجصاص (١٦٦/٤، ١٦٧) باختصار.

والسكوت مع القدرة على المفارقة، فإنها العلامة الدالة على انتماء المُجالس للجالسين، فلا شك حينها أنه منهم، اسماً وحكماً.

ج– وقال الله ﷻ: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}[الأنعام: ٧٠].

قال القرطبي: (أَدَّبَ اللَّهُ ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ بِهَذِهِ الْآيَةِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَقْعُدُ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَعِظُهُمْ وَيَدْعُوهُمْ فَيَسْتَهْزِءُونَ بِالْقُرْآنِ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُعْرِضَ عَنْهُمْ إِعْرَاضَ مُنْكِرٍ.

وَدَلَّ بِهَذَا عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا عَلِمَ مِنَ الْآخَرِ مُنْكَرًا، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ فَعَلَيْهِ أَنْ يُعْرِضَ عَنْهُ إِعْرَاضَ مُنْكِرٍ، وَلَا يُقْبِلَ عَلَيْهِ...

فِي هَذِهِ الْآيَةِ رَدٌّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْأَئِمَّةَ الَّذِينَ هُمْ حُجَجٌ وَأَتْبَاعَهُمْ لَهُمْ أَنْ يُخَالِطُوا الْفَاسِقِينَ وَيُصَوِّبُوا آرَاءَهُمْ تَقِيَّةً.

وَذَكَرَ الطَّبَرِيُّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: لَا تُجَالِسُوا أَهْلَ الْخُصُومَاتِ، فَإِنَّهُمُ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُجَالَسَةَ أَهْلِ الْكَبَائِرِ لَا تَحِلُّ.

قَالَ ابْنُ خُوَيْزِ مِنْدَادَ: مَنْ خَاضَ فِي آيَاتِ اللَّهِ تُرِكَتْ مُجَالَسَتُهُ وَهُجِرَ، مُؤْمِنًا كَانَ أَوْ كَافِرًا. قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنَعَ أَصْحَابُنَا الدُّخُولَ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ وَدُخُولِ كَنَائِسِهِمْ وَالْبِيَعِ، وَمَجَالِسِ الْكُفَّارِ وَأَهْلِ الْبِدَعِ، وَأَلَّا تُعْتَقَدَ مَوَدَّتُهُمْ، وَلَا يُسْمَعَ كَلَامُهُمْ، وَلَا مُنَاظَرَتُهُمْ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْبِدَعِ لِأَبِي عِمْرَانَ النَّخَعِيِّ: اسْمَعْ مِنِّي كَلِمَةً، فَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَقَالَ: وَلَا نِصْفَ كَلِمَةٍ. وَمِثْلُهُ عَنْ أَيُّوبَ السِّخْتِيَانِيِّ.

وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: مَنْ أَحَبَّ صَاحِبَ بِدْعَةٍ أَحْبَطَ اللَّهُ عَمَلَهُ، وَأَخْرَجَ نُورَ الْإِسْلَامِ مِنْ قَلْبِهِ، وَمَنْ زَوَّجَ كَرِيمَتَهُ مِنْ مُبْتَدِعٍ، فَقَدْ قَطَعَ رَحِمَهَا، وَمَنْ جَلَسَ مَعَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ لَمْ يُعْطَ الْحِكْمَةَ، وَإِذَا عَلِمَ اللَّهُ ﷻ مِنْ رَجُلٍ أَنَّهُ مُبْغِضٌ لِصَاحِبِ بِدْعَةٍ رَجَوْتُ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ... فَبَطَلَ بِهَذَا كُلِّهِ قَوْلُ مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُجَالَسَتَهُمْ جَائِزَةٌ، إِذَا صَانُوا أَسْمَاعَهُمْ)[1].

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٢/٧، ١٣) باختصار.

قلت: في الآية أمر صريح بترك كل مخالف في الدين ممن اتخذوا الضلالة سبيلاً للهداية، والمنحدر طريقاً للصعود.

العلامة السابعة

"ترك طاعتهم"

قال ابن الأثير: (طَاعَ لَهُ... إِذَا أذْعَنَ وانقادَ... وأَطَاعَ: اتَّبَعَ الأمْرَ وَلَمْ يُخَالِفْهُ)[1].

وقد تنوعت الأدلة في هذا المضمار، فجاءت على قسمين:

الأول– طاعة الله ﷻ، وطاعة رسوله ﷺ، وكل ما اندرج تحت أبواب الطاعة الشرعية، كأولي الأمر من الأمراء والعلماء والوالدين والقادة في المعارك.

الثاني– النهي عن طاعة الكافرين والمشركين والمنافقين، كما...

١– قال الله ﷻ: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا}[الفرقان: ٥٢].

قال البغوي: (فِيمَا يَدْعُونَكَ إِلَيْهِ مِنْ مُوَافَقَتِهِمْ وَمُدَاهَنَتِهِمْ)[2].

وقال الرازي: (أَيْ: لَا تُوَافِقْهُمْ)[3].

قلت: وهو دليل الترك، فإن رسول الله ﷺ لم يطعهم ولو للحظة، فكأنه يقول: اترك طاعتهم.

٢– وقال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}[الأحزاب: ١].

قال الطبري: ({وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ} الَّذِينَ يَقُولُونَ لَكَ: اطْرُدْ عَنْكَ أَتْبَاعَكَ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ حَتَّى نُجَالِسَكَ، {وَالْمُنَافِقِينَ} الَّذِينَ يُظْهِرُونَ لَكَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَالنَّصِيحَةَ لَكَ، وَهُمْ لَا يَأْلُونَكَ وَأَصْحَابَكَ وَدِينَكَ خَبَالًا، فَلَا تَقْبَلْ مِنْهُمْ رَأْيًا، وَلَا تَسْتَشِرْهُمْ مُسْتَنْصِحًا بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَكَ أَعْدَاءٌ)[4].

---

[1] النهاية لابن الأثير (١٤٢/٣) باختصار.

[2] معالم التنزيل للبغوي (٩٠/٦).

[3] التفسير الكبير للرازي (٢٤/ ٤٧٤).

[4] جامع البيان للطبري (٥/١٩).

وقال ابن كثير: (أَيْ: لَا تَسْمَعْ مِنْهُمْ وَلَا تَسْتَشِرْهُمْ، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} أَيْ: فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ تَتَّبِعَ أَوَامِرَهُ وَتُطِيعَهُ، فَإِنَّهُ عَلِيمٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ)[1].

قلت: تناول الآية لصنفي الكفر، من كان مظهر الكفر ومن كان مخفيه، يدللك على من تجب طاعتهم بعد الله ﷻ ورسوله ﷺ، وهم خلص الإيمان، فإن قيل: كيف يُميزوا عن المنافقين، وكلاهما يظهر الإسلام؟

قلت: علاوة على شهادة الحال، فبدلالة النصح والمشورة، فإنها إذا ما شددت على الكفار وأغلظت عليهم، وباعدت بينك وبينهم، فاعلم أنها دلالة الإيمان، وإذا كانت على الضد، فدعتك للتسامح والتقبل والتقارب والتحاور والتفاهم والتعايش، فاعلم أنهم للكفار أقرب، فاحفظ هذا، وأنفذه بترك كل ما لم يأمرك به الله ﷻ نصاً في كتابه، وأرشدتك إليه السنة صحيحاً صريحاً، حتى لو جاء الأمر به من أقرب الأقربين، أو من أكبر المعممين.

٣- وقال الله ﷻ: {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}[الأحزاب: ٤٨].

قال الطبري: (يَقُولُ: وَلَا تُطِعْ لِقَوْلِ كَافِرٍ وَلَا مُنَافِقٍ، فَتَسْمَعُ مِنْهُ دُعَاءَهُ إِيَّاكَ إِلَى التَّقْصِيرِ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَاتِ اللَّهِ، إِلَى مَنْ أَرْسَلَكَ بِهَا إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ)[2].

وقال القرطبي: (أَيْ: لَا تُطِعْهُمْ فِيمَا يُشِيرُونَ عَلَيْكَ مِنَ الْمُدَاهَنَةِ فِي الدِّينِ، وَلَا تُمَالِئْهُمْ)[3].

وقال أبو حيان: (نَهْيٌ لَهُ عليه السلام عَنِ السَّمَاعِ مِنْهُمْ فِي أَشْيَاءَ كَانُوا يَطْلُبُونَهَا مِمَّا لَا يَجِبُ، وَفِي أَشْيَاءَ يَنْتَصِحُونَ بِهَا، وَهِيَ غِشٌّ)[4].

وقال الشوكاني: (فِي الْآيَةِ تَعْرِيضٌ لِغَيْرِهِ مِنْ أُمَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ ﷺ مَعْصُومٌ عَنْ طَاعَتِهِمْ فِي شَيْءٍ مِمَّا يُرِيدُونَهُ، وَيُشِيرُونَ بِهِ عَلَيْهِ)[5].

---

[1] تفسير القرآن لابن كثير (٦/٣٧٥).

[2] جامع البيان للطبري (١٩/١٢٦).

[3] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٤/٢٠٢).

[4] البحر المحيط لأبي حيان (٨/٤٨٨).

[5] فتح القدير للشوكاني (٤/٣٣١).

وقال الألوسي: (نَهْيٌ عَنْ مُدَارَاتِهِمْ فِي أَمْرِ الدَّعْوَةِ وَلِينِ الْجَانِبِ فِي التَّبْلِيغِ وَالْمُسَامَحَةِ فِي الْإِنْذَارِ، كُنِّيَ عَنْ ذَلِكَ بِالنَّهْيِ عَنْ طَاعَتِهِمْ مُبَالَغَةً فِي النَّهْيِ وَالتَّنْفِيرِ عَنِ الْمَنْهِيِّ عَلَيْهِ بِنَظْمِهَا فِي سِلْكِهَا وَتَصْوِيرٍ بِصُورَتِهَا.

وَحَمَلَ غَيْرُ وَاحِدٍ النَّهْيَ عَلَى التَّهْيِيجِ وَالْإِلْهَابِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ ﷺ لَمْ يُطِعْهُمْ حَتَّى يُنْهَى، وَجَعَلَهُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَابِ: "إِيَّاكَ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ"، فَلَا تَغْفُلْ)[1].

٤- وقال الله ﷻ: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}[الكهف: ٢٨].

قال ابن كثير: (أَيْ: أَعْمَالُهُ وَأَفْعَالُهُ سَفَهٌ وَتَفْرِيطٌ وَضَيَاعٌ، وَلَا تَكُنْ مُطِيعًا لَهُ وَلَا مُحِبًّا لِطَرِيقَتِهِ، وَلَا تَغْبِطْهُ بِمَا هُوَ فِيهِ)[2].

٥- وقال الله ﷻ: {وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} [الشعراء: ١٥١، ١٥٢].

قال ابن كثير: (يَعْنِي: رُؤَسَاءَهُمْ وَكُبَرَاءَهُمْ، الدُّعَاةَ لَهُمْ إِلَى الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ، وَمُخَالَفَةِ الْحَقِّ)[3].

٦- وقال الله ﷻ: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}[الأنعام: ١١٦].

٧- وقال الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ}[آل عمران: ١٠٠].

٨- وقال الله ﷻ: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}[الأنعام: ١٢١].

قال أبو حيان: (هَذِهِ الْجُمْلَةُ إِخْبَارٌ يَتَضَمَّنُ الْوَعِيدَ، وَأَصْعَبُ مَا عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يُشَبِّهَ الْمُشْرِكَ، فَضْلًا أَنْ يُحْكَمَ عَلَيْهِ بِالشِّرْكِ)[4].

---

[1] روح المعاني للألوسي (١١/٢٢٤).

[2] البحر المحيط لأبي حيان (٥/١٥٤).

[3] تفسير القرآن لابن كثير (٦/١٥٦).

[4] البحر المحيط لأبي حيان (٤/٦٣٣، ٦٣٤).

وقال ابن كثير: (أَيْ: حَيْثُ عَدَلْتُمْ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَشَرْعِهِ إِلَى قَوْلِ غَيْرِهِ، فَقَدَّمْتُمْ عَلَيْهِ غَيْرَهُ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣١])[1].

وقال السعدي: ({وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ} فِي شِرْكِهِمْ وَتَحْلِيلِهِمُ الْحَرَامَ، وَتَحْرِيمِهِمُ الْحَلَالَ، {إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}؛ لِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمُوهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَوَافَقْتُمُوهُمْ عَلَى مَا بِهِ فَارَقُوا الْمُسْلِمِينَ، فَلِذَلِكَ كَانَ طَرِيقُكُمْ طَرِيقَهُمْ)[2].

٩- وقال الله ﷻ: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ}[محمد: ٢٥، ٢٦].

١٠- وقال الله ﷻ: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا}[الأحزاب: ٦٦، ٦٧].

[1] تفسير القرآن لابن كثير (٢٧١/١).

[2] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٣٢٩/٣).

العلامة الثامنة

"ترك مظاهرتهم"

قال ابن منظور: (ظاهَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا: أَعَانَهُ، والتَّظاهُرُ: التَّعَاوُنُ، وظاهَرَ فُلَانٌ فُلَانًا: عَاوَنَهُ، والمُظاهَرَة: الْمُعَاوَنَةُ، وَفِي حَدِيثِ عَلِيٍّ عليه السلام: أَنه بارَزَ يَوْمَ بَدْرٍ وظاهَرَ، أَيْ: نَصَرَ وأَعَانَ، والظَّهِيرُ: العَوْنُ)[1].

قلت: سبق أن تناولنا ترك اتخاذ الكافرين بطانة، وهذا أوان إيفاء العهد بإظهار الشق الآخر، وذلك لأن دائرة الملة لا تنغلق إلا إذا تحقق شرط الصحة، أي: توافق الظاهر مع الباطن، فكما يجب ترك اتخاذ الكافرين بطانة، فكذلك يجب على الموحد أن لا يظاهر الكافرين أو يستعين بهم فيظاهروه؛ وبمعنى آخر: كما أمر بإبعادهم عن باطنه، وما لاصقه، فكذلك يجب عليه إبعادهم عن ظاهره، وما قاربه؛ لأنه مُستغنٍ بجناب الله عز وجل، ويكفيه بعد الله ﷺ من كان معه من المؤمنين، لذلك قال رسول الله ﷺ: "الْأَنْصَارُ شِعَارِي، وَالنَّاسُ دِثَارِي"[2].

قال ابن عباد: (الشِّعَارُ: مَا يَلِيَ الجَسَدُ مِنْ الثِّيَابِ)[3].

وقال الجوهري (الدِثَارُ: كُلُّ مَا كَانَ مِنَ الثِّيَابِ فَوْقَ الشِّعَارِ)[4].

فإذا كان الشعار هو الساتر للجسد والملاصق له، والدثار لمزيد الستر، أو زينة، عُرف موقع الأنصار من رسول الله ﷺ، فكأنه يقول: أنتم بطانتي والأقرب إلى قلبي، ودونكم من المؤمنين ظهيري وسندي، وفي كلٍ فضيلة، تنسحب على جميع المؤمنين، وفي المقابل تنهى عن إلحاق الكافرين بهذه الفضيلة؛ لأنهم ليسوا من أهلها، ولا هم أهل لها، كما...

أ- قال الله ﷻ: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ}[القصص: ١٧].

---

[1] لسان العرب لابن منظور (٤/٥٢٥).

[2] إسناده صحيح: المسند لأحمد (١٥/٢٢٥) برقم (٩٤٣٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[3] المحيط للصاحب بن عباد (١/٤٣).

[4] الصحاح للجوهري (٢/٦٥٥).

قال قتادة: (لَنْ أُعِينَ بَعْدَهَا ظَالِمًا عَلَى فُجْرِهِ)[1].

وقال البغوي: ({فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا} عَوْنًا، {لِلْمُجْرِمِينَ} قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِلْكَافِرِينَ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِسْرَائِيلِيَّ الَّذِي أَعَانَهُ مُوسَى كَانَ كَافِرًا[2]، وَهُوَ قَوْلُ مُقَاتِلٍ)[3].

وقال الرازي: (فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ مُعَاوَنَةُ الظَّلَمَةِ وَالْفَسَقَةِ)[4].

وقال القرطبي: (أَرَادَ بِمُظَاهَرَةِ الْمُجْرِمِينَ، إِمَّا صُحْبَةَ فِرْعَوْنَ وَانْتِظَامَهُ فِي جُمْلَتِهِ، وَتَكْثِيرَ سَوَادِهِ، حَيْثُ كَانَ يَرْكَبُ بِرُكُوبِهِ، كَالْوَلَدِ مَعَ الْوَالِدِ، وَكَانَ يُسَمَّى ابْنَ فِرْعَوْنَ، وَإِمَّا بِمُظَاهَرَةِ مَنْ أَدَّتْ مُظَاهَرَتُهُ إِلَى الْجُرْمِ وَالْإِثْمِ، كَمُظَاهَرَةِ الْإِسْرَائِيلِيِّ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الْقَتْلِ الَّذِي لَمْ يَحِلَّ لَهُ قَتْلُهُ.

وَقِيلَ: أَرَادَ إِنِّي وَإِنْ أَسَأْتُ فِي هَذَا الْقَتْلِ الَّذِي لَمْ أُؤْمَرْ بِهِ، فَلَا أَتْرُكُ نُصْرَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُجْرِمِينَ، فَعَلَى هَذَا كَانَ الْإِسْرَائِيلِيُّ مُؤْمِنًا وَنُصْرَةُ الْمُؤْمِنِ وَاجِبَةٌ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ.

وَقِيلَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: إِنَّ ذَلِكَ الْإِسْرَائِيلِيَّ كَانَ كَافِرًا، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ إِنَّهُ مِنْ شِيعَتِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ إِسْرَائِيلِيًّا وَلَمْ يُرِدِ الْمُوَافَقَةَ فِي الدِّينِ، فَعَلَى هَذَا نَدِمَ؛ لِأَنَّهُ أَعَانَ كَافِرٌ عَلَى كَافِرٍ، فَقَالَ: لَا أَكُونُ بَعْدَهَا ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ...

قَالَ سَلَمَةُ بْنُ نُبَيْطٍ: بَعَثَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُسْلِمٍ إِلَى الضَّحَّاكِ بِعَطَاءِ أَهْلِ بُخَارَى وَقَالَ: أَعْطِهِمْ، فَقَالَ: اعْفِنِي، فَلَمْ يَزَلْ يَسْتَعْفِيهِ حَتَّى أَعْفَاهُ.

فَقِيلَ لَهُ: مَا عَلَيْكَ أَنْ تُعْطِيَهُمْ وَأَنْتَ لَا تَرْزَؤُهُمْ شَيْئًا؟

قَالَ: لَا أُحِبُّ أَنْ أُعِينَ الظَّلَمَةِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِمْ.

وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الْوَلِيدِ الْوَصَّافِيُّ: قُلْتُ لِعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ: إِنَّ لِي أَخًا يَأْخُذُ بِقَلَمِهِ[1]، وَإِنَّمَا يَحْسِبُ مَا يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ، وَلَهُ عِيَالٌ، وَلَوْ تَرَكَ ذَلِكَ لَاحْتَاجَ وَادَّانَ[2]؟

---

[1] جامع البيان للطبري (١٨/١٩٢).

[2] في كونه كافراً نزاع، وقد نقل القرطبي – وسيأتي تالياً– احتمال هذا وهذا، وقد أشار الرازي في تفسيره الكبير (٢٤/٥٨٤) إلى أن المشهور كونه مسلماً، وسواء أكان مسلماً أم كان كافراً، فترك مظاهرته حال جرمه في الحكم واحد، وهو المقصود هنا.

[3] معالم التنزيل للبغوي (٦/١٩٧، ١٩٨).

[4] التفسير الكبير للرازي (٢٤/٥٨٦).

فَقَالَ: مَنِ الرَّأْسُ؟

قُلْتُ: خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ.

قَالَ: أَمَا تَقْرَأُ مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: {رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ}... فَلَا يُعِينُهُمْ أَخُوك، فَإِنَّ اللَّهَ يُعِينُهُ.

قَالَ عَطَاءٌ: فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُعِينَ ظَالِمًا وَلَا يَكْتُبَ لَهُ وَلَا يَصْحَبَهُ، وَأَنَّهُ إِنْ فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ صَارَ مُعِينًا لِلظَّالِمِينَ)[3].

وقال ابن عاشور: (هُوَ مَا أُوتِيَهُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ، فَتَمَيَّزَتْ عِنْدَهُ الْحَقَائِقُ وَلَمْ يَبْقَ لِلْعَوَائِدِ وَالتَّقَالِيدِ تَأْثِيرٌ عَلَى شُعُورِهِ، فَأَصْبَحَ لَا يَنْظُرُ الْأَشْيَاءَ إِلَّا بِعَيْنِ الْحَقِيقَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ لَا يَكُونَ ظَهِيرًا وَعَوْنًا لِلْمُجْرِمِينَ.

وَأَرَادَ بِالْمُجْرِمِينَ مَنْ يُتَوَسَّمُ مِنْهُمُ الْإِجْرَامُ، وَأَرَادَ بِهِمُ الَّذِينَ يَسْتَذِلُّونَ النَّاسَ وَيَظْلِمُونَهُمْ؛ لِأَنَّ الْقِبْطِيَّ أَذَلَّ الْإِسْرَائِيلِيَّ بِغَصْبِهِ عَلَى تَحْمِيلِهِ الْحَطَبَ دُونَ رِضَاهُ.

وَقَدْ دَلَّ هَذَا النَّظْمُ عَلَى أَنَّ مُوسَى أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ عَدَمَ مُظَاهَرَتِهِ لِلْمُجْرِمِينَ جَزَاءً عَلَى نِعْمَةِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ، بِأَنْ جَعَلَ شُكْرَ تِلْكَ النِّعْمَةِ الِانْتِصَارَ لِلْحَقِّ، وَتَغْيِيرَ الْبَاطِلِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُغَيِّرِ الْبَاطِلَ وَالْمُنْكَرَ وَأَقَرَّهُمَا، فَقَدْ صَانَعَ فَاعِلَهُمَا، وَالْمُصَانَعَةُ مُظَاهَرَةٌ...

وَقَدْ جَعَلَ جُمْهُورٌ مِنَ السَّلَفِ هَذِهِ الْآيَةَ حُجَّةً عَلَى مَنْعِ إِعَانَةِ أَهْلِ الْجَوْرِ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِهِمْ، وَلَعَلَّ وَجْهَ الِاحْتِجَاجِ بِهَا أَنَّ اللَّهَ حَكَاهَا عَنْ مُوسَى فِي مَعْرِضِ التَّنْوِيهِ بِهِ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّهُ مِنَ الْقَوْلِ الْحَقِّ)[4].

وقال الألوسي: (الْمَعْنَى: أُقْسِمُ بِإِنْعَامِكَ عَلَيَّ لَأَتُوبَنَّ فَلَنْ أَكُونَ مُعِينًا لِلْكُفَّارِ بِأَنْ أَصْحَبَهُمْ وَأُكْثِرَ سَوَادَهُمْ)[5].

---

[1] أي: وظيفته الكتابة والتسجيل فقط، وفي البحر المحيط لأبي حيان (٨/٢٩٣): (يَضْرِبُ بِعِلْمِهِ، وَلَا يَعْدُو رِزْقَهُ).

[2] أي: أنه يعمل من أجل الراتب فقط، ويستغني به عن الدَين وحاجة الناس.

[3] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣/٢٦٢، ٢٦٣) باختصار

[4] التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠/ ٩٢، ٩٣) باختصار.

[5] روح المعاني للألوسي (١٠/٢٦٤).

قلت: لا تخلو أحكام التعامل مع الكفار من أوجهٍ خمسة:

١- الحرب.

٢- السلم، وتحته يندرج الصلح أو الهدنة أو الأمان.

٣- الحلف.

٤- الاستعانة.

٥- الإعانة.

ومن أجل هذا الحكم الأخير ذكرت الآية قَسماً من نبي كريم ألا يشارك فيه، فحري بمن كان على منهجه وسبيله أن يتأسى به، فلا يظاهر مشركاً، ولا يعين كافراً.

ب- وقال الله ﷻ: {وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ}[القصص: ٨٦].

قال الكرماني: (مُعِينًا لَهُمْ؛ لِمَا تَرَى مِنْ ضَعْفِكَ فِي الحَالِ وَقُوَّتِهِمْ)[١].

وقال ابن عطية: (أَي: اشْتَدَّ يَا مُحَمَّدُ فِي تَبْلِيغِكَ، وَلَا تَلِنْ، وَلَا تَفْشَلْ، فَتَكُونَ مَعُونَتُهُ لِلْكَافِرِينَ بِهَذَا الْوَجْهِ، أَيْ: بِالْفُتُورِ عَنْهُمْ)[٢].

وقال الخازن: (الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ، والمراد به أهل دينه، أي: ولا تظاهر الكفار ولا توافقهم)[٣].

وقال ابن كثير: ({فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا} أَيْ: مُعِينًا، {لِلْكَافِرِينَ} أَيْ: وَلَكِنْ فَارِقْهُمْ وَنَابِذْهُمْ وَخَالِفْهُمْ)[٤].

وقال الشوكاني: (أَيْ: عَوْنًا لَهُمْ، وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِغَيْرِهِ مِنَ الْأُمَّةِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ لَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لَهُمْ بِمُدَارَاتِهِمْ)[٥].

---

[١] غرائب التفسير للكرماني (٨٧٥/٢).

[٢] المحرر الوجيز لابن عطية (٣٠٣/٤).

[٣] لباب التأويل للخازن (٣٧٤/٣).

[٤] تفسير القرآن لابن كثير (٢٦١/٦).

[٥] فتح القدير للشوكاني (٢١٧/٤).

وقال السعدي: (أَيْ: مُعِينًا لَهُمْ عَلَى مَا هُوَ مِنْ شُعَبِ كُفْرِهِمْ، وَمِنْ جُمْلَةِ مُظَاهَرَتِهِمْ، أَنْ يُقَالَ فِي شَيْءٍ مِنْهُ: إِنَّهُ خِلَافُ الْحِكْمَةِ وَالْمَصْلَحَةِ وَالْمَنْفَعَةِ)[1].

وقال ابن عاشور: (الظَّهِيرُ: الْمُعِينُ، وَالْمُظَاهَرَةُ: الْمُعَاوَنَةُ، وَهِيَ مَرَاتِبُ: أَعْلَاهَا النُّصْرَةُ، وَأَدْنَاهَا الْمُصَانَعَةُ وَالتَّسَامُحُ؛ لِأَنَّ فِي الْمُصَانَعَةِ عَلَى الْمَرْغُوبِ إِعَانَةً لِرَاغِبِهِ.

فَلَمَّا شَمِلَ النَّهْيُ جَمِيعَ أَكْوَانِ الْمُظَاهَرَةِ لَهُمُ، اقْتَضَى النَّهْيُ عَنْ مُصَانَعَتِهِمْ وَالتَّسَامُحِ مَعَهُمْ، وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ الْأَمْرَ بِضِدِّ الْمُظَاهَرَةِ، فَيَكُونُ كِنَايَةً عَنِ الْأَمْرِ بِالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ، كَصَرِيحِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}[التَّوْبَة:٧٣].

وَهَذَا الْمَعْنَى يُنَاسِب كَون هَذِه الْآيَاتِ آخرَ مَا نَزَلَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، وَبَعْدَ مُتَارَكَتِهِ الْمُشْرِكِينَ، وَمُغَادَرَتِهِ الْبَلَدَ الَّذِي يَعْمُرُونَهُ.

وَقِيلَ: النَّهْيُ لِلتَّهْيِيجِ؛ لِإِثَارَةِ غَضَبِ النَّبِيءِ ﷺ عَلَيْهِمْ، وَتَقْوِيَةِ دَاعِي شِدَّتِهِ مَعَهُمْ)[2].

---

[1] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (٦٢٥/١).

[2] التحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٤/٢٠، ١٩٥).

"الفهرس"